جامعة الأزهر
كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
الدراسات العليا
قسم الثقافة الإسلامية

مشكلة الفقر في المجتمع المصري وأثرها على القيم
دراسة ميدانية

تحت إشراف
الأستاذ الدكتور
أحمد ربيع أحمد يوسف
عميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة سابقاً
ورئيس قسم الثقافة الإسلامية

والدكتور
محمد عبد المولى قاسم
المدرس بقسم الثقافة الإسلامية

مقدمة من الباحث
حمدي أمين عبد اللاه محمد
لنيل درجة التخصص الماجستير

شكر وتقدير

أشكر الله العلي القدير أن هيأ لى هذه الفرصة، وأعانني على التأليف والكتابة، وأمدني بالأوقات والنفقات، فله الحمد في بدأ هذا البحث وله الشكر في منتهاه.

كما أشكر لوالدي امتثالًا لأمر الله ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾، فلهما مني الشكر، والتقدير.

ثم أشكر أستاذي فضيلة العالم الجليل الأستاذ الدكتور/ أحمد ربيع أحمد يوسف / العميد الأسبق لكلية الدعوة الإسلامية، ورئيس قسم الثقافة بالكلية، على قبوله الإشراف على هذه الرسالة، وعلى توجيهاته وإرشاداته، لا أقول على مدى عامين كاملين فقط ، وإنما منذ أن كنت طالبًا بالكلية، ثم في الدراسات العليا، فقد استفدت من فضيلته كثيرًا، فكم فتح لي مكتبه، وأجلسني بجواره، وأرشدني إلى المراجع والمناهج التي استفدت منها في كتابة هذا البحث ، فله الشكر والتقدير والله أسأل أن يجزيه خير الجزاء.

والشكر موصول لفضيلة الدكتور/ محمد عبد المولى قاسم عبد الرحمن/ المدرس بكلية الدعوة الإسلامية، قسم الثقافة على جهده واجتهاده في قراءة هذا البحث، فكان لي نعم المعلم والمرشد والناصح الأمين، والأخ الودود، فلقد غمرني بحبه، وأدبه، وكرمه، وعلمه، فجهده ماثل بين عيني لا أنساه، فكم تعب وتعاون معي منذ بداية الكتابة في هذا البحث وإلى منتهاه، والله أسأل أن يحفظه، وأن يجعل عمله في صحائف حسناته.

كما أشكر لزوجتي أم أحمد وابنتي هدى وزهرة على مساعدتهن لي وتعاونهن معي، والشكر موصول للأستاذ/ محمد عبد الستار عبد الحافظ/ على كتابة هذا البحث وطباعته، منذ بدايته وإلى نهايته، فجزاه الله خير الجزاء.

* * *

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين خلق الأرض في يومين، وبارك فيها ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٠].

سبحانه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

وأشهد أن لا إله إلا الله خالق الخلق وباسط الرزق، قال وهو أصدق القائلين: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٢٥ـ٢٨].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا رسول الله أرسله الله رحمة للعالمين فكان ولا يزال هديه ﷺ خير هدي، ونصحه خير نصح، قال في حديثه الشريف: «ما أكل أحد طعامًا قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»(١)، وقال: «فإن شرف المؤمن في قيام الليل وعز المؤمن في استغنائه عن الناس»(٢).

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد:

فإن من الأمور المتفق عليها بين الدعاة إلى الله ﷻ والمصلحين والمخلصين أن حراسة القيم الإسلامية في بلاد الإسلام وبين المسلمين واجب شرعي يصل إلى درجة الفروض العينية التي سيسأل عنها كل مسلم ومسلمة.

ومعلوم أن الإنسان سيد هذا الكون، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وأرسل إليه الرسل، وأنزل إليه الكتب وسخر له ما بين السموات والأرض، وكرمه وفضله على كثير من خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [سورة الإسراء:٧٠]، وهذا التكريم وهذا التفضيل من الله ﷻ للإنسان لا لعنصره الذي خلق منه، ولا لقوته، وإنما لقيمه الإنسانية التي فطره الله عليها وطالبه بالتمسك بها، وحذره من التخلي عنها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ج ٢ صـ ٧٣٠، دار ابن كثير اليمامة بيروت سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م، تحقيق مصطفى ديب البغا، رقم الحديث ١٩٦٦.

(٢) رواه المنذري عن سهل بن سعد الساعدي برقم (٢٦)، وقال رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن، انظر الترغيب والترهيب ج ١/ صـ ٢١٨، ط المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ.

ولقد كان الأوائل ـ من أبناء هذه الأمة ـ يعرفون هذه القيم ويحرصون عليها ويعملون ليل نهار على حفظها وحمايتها مما يتهددها، ويربون أولادهم وزويهم على حبها والتفاني من أجلها والدفاع عنها، بل كانوا يعقدون ـ فيما بينهم وبين غيرهم من أجلها ـ عقود الولاء والنصرة، والحب والبغض، والقرب والبعد.

ولقد عاش أبناء المجتمع المصري على أساس هذه القيم الأصيلة التي ورثوها عن دينهم الحنيف وعن أبائهم الأماجد، ورأوا فيها عزهم ورفعتهم فما زهدوا فيها ولا رغبوا عنها.

ومافتئ الزمان يدور حتى تغيرت الأمور وصار المجتمع الذي تربى على هذه القيم والفضائل على مر العصور يتحول عنها رويدًا رويدًا إلى النقيض.

تحول البعض من الصدق إلى الكذب، ومن أداء الأمانة إلى الخيانة، ومن الوفاء بالعهود إلى نقضها والتبرم بها، ومن صلة الرحم إلى القطيعة، ومن التكافل الاجتماعي إلى الأنانية وحب الذات، ومن برّ الوالدين إلى العقوق ونكران الجميل، ومن الجد والاجتهاد إلى التكاسل والخمول.

ومما لا شك فيه أن هذا التحول لم يحدث بين عشية و ضحاها ولم يحدث من تلقاء نفسه، بل هناك أسباب غيرت الطباع الأصيلة وجعلت البعض يقدم على فعل الرذيلة، ويجهر بها دون حياء أو خجل أو خوف عقاب أو حساب.

ولقد تباينت الآراء حول تحديد السبب الرئيس لهذا التحول أهو الجهل بهذه القيم أم هو التقليد الأعمى للغير أم ضعف الإرادة والعزيمة، أم هو الفقر والحاجة.....أم هو.....

والحق أن كل ذلك يشكل خطرًا على القيم والمبادئ، إلا أن الفقر هو السبب الرئيس والأقوى والأخطر فهو أحد الأعداء الثلاثة التي تعاني منها البشرية ولازالت حائرة أمامها وعاجزة عن مكافحتها.

وإذا كان العلماء يرون أن أعداء الإنسان ثلاثة، الجهل والفقر والمرض، ويقرون أن الفقر يمثل ثلث المشاكل التي تواجه العالم، إلا أن حقيقة الفقر أكبر وأخطر في عداوتها على الإنسان وعدوانها على قيمه ومبادئه من كل الأسباب الأخرى مجتمعة.

فالفقر لم يكتفِ أنه استقل بثلث مشاكل العالم بل له اتصال مباشر وصلة وثيقة بالثلثين الآخرين، فالجهل أساسه الفقر، ومعلوم أن نسبة الجهل في الدول الفقيرة وبين الفقراء أكبر بكثير منها بين الأغنياء وقل مثل ذلك في المرض وغيره.

وما من سبب يؤثر سلبًا على القيم الفاضلة إلا وللفقر دخل فيه من قريب أو بعيد، فلا يخفى على أحد أن المدخل الرئيس الذي يدخل منه الـمُـنَصِّرون إلى قلوب الناس وسرقة عقائدهم هو (الفقر).

ولقد قرن النبي ﷺ بين الكفر والفقر فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»[(١)]، وقد قيل: إذا قال الكفر إني ذاهب إلى بلد، قال الفقر: خذني معك.

والحق أن موضوع الفقر والتصدي له شَغَل ولا يزال يشغل العالم كله، ومصر من البلاد التي تصنف عالميًّا على أنها فقيرة أو نامية، وأنها تواجه مشكلة فقر منذ زمن بعيد وأنها في حاجة إلى حلٍّ جذريّ بعد فشل أو إخفاق الحلول السابقة.

فالبنك الدولى - مثلا - يحدد أن متوسط الدخل السنوى لمصر (٦٦) دولاراً أى حوالى(٥) دولار شهرياً أى جنيه واحد مصرى للفرد يومياً .

ومصر بها (١٤) مليون فقير أى خمس (١/ ٥) سكان مصر (مُعدمين) والأصعب أن هناك أربعة ملايين مصرى لا يجدون رغيف العيش اليومى لفقرهم وشدة عوزهم ، وأن مصر تستورد (خمسة)أرغفة من كل (ستة) أرغفة أى (٨٠٪) من طعامنا مستورد .

الأمر الذى يجعل العلماء وطلبة العلم يبحثون فى هذا الموضوع بغية الوصول إلى حلول ناجعة ونافعة لمصر والمصريين وجميع المسلمين .

وإني لأرجو من الله ﷻ أن أكون قد وفقت ـ في هذه الدراسة ـ و الله المستعان سبحانه وله الفضل في بدئه، وله الشكر في منتهاه.

* * *

---

(١) رواه أبو داود فى الادب برقم (٥٠٩٠)وعن ابى هريرة برقم (١٢٩٢٩)٧/ ١٢ط دار الباز مكة المكرمة سنة ١٤٠٤ هـ ورواه الحاكم و قال حديث صحيح على شرط مسلم برقم ٩٩ في المستدرك، كتاب الإيمان ج١ صـ ٩٠، طبعة دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ،ورواه البيهقى عن انس انظر صحيح الجامع (١٢٥٨).

أهداف هذا البحث

لهذا البحث أهداف يمكن أن أجملها فيما يلي:

أولا: بيان قيم المجتمع المصري الأصيلة والتي ترسخت وثبتت عبر القرون حتى صارت مَعلمًا من معالم هذا المجتمع وخصيصة من خصوصياته.

ثانيًا: توضيح مظاهر الفقر، وأسبابه، وآثاره من خلال حقائق واقعية وعينات مستهدفة في بيئات متباينة لمعرفة حجم المشكلة ومدى خطورتها على قيم المجتمع الدينية والإنسانية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية... إلخ.

ثالثًا: الكشف عن طبيعة المشكلة لبيان إن كانت (حقيقة) عصيّة على الحل، أم هناك أصابع خفية وراءها تحرص على خدمة أهداف وسياسات تستهدف المجتمع المصري وقيمه وتاريخه ومستقبله.

رابعًا: تقديم دراسة علمية للمشكلة تقوم على أساس نظرة الإسلام للفقر ووضع الحلول المناسبة والعملية له، بعد تقييم الحلول السابقة وبيان سبب فشلها أو إخفاقها.

خامسًا: الإسهام ـ قدر الإمكان ـ في توعية المجتمع ومؤازرة المصلحين والباحثين ـ بصدق ـ عن حل هذه المشكلة إيمانًا منِّي بالواجب الملقى على كاهل العلماء وطلبة العلم.

سادسًا: بيان أهمية قيم الإيمان التي أجمعت عليها الشرائع السماوية والقوانين الرشيدة في حياة الشعوب وخطورة التخلي عنها.

سابعًا: التعريف بالموارد الطبيعية والبشرية الغنية بها مصر والكفيلة ـ إن صدقت النوايا وصلح العمل ـ بحل المشكلة.

ثامنًا: معرفة أقوال وآراء أهل الاختصاص من العلماء والباحثين في مجال الاجتماع والاقتصاد والأخلاق، وما وصلوا إليه وبيان خطورة إهمالها وعدم العمل بمقتضاها .

تاسعًا: كشف حقيقة المجتمع المصري في تعامله مع هذه المشكلة ومدى استعداده لمواجهتها.

عاشرًا: معرفة آراء وأحوال العينة المختارة للدراسة الميدانية والاستفادة منها لاسيما في تحديد علاقة المشكلة بالقيم اللازمة لسعادة المجتمع، هذه هي أهم الأهداف التي يهدف إليها البحث.

والله المستعان

أسباب كتابة هذا البحث

لا تقل أسباب اختياري للكتابة في هذا لموضوع ـ في الأهمية ـ عن الأهداف السابقة؛ إذ تمثل هذه الأهداف الدافع الأساسي للبحث والكتابة، ثم تأتي بعد ذلك أسباب أخرى، دعت إلى اختيار هذا البحث، أُجملها فيما يلي:

١ـ قلة الكتابات في هذا الموضوع، أو اقتصارها على مسألة الأمن الغذائي، أو العلاج والتعليم والمادة دون مراعاة البعد الأخلاقي والقيمي المتعلق بالمشكلة.

٢ـ التغيير الملحوظ الذي طرأ على المجتمع المصري في السنوات الأخيرة لأسباب كثيرة منها (الفقر)، والذي بدأ كظاهرة ... حتى صار مشكلة ذات أبعاد كثيرة وخطيرة تؤرق المصلحين وتهدد المجتمع في أمنه ودينه.

٣ـ تبرير الانحراف الخلقي والسلوكي بدعوى البحث عن لقمة العيش...وتغير الزمان... وضروريات الحياة.

٤ـ حاجة المجتمع المصري ـ لاسيما في هذا العصر، عصر العولمة والإنترنت والقنوات الفضائية ـ إلى المحافظة على الهوية الإسلامية والعربية، في ظل الظروف الاقتصادية، التي تمر بها البلاد.

٥ـ دخول مفاهيم جديدة في لغة التخاطب والتعامل بين الشعب والسلطة الحاكمة تحتاج إلى تقييم وتصحيح.

٦ـ تخبط المجتمع في ظلمات الحلول المستوردة، وإنهاك قواه بالتجارب الفاشلة، وجريه وراء سراب الوعود الخارجية، والتي طالما خدرته، وعطلته، وخدعته وما زادته إلا بُعدًا عن الهدف، مع الاستنزاف الكبير، والمستمر، لقدرات المجتمع المصري، جهدًا، ووقتًا، ومالًا.

٧ـ زيادة معدلات الجريمة التي لها صلات مباشرة بالفقر والحرمان والجوع كالسرقة، والقتل، والطلاق وتفكك الأسر وغيرها من الجرائم التي ينسبها المراقبون إلى الفقر.

٨ـ اليأس من تغيير الواقع بدعوى الصبر، وعدم إثارة الفتن، والرضا بالقدر، وطاعة ولي الأمر فيما قسم وقدّر ..... وإلصاق ذلك بالإسلام، والحق أن الإسلام بريء من الفقر، ومن حلفائه، وممن يروجُ له.

٩ـ العمل على الارتقاء بالفكر الذي يتناول موضوع الفقر بالرصد، والتحليل، والبحث، ووضع الخطط والحلول، والوسائل، التي تعالج المشكلة، وتراعي ظروف الزمان، والمكان، والإنسان.

أهمية هذا البحث

أعتقد أن هذا الموضوع ـ في هذا الوقت بالذات ـ له طابع خاص وأهمية قصوى، وذلك لأمور أذكر منها ما يلي:

أولًا: موقع مصر بين العالم ودورها الرائد والتاريخي في الدفاع عن قضايا، الإسلام وقيم وحقوق المسلمين، والذي تأثر سلبًا لأسباب كثيرة على رأسها الفقر والهموم اليومية والمعيشة التي يعاني منها أبناء مصر.

ثانيًا: استغلال هذه المشكلة استغلالًا سيئًا من قبل أعداء الإسلام والمتربصين بمصر واعتبارها نقطة ضعف وورقة ضغط لا يغفل عنها الكثيرون.

ثالثًا: ظهور بعض القوى الإقليمية التي تنافس مصر في كثير من المجالات والتي تريد أن تقوم بدور مصر التاريخي، والريادي، والذي عرفت به مصر عبر العصور، والأزمان.

رابعًا: هذا البحث يجيء بعد سنوات عجاف مرت بها مشكلة الفقر في مصر، وبعد تقديم الحلول والنظريات ووضع الاستراتيجيات التي أعلنت إفلاسها والبحث عن جديد، بل وتدق ناقوس الخطر إن لم تحل هذه المشكلة في أقرب وقت.

خامسًا: المراهنة على مصر في الحاضر والمستقبل باعتبارها قلب العالم الإسلامي النابض، وعقله المفكر وأن ما تمر به من أزمات حادة تشغلها بنفسها وتعزلها عن محيطها الإقليمي والعالمي، لتتخلى عن مسئوليتها الدينية وواجباتها القومية.

ولا يخفى أن التخلص من الفقر يسقط هذه الحسابات، ويوقف سيل المزايدات على قدرات مصر وأبنائها، وأنها ـ بفضل الله ـ قادرة على تخطي الصعاب وحل المشكلات وإن مصر هي (مصر) كما ذكرها الله في كتابه العزيز، وكما تكلم عنها نبيّه الكريم.

وإذا كان قدرنا في هذا الزمان أن يتكلم ـ في حل المشكلة ـ كل مَن يحلو له أن يتكلم، فلا عجب أن يتقدم أبناء الإسلام بالحل الإسلامي الشامل، والكامل لكل أبعاد المشكلة، بل وعليه نور من كتاب الله، وسنة نبيّه ﷺ، مع الاستفادة الكاملة ـ أيضًا ـ من معطيات العلم الحديث وتجارب الآخرين، طالما ذلك لا يضر بقيمنا التي ارتضاها لنا ربنا.

وستبدوا أهمية هذا البحث جلية بوضوح عند مناقشة الحلول المطروحة ـ من قبل ـ لحل المشكلة وبيان عجزها وقصورها...

الدراسات السابقة والاستفادة منها

هذه الدراسة التي أتقدم بها ـ دراسة ميدانية ـ خاصة بالمجتمع المصري وقيمه التي عرف بها، وأثر مشكلة الفقر على هذه القيم لاسيما في العصر الحديث.

وهذه الدراسة ـ بهذا الخصوص والتحديد ـ لم يسبق إليها أحد- فيما أعلم ـ ومن خلال اطلاعي على رسائل الماجستير والدكتوراه في الكليات التي كُلفت بالبحث فيها، وكذلك شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) تبين لي أنه لا توجد رسالة جامعية ذات صلة مباشرة بالموضوع.

ولا أنكر أن هناك جهودًا بذلت ولازالت تُبذل حول مشكلة الجوع والفقر والبطالة فيما يسمونه بدول (العالم الثالث)، أو الدول النامية ومنها مصر، إلا إن هذه الدراسات مع كونها عامة وعالمية ومنها ما ينظر للمشكلة نظرة مادية ويرى حلها من منظور مادي (إما غربي رأسمالي ـ وإما شرقي اشتراكي)، ومعلوم أن كِلا النظامين طبق بالفعل في مصر ولم يحل المشكلة بل زادها سوءًا وتعقيدًا؛ لأن المجتمع المصري له قيم وخصوصيات لابُدّ وأن توضع في الاعتبار لتكون جزءًا من الحلّ.

فالمشكلة في مصر لها أبعاد أخرى وتتطلب مع آليات العمل المادي، قيمًا واستعدادات أخرى يغفل عنها الكثيرون.

والذي أريد أن أؤكد عليه في هذه الدراسة أن المشكلة مشكلة قيم ومبادئ متصارعة تعمل على بقاء الفقر في مصر، وسأثبت ذلك ـ بفضل الله ـ لا من خلال الدراسة النظرية فقط ولا من خلال الجهات الرسمية فقط، وإنما من خلال الواقع الحالي، والنزول إلى الشارع والذهاب إلى عدة محافظات وأخذ عينات من خلال استمارات استبيان في بحث ميداني خاص ومتكامل لرصد الواقع الفعلي واستخراج نتائج هامة، ومراجعتها من قبل أساتذة وخبراء ومتخصصين في مجالات الاقتصاد والأخلاق مع ذكر آخر الأرقام والإحصائيات الحديثة التي لها صلة بموضوع المشكلة.

ولا أنكر أنني استفدت من الدراسات السابقة، القريبة من موضوع البحث كرسالة الماجستير للدكتور حلمي صابر رحمه الله وهي رسالة عامة تكلمت عن الجوع في العلم الإسلامي كله، وليست عن المجتمع المصري الحديث وقيمه، والرسالة وإن كانت مقدمة منذ أكثر من ثلاثين سنة ولم ترصد التحول الخطير للمجتمع المصري الحديث، إلا إنني استفدت منها لاسيما فيما يتعلق بحجم المشكلة في العالم الإسلامي ـ آنذاك ـ وحلها من منظور إسلامي مقارنة بالحلول الأخرى.

وبعيدًا عن رسائل الماجستير والدكتوراه فقد استفدت من كتاب الدكتور يوسف القرضاوي «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام»، إذ ردّ فيه الأستاذ على مَـن يقدسون الفقر، ويرون أنه قدر محتوم لا يمكن تغييره، وأنه خير للأمة من الغني ويفسرون أحاديث رسول الله ﷺ، الواردة في فضل الفقراء على غير ما فهمه العلماء، ردّ الدكتور القرضاوي على هذه المزاعم ثم بَيّن أن الإسلام لا يدعو إلى الفقر وهو بريء منه.

والجدير بالذكر أن هذه المراجع والدراسات ـ مع أهميتها وعِظم قدرها ـ إلا إنها لم تكن وحدها المراجع التي اعتمد عليها الباحث في هذه الدراسة، فثمت أمور تتعلق بالبحث الميداني، ونتائج استبيان عينة الدراسة المختارة، والاتصال بأهل الخبرة والمتخصصين في طرق حل المشكلة، ومتابعة الإعلام وما يصرح به المسئولون ..... وما ينتج عن ذلك من أحداث لها صلة بالمشكلة وآثارها على القيم، والطرق المتبعة في الحلول المطروحة.

* * *

فروض الدراسة

افترض الباحث فروضًا وعمل على التحقق من صحتها، وهي على النحو التالي:ـ

١ـ السن (المرحلة العمرية) والفقر.

٢ـ النوع (ذكر أو أنثى) والفقر.

٣ـ البيئة الاجتماعية، وعلاقتها بالفقر.

٤ـ يوجد اتفاق بين عينة البحث، والخبراء المختصين، حول الإقرار بوجود المشكلة، وضرورة التصدي لها.

٥ـ المهنة أو العمل، والفقر.

٦ـ وجود علل خفية، تؤثر سلبًا على حل المشكلة.

٧ـ وجود قصور في فهم طبيعة المشكلة، وطبيعة المجتمع المصري.

* * *

منهج البحث

منهج البحث هو المنهج الوصفي التحليلي باعتباره متناسبًا مع أهداف البحث، والنتيجة التي يريد الباحث الوصول إليها، كما استخدم الباحث المنهج المقارن لعقد مقارنة إحصائية بين الإجابات لتحليل النتائج الدالة على استجابات عينة الدراسة.

ولقد اعتمدت هذه الدراسة مع الوصف على الملاحظة والكشف عن الحقائق القائمة على الأرض، ومن ثم فقد قامت الدراسة على الاتصال المباشر بالفئات المستهدفة بالبحث والاستبيان، بالاتصال بالأساتذة المتخصصين، وبالرجوع إلى المراجع المعتمدة والأبحاث العلمية لإثبات حقائق واقعية، وكان ذلك من خلال مراحل ثلاث هي:

المرحلة الأولى: وصف دقيق للمجتمع المصري وقيمه التي امتاز بها والتي ارتضاها الله له، ودليل ذلك من القرآن الكريم والسنة المطهرة وكتب التاريخ وعلماء الاجتماع وغيرهم، مع مراعاة استخراج الأدلة من مظانها، وبيان رقم الآيات، واسم السور التابعة لها، ونقلها من المصحف بالخط العثماني، وتخريج الأحاديث النبوية من كتب الحديث الأصلية، وإن كانت فى غير الصحيحين، ذكر الباحث درجة الحديث مع تحري الصحيح والحسن، والبعد عن الضعيف قدر الإمكان.

المرحلة الثانية: وصف دقيق لمظاهر المشكلة منذ أن كانت ظاهرة إلى أن صارت مشكلة ذات أبعاد كثيرة، وأسباب متنوعة، و آثار خطيرة، ومظاهر واضحة.

المرحلة الثالثة: المقترحات المقدمة لحل المشكلة ـ قديمًا وحديثًا ـ وعدم نفعها للمجتمع المصري وبعدها عن روح الإسلام، وذكر مزايا الحل الإسلامي، وسبب إقصائه، وضرورة العودة إليه.

❊❊❊

خطة البحث

بعد ذكر المقدمة، وأسباب البحث، وأهدافه، وأهميته، والدراسات السابقة والاستفادة منها، يجدر بي أن أذكر ـ باختصار ـ الخطة التي سرت عليها في كتابة هذا البحث وترتيب فصوله ومباحثه، فأقول: يتكون هذا البحث من جانبين (جانب نظري، وآخر ميداني).

أولًا: الباب الأول(الإطار النظري):

ويتكون من اربعة فصول فى كل منها مباحث ومطالب يسبقها مقدمة، وتمهيد ثم الخاتمة وسيكون ـ إن شاء الله ـ على النحو التالي:

١ـ المقدمة: وفيها ذكرت أهمية الموضوع وسبب اختياري له، والدراسات السابقة ومنهجي في البحث.

٢ ـ التمهيد: وفيه التعريف بأهم المفرادات والكلمات التي يدور حولها البحث، وخصوصيات المجتمع المصري الثابتة له فى الكتاب والسنة وعبر العصور.

الفصل الأول

المجتمع المصري وعلاقته بالقيم:

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: قيمة التدين الفطرى والاعتزاز بالهوية العربية والإسلامية.

المطلب الثاني: قيمة التكافل وحسن الجوار.

المطلب الثالث: قيمة الصبر الإيجابي ومواجهة الأزمات بحكمة واقتدار.

المطلب الرابع: قيمة تفعيل الإحساس بالمسئولية نحو الإسلام والمسلمين.

الفصل الثاني

أهم مظاهر الفقر فى المجتمع المصرى:

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: قلة مستوى الدخل الفردي والأسرى في مصر.

المطلب الثاني: عدم كفاية المساكن ورداءة مستواها.

المطلبالثالث:البنيةالأساسيةومستوى الخدمات.

الفصل الثالث

أسباب الفقر في المجتمع المصرى:

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأسباب الخارجية:

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: رغبة الدول الكبرى في إبقاء مصر دولة فقيرة.

المطلب الثاني: الاتفاقيات الاقتصادية الغير متكافئة.

المطلب الثالث: تصدير التكنولوجيا الاستهلاكية لنا، وتسهيل الحصول عليها.

المطلب الرابع: الإعانات المشروطة والتي تصب في خدمة المانح .

المبحث الثاني: الأسباب الداخلية:

وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول: عدم دراسة المشكلة بالقدر الكافي.

المطلب الثاني: الاعتماد شبه التام على الاستيراد، لسد حاجات المجتمع.

المطلب الثالث: وجود العقبات أمام المشاريع الإنتاجية.

المطلب الرابع: عدم مراعاة العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل

المطلب الخامس: الانشغال عن الانتاج بوسائل غير جادة ونافعة.

المطلب السادس: الإسراف والتبذير.

المطلب السابع: الفساد المالى والإداري وغياب الرقابة الرادعة للدولة.

الفصل الرابع

علاقة الفقر بالقيم والأخلاق:

وفيه تمهيد وسبعة مباحث:

التمهيد: وفيه مناقشة مسائل ثلاث تتعلق بعلاقة الفقر بالقيم.

المبحث الأول: أثر مشكلة الفقر على العقيدة.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: سوء الظن ـ بالله تعالى ـ والشك في عدله والاعتماد على غيره.

المطلب الثاني: الاستعداد لقبول الأفكار الهدامة والمذاهب الإلحادية.

المبحث الثانى: أثر مشكلة الفقر على العبادة.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التقاعس في التزام الفرائض بدعوى (العمل عبادة).

المطلب الثاني: تقلص الوقف الإسلامي.

المطلب الثالث: البخل وعدم إخراج الزكاة بالقدر الذي يسد حاجة المجتمع.

المطلب الرابع: رفع الأصوات في المساجد، ومزاحمة الشعائر بالمشاريع الإنتاجية.

المطلب الخامس: كثرة عدد المتسولين والشحاذين أمام المساجد.

المبحث الثالث: أثر مشكلة الفقر على الأخلاق والسلوك:

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: ظاهرة السب والمجاهرة بالألفاظ غير اللائقة.

المطلب الثاني: الاعتداء على الوالدين والأولاد والمحارم .

المطلب الثالث: قبول العمل في المهن اللاأخلاقية، والكسب اللامشروع.

المطلب الرابع: الحقد والحسد من الفقراء على الأغنياء.

المطلب الخامس: إهمال قيم التسامح في المعاملات وكثرة التقاضي بين الناس.

المبحث الرابع: أثر مشكلة الفقر على العلم والفكر والإبداع:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الرغبة عن التعليم الديني إلى المدارس الأجنبية خشية الفقر.

المطلب الثاني: التفكير المستمر في الحصول على مقومات الحياة.

المطلب الثالث: ضعف الإرادة وفقد الثقة في النفس والقدرة على التفكير والإبداع.

المبحث الخامس: أثر مشكلة الفقر على الترابط الأسرى:

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التفكك الأسري وزيادة معدلات الطلاق.

المطلب الثاني: ضعف دور الوالدين في تربية الأولاد بسبب الخروج للكسب ومضاعفة ساعات العمل.

المطلب الثالث: الهروب من المسئولية بدعوى عدم القدرة على النفقة.

المطلب الرابع: العزوف عن الزواج والإحساس بالعجز عن تكوين الأسرة.

المطلب الخامس: كثرة العداوات والخلافات بين الأقارب.

المبحث السادس: أثر مشكلة الفقر على أمن المجتمع واستقراره:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: زيادة معدلات الجريمة.

المطلب الثاني: تبلد الحس وترك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الثالث: زيادة عدد اللقطاء وأطفال الشوارع.

المبحث السابع: أثر مشكلة الفقر على الكيان السياسى للدولة:

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: فتور العلاقة بين عامة الشعب والسلطة الحاكمة.

المطلب الثاني: السخرية والاستهزاء وكتمان العداء للسلطة.

المطلب الثالث: قيام الاحتجاجات للمطالبة بتوفير ضرورات الحياة.

المطلب الرابع: ظهور التيارات المناوئة لنظام الحكم سياسية كانت أو اجتماعية.

المطلب الخامس: ظهور الثورات المطالبة بالحرية والعدالة الاجتماعية.

ثانيًا: الباب الثاني (الإطار الميدانـي):

الفصل الخامس:الإجراءات المنهجية للدراسة.

الفصل السادس: تحليل وتفسير نتائج الدراسة الميدانية.

الفصل السابع

الحلول والمقترحات:

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: وفيه مناقشة الحلول المطروحة لحل المشكلة.

المبحث الأول: الحلول الثقافية الضرورية لمواجهة المشكلة:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الاهتمام بالتوعية والتعليم والثقافة الإنتاجية، وغيرها.

المطلب الثاني:الاستفادة من الأبحاث العلمية ومن أهل الخبرة وتفعيل مقترحاتهم

المبحث الثانى: الحلول المادية الضرورية لمواجهة المشكلة:

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مراعاة العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل.

المطلب الثاني: المزيد من تشجيع العمل والإنتاج بالوسائل الممكنة.

المطلب الثالث: الاهتمام الخاص بالأمن الغذائي ومشكلة السكن والعلاج.

المطلب الرابع: محاسبة المتسببين في الفساد ليكونوا عبرة لغيرهم.

خاتمة البحث: وتشتمل على:

أولًا: نتائج البحث.

ثانيًا:توصيات البحث.

ثالثًا:ملحق البحث.

رابعًا: مراجع البحث.

خامسًا: فهارس البحث.

التمهيد

وفيه التعريف بمفردات وكلمات البحث، وخصوصيات المجتمع المصرى الثابتة له فى الكتاب والسنة وعبر العصور؛فمن البديهي لمن يبحث في موضوع أن يوضح ـ بدقة ـ مدلول الكلمات التي يدور حولها البحث، وهي هنا ستّ كلمات:

ـ تعريف كلمة (مشكلة): وهي لغة: من الإشكال، والاختلاط، والصعوبة في الفهم، أو التنفيذ، أو التداخل، والاشتباه.

ـ وعند أهل البديع: ذكرالشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته.

ـ وعند الأصوليين: ما لا يفهم حتى يدل عليه دليل غيره، واشتكل عليه الأمر، أي: اختلط والتبس، وشكل الدابة، أي: قيدها بالشكال[١]، أي: جمع يدها اليمنى مع رجلها اليسرى أو العكس، بقصد المخالفة حتى تصعب الحركة، والشيء المشكل هو ما لا ينال المراد منه إلا بالتأمل والطلب.

ـ «وقيل: هو في أشكاله وأمثاله وأشباهه، مأخوذ من قولهم، أشكل أي: صار ذا شكل»[٢].

ـ تعريف كلمة (الفقر): «وهي لغة: بمعنى العوذ والحاجة، وجمعه: مفاقير على غير قياس، والفقر هو: الشق والحجز ـ والفقر: الهم والحرص، والفقير: المكسور الفقار ـ والفقير من الناس: مَن لا يملك إلا القوت، والجمع: فقراء، وفُقُر، و(المفاقير): وجوه الفقر ـ يقال: سدّ الله مفاقيره أي: أغناه، وافتقر: صار فقيرًا، وافتقر إلى الأمر: احتاج إليه»[٣]، فكل مَـن له حاجة ملحة لشيء فهو فقير لهذا الشيء، والفقر ضد الغنى.

ـ «والفقير عند الإمام أبي حنيفة هو: مَـن لا يملك نصاب الزكاة، أو هو مَـن له أدنى شيء»[٤].

---

(١) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ط وزارة التربية والتعليم سنة ١٤١٨هـ ـ١٩٩٧م، صـ ٣٤٩،٣٤٨.

(٢) كتاب التعريفات للجرجاني ط دار الرشاد صـ ٢٤٤ بدون تاريخ.

(٣) المعجم الوسيط الجزء الثاني، صـ٦٩٧، وانظر كذلك المنجد في اللغة والأدب والعلوم صـ٥٩٠، طـ دار الكتاب المقدس بمصر بدون تاريخ.

(٤) تفسير روح المعاني للإمام شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، ج٤ صـ ١٢٠ طبعة دار الفكر، بدون تاريخ.

وعرفه الحنفية بأنه: (من يملك دون النصاب، أو قدر نصاب غير نام مستغرق في حاجته)[١].

وعرفه الشافعية والحنابلة:(من لا يملك شيئًا ألبتة، أو يجد شيئًا يسيرًا لا يقع موقع كفايته)[٢].

وعرفه المالكية بأنه: (من يملك شيئًا لا يكفيه قوت عامه)[٣].

ـ وقيل: الفقير مَـن لا يملك قوته وضروريات حياته ومَـن يعول.

ـ «يقول الجرجاني في التعريفات: والفقر عبارة عن فقد ما يحتاج إليه، أمّا ما لا حاجة إليه لا يسمى فقرًا»[٤].

ـ ومنه: فقر الدم، وهو نقص به واضطراب في تكوينه يصحبه شحوب وتتابع في النفس وخفقان في القلب.

ـ والفقير من لا يملك أقل القوت، وسمي الفقر فقرًا؛ لأن صاحبه يشكي حاجته وألمه يقال: فقر الرجل فقرًا، أي: كسر فقار ظهره أو اشتكى فقاره من مرض أو كسر فهو فقير»[٥].

وفي رأي علماء الاقتصاد:

«أن الفقر يعني عجز الموارد المالية للفرد أو المجتمع عن الوفاء بحاجاته الاقتصادية»[٦].

ورود كلمة «الفقر» في القرآن الكريم:

وردت كلمة (الفقر) بصيغة المفرد والجمع والمصدر والوصف في القرآن الكريم أربعة عشر مرة.

١ـ قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

٢ـ ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ ﴾ [آل عمران:١٨١].

---

(١) حاشية ابن عابدين على الدر المختار للعلامة/ محمد أمين المعروف بابن عابدين، ج ٢ صـ ٥٨، ط الأولى المكتبة الأميرية ببولاق سنة ١٣١٥هـ.

(٢) مغنى المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج لأبى ذكريا يحيى بن شرف النووى ج ٣صـ ١٠٦، مطبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٥٨م / ١٣٧٧هـ.

(٣) حاشية الدسوقي على شرح الكبير لأبى البركات سيدي أحمد الدردير، ج ١ صـ ٤٩٢، دار إحياء الكتب العربية مكتبة عيسى البانى الحلبى بدون تاريخ.

(٤) التعريفات للجرجاني صـ ١٩١، مرجع سابق.

(٥) المعجم الوجيز صـ٤٧٧ مرجع سابق.

(٦) المعجم الوسيط صـ٦٩٧ مرجع سابق.

٣ـ ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

٤ـ ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

٥ـ ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

٦ـ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

٧ـ ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

٨ـ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

٩ـ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠].

١٠ـ ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

١١ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

١٢ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

١٣ـ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: ٨].

١٤ـ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٥].

«وبالنظر إلى هذه الآيات التي ذكرت الفقر والأوضاع التي وردت فيها تجدها ـ غالبًا ـ ما تقترن بالغنى، أو مفهوم الغنى، أي أن الفقر يعني: عدم الكفاية لحاجة الإنسان الغذائية، وغيرها من مستلزمات الحياة»[1].

والفقر بمعناه الواسع لا يقف عند حد الاحتياجات المادية فقط، بل يتعداها إلى احتياجات أخرى لا تقل في الأهمية عن المادة التي لا يستغنى عنها الإنسان، وهي القيم الإيمانية والقيم الإنسانية والروحية ... التي هي محل إجماع واحترام العقلاء فهي غذاء للروح وحارس للضمير.

ـ تعريف كلمة (المجتمع): المجتمع من الاجتماع عكس الافتراق.

وهو لغة: من مادة (ج م ع)، أي: ضم الشيء إلى الشيء، والاجتماع مصدر: اجتمع، ومنه (الاجتماع البشري)، و(المجتمع البشري)، و(علم الاجتماع): علم يعني دراسة العلاقات القائمة بين الناس.

---

(١) د/ حلمي صابر مشكلة الجوع في العالم وعلاج الإسلام لها، رسالة ماجستير غير منشورة ، مكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة، رقم ٩٢.

واجتمع اجتماعًا ـ انضم ـ تجمّع ـ تألف، ومنه (اجتمع المدعوون)[١].

«والاجتماع: علم يدرس الظواهر الاجتماعية، ويقرر أن المجتمع حقيقة متميزة عن الفرد، وأن ظواهره خاضعة لقوانين ثابته كالظواهر الفيزيقية»[٢].

يقول ابن خلدون في المقدمة: «الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عنه بقولهم الإنسان مدني الطبع، أي: لابّد له من الاجتماع وهو العمران»[٣].

إذًا المجتمع هو: العدد الكثير من الناس أو الأُسَر على اختلاف أحوالهم تجمعهم أرض واحدة وتحكمهم عادات وقوانين مشتركة.

ـ تعريف كلمة: (المصري):

وفي لسان العرب «المصر، هو الحد في كل شيء، وقيل: الحد في الأرض، والمصر: الكورة والجمع: أمصار، وفلان مصر الأمصار أي مدن المدن»[٤].

وفي القاموس القويم: المصر: البلد العظيم، وقوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾، [البقرة: ٦١] أي: بلدًا عظيمًا كبيرًا، أو مصر ـ بغير تنوين ـ ممنوع من الصرف، هي بلادنا العزيزة كلها حماها الله وحرسها[٥].

المصري أي: المنسوب إلى الدولة المعروفة بحدودها الجغرافية وتاريخها القديم والحديث والمعروفة بشعبها وعلمائها وقادتها ومكانتها وقيمها.

«ومصر كان اسمها (مصر) دائمًا هكذا جاء اسمها في العهد القديم، وفي الإنجيل وفي القرآن الكريم، ولقد ذكرت مصر باسمها (مصر) في كتاب (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م، وكذلك في كل كتب التاريخ العربي والإسلامي التي أفردت بابًا ثابتًا لــ (فضائل مصر)، خصت به كنانة الله في أرضه»[٦].

---

(١) رائد الطلاب طـ دار العلم للملايين بيروت صـ٢٨، سنة ١٩٩٧م، جبران مسعود.

(٢) المعجم الوجيز صـــ ١١٦ مرجع سابق.

(٣) مقدمة ابن خلدون صـ ٣٠ ط دار ابن خلدون، بدون تاريخ.

(٤) لسان العرب ابن منظور صـ ٨٤ مجلد ١٤ الطبعة الأولى، دار صادر بيروت ٢٠٠٠م.

(٥) أ.إبراهيم أحمد عبد الفتاح القاموس القويم للقرآن الكريم، ج٢، ص ٢٢٩، طـ ١٩٨٣م، مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة.

(٦) د/ محمد عمارة الفتنة الطائفية متى وكيف ولماذا، صـ ٦٧، طـ دار الشروق الدولية سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

والمجتمع المصري يتكون من العاصمة (القاهرة) وتمثل٥/ ١خمس عدد السكان تقريبًا ثم المحافظات الأخرى وعددها (٢٧) محافظة، وتتكون كل محافظة من عدة مراكز، ويتكون المركز من مدينة وعدة قرى ونجوع.

وكلمة المصري بلغة العصر: الحاصل على الجنسية المصرية أو المواطن المعترف أنه من أبناء الدولة ومن رعاياها، فكل مَن كان كذلك كان مصريًّا له ما لأبناء مصر، وعليه ما عليهم من حيث عموم الحقوق والواجبات.

- تعريف كلمة (وأثرها):

(الأثر) يأتي بمعان عدة منها: الأحاديث والروايات المنقولة لنا عن رسول الله ﷺ وسلف هذه الأمة.

ويأتي بمعنى العلامة الباقية، أو الأمارة والرسم يتركه الشيء المؤثِر بسبب احتكاكه أو ضغوطه، أو قِدمه، أو خواصه.

والمؤثِّر هو الشيء، الفاعل للأثر.

والمؤثَّر فيه هو المفعول به، مَن وقع عليه فعل الفاعل.

والأثر هو مصدر التأثير، «يقال: أثّر فيه أي ترك فيه أثرًا[1]، ويقال: ما بقي من أثره شيء، أي: من رسمه».

«وخرج في أثره، أي: في عقبه وبعده، واقتفى أثره، أي: تتبع خطاه، والتأثير: إبقاء الأثر»[2].

- تعريف كلمة (القيم):

القيم في اللغة: جمع قيمة، «وقيمة الشيء: قدره، وقيمة المتاع: ثمنه، وشيء ذا قيمة أي: ذا مكانة، وقِوام كل شيء عماده ونظامه الذي يعرف به، وكتاب قيّم، أي: ذا قيمة»[3].

يقال: قوّم الشيء تقويمًا فهو قويم، أي: مستقيم ومعتدل.

وقوام الأمر، ملاكه الذي يقوم به[4].

---

(١) رائد الطلاب، صـ - ٢٥ -، مرجع سابق.

(٢) مختار الصحاح طـ دار الحديث القاهرة صـ ٥، ٦ بدون تاريخ.

(٣) المعجم الوجيز صـ -٥٢١- مرجع سابق.

(٤) مختار الصحاح صـ -٥٥١- مرجع سابق.

وقوّم الشيء، أي: عالج اعوجاجه، أو ردّه إلى أصله.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾، [سورة البينة: ٥] والأمة القيمة أي: الأمة المستقيمة على منهج الله والأمة المعتدلة.

والألف واللام في كلمة (القيم) للعهد، أي القيم المعهودة والمعروفة بامتياز في المجتمع المصري، وليست الألف واللام للجنس؛ لأن القيم عندنا تختلف عن بعض القيم عند غيرنا من أصحاب الملل والنحل والمذاهب.

مثلًا: «الفلاسفة ينظرون إلى القيم على أنها المقياس المثالي الميتافيزيقي للخير والشر، والصواب والخطأ، ويرون أن للقيم مدلولًا ماديًّا ومدلولًا معنويًّا.... رياضيًّا... تقويميًّا، ويرجعون ذلك جلّه للعقل والوجدان.

والمفهوم الاجتماعي للقيم يختلف عن المفهوم الفلسفي، فهناك قدر كبير من التباين حول التعريف الاصطلاحي للقيم، فمنهم من ينظر للقيم من زاوية التفضيلات الإنسانية والتصورات عمّا هو مرغوب فيه ومزهود عنه، أو هي الإطار المرجعي لسلوك الفرد وترشيد علاقة الإنسان بذاته والمجتمع وإدراك أهمية الدين في الحياة والتعاون والالتزام بالأدوار والمسئوليات والواجبات الفردية والاجتماعية»[(1)].

وبناء على ما تقدم، فإن البحث يُعنى بالقيم التي ورثها المجتمع (بحق) عن الأنبياء والحكماء والعلماء والتي تمثل الإطار المرجعي والمعيار الحاكم للسلوك الإنساني الناشئ عن الفهم الصحيح للدين والكون والحياة، وهي من حيث الجملة:

القيم الإسلامية، والقيم الإنسانية، بشروط وحدود الإسلام.

(أ) فالقيم الإسلامية هي: التي اعترف بها الإسلام وأضفى عليها الشرعية، وهي كل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد الإيمانية ومن الأقوال والأفعال ومن الأخلاق والأحوال ومن العلاقات والسلوك.

وفي مقدمة ذلك، أركان الإسلام الخمس، وأركان الإيمان الست والواجبات والحقوق المتبادلة بين الناس والتي تقوم على قوة الإيمان بالله تعالى ويقظة الضمير.

---

(١) للمزيد انظر القيم الدينية للشباب صـ٣١ وما بعدها د/ نورهان منير حسن، المعهد العالي للخدمة الاجتماعية ببنها، طـ المكتب الجامعي الحديث سنة ١٩٩٩م، وكتاب القيم والعادات الاجتماعية تأليف/ فوزية دياب، باحثة اجتماعية، صـ١٩ وما بعدها، طـ دار الكتاب العربي للنشر، بدون تاريخ.

ولا ينكر عاقل أن الدين هو أصل القيم النافعة وأساسها، فالنبع السليم للقيم هو الدين؛ لأنه يكبح جماح القيم الضارة.

(ب) القيم الإنسانية: «(القانون) وهو أحد ضوابط السلوك الإنساني وهو مع قواعد الدين والأخلاق يمثل منظومة لتجديد الحقوق وبيان الواجبات.

أو هو مجموعة القواعد العامة المجردة التي تنظم العلاقات الاجتماعية، فالقانون يرتبط بالمجتمع، بل يرتبط بالسلوك الخارجي للفرد والجماعة فهو يضبط سلوك الإنسان في علاقته بالآخرين حتى لا يتعدى أحد على أحد ولا يظلم أحد أحدًا»[١].

وليس كل مواد القانون تمثل قيمًا مقبولة شرعًا وعقلًا، تقول الدكتورة سامية عبد الرحمن:

«(والقيمة Value أو Valeur هي من حق وخير وجمال تكون)؛ لأنها صفة يخلعها العقل على الأقوال والأفعال والأشياء، والقيمة عند المثاليين والعقلانيين هي:صفة عينية في طبيعة الأقوال (في المعرفة)، والأفعال، وفي الأخلاق والأشياء (في الفنون) ما دامت كامنة في طبيعتها فهي ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والملابسات وهي بهذا المعنى تطلب لذاتها»[٢].

والقيم الإنسانية التي وضعها الإنسان وورثها عن الفلاسفة وأهل الحكمة والتي وضعت لرعاية مصالح الناس على الوجه الأكمل ولا تتعارض مع القيم الدينية و هي محل تقدير واحترام، يجب العمل بها والحرص على حمايتها.

---

(١) أ.د جعفر عبد السلام الموسوعة الإسلامية العامة ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عام ١٤٣٣هـ، سنة ٢٠٠١م صـ١١٠٦، بتصرف،.

(٢) د. سامية عبد الرحمن كتاب القيم الأخلاقية ـ دراسة نقدية ـ صـ١٤، ط الأولى ١٩٩٢م مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، وانظر كتاب إشكالية القيم بين التهميش والتأصيل، مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي مؤتمر القيم الأخلاقية، في الفترة من ١٥: ١٦ أبريل، سنة ٢٠٠٠، التي عقدت بالمركز، وانظر كتاب القيم الأخلاقية والإسلامية والإقتصاد صـ٥٥، صـ١٤٢، وما بعدها بمركز صالح كامل أيضا في المدة السابقة ذاتها عن الصدق، والوفاء، والأمانة، والبيان، والإفصاح، والشفافية، وتحريم الاحتكار، وقصد منفعة الغير.

. شروط القيمة في الإسلام:

هناك شروط وضعها الإسلام للقيمة: «لا يمكن أن نتصور وجودها بدونها وهي: حرية الإرادة، وصدق النية، والغيرة المحمودة، والإيثار المنزه عن انتظار العوض، والإيمان بالله، وبجانب هذه الشروط الجوهرية توجد للقيمة الأخلاقية شروط ثانوية تؤدي إلى كمالها، كالممارسة الفعلية، أو العمل ..... ورد الفعل» [1]، وإذا كانت هذه أهم شروط القيم في الإسلام لتمييزها عن غيرها فإن هناك حدودًا حدها الإسلام للقيمة التي يريدها، ويحث عليها، ويعمل على حفظها ورعايتها.

حدود القيمة في الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾،[سورة الشمس: ٨-١١] ومع أن الله ﷻ خلق النفس البشرية وأعطاها القدرة على الاهتداء وتمييز الحسن من القبيح، إلا إنه ﷻ أرسل الرسل وأنزل الكتب، ووضح المنهج الذي يسير عليه الإنسان، والواجب المنوط به، ولذلك فهم العلماء: «أن القيمة في الإسلام ترتبط بمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،والثواب والعقاب، والأوامر والنواهي، لا تكون إلا من سلطة عليا، هي التي تأمر وتنهى، وتثيب وتعاقب، وتراقب وتحاسب المنحرفين في سلوكهم عن الصراط المستقيم»[2].

وقل مثل ذلك: في القيم الروحية، والقيم الرياضية، والقيم الاقتصادية، والقيم التربوية والاجتماعية؛ لأن العقل السليم لا يتعارض مع الدين.

والمجتمع المصري منذ القدم وهو يحرص على مجموعة من القيم الدينية والإنسانية، والتي رفعت من قدره وأعلت من شأنه وميزته على غيره من الأمم الأخرى، وهذا ما سأذكره بالتفصيل - إن شاء الله -.

---

(١) القيم الأخلاقية دراسة نقدية، صـ٣٤ مرجع سابق.

(٢) القيم الأخلاقية صـ٢٧ مرجع سابق.

خصوصيات المجتمع المصري الثابتة له في الكتاب والسنة وعبر العصور:

أولاً: القرآن الكريم:

ذكر الله ﷻ مصر باسمها صراحة في القرآن الكريم خمس مرات وذكرها بصفتها وصفات أهلها وبعض مدنها مثل ذلك العدد تقريبًا.

وهذه الآيات هي:

قوله سبحانه: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [سورة البقرة: ٦١].

قوله سبحانه: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ [سورة يونس: ٧٨].

قوله سبحانه: ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [سورة يونس: ٩٩].

قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ [سورة يوسف: ٢١].

قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [سورة الزخرف: ٥١].

أما الآيات التي ورد فيها ذكر مصر بصفتها أو بصفة بعض أهلها أو مدنها فهي:

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [سورة المؤمنون: ٥٠].

قال المفسرون: «هي مصر وقال بعض علماء مصر، هي البهنسا، وقبط مصر مجمعون على أن المسيح ﷺ وأمه كانا بالبهنسا وانتقلا عنها إلى القدس» [١].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [سورة يوسف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ [سورة الدخان: ٢٥، ٢٦، ٢٧].

وفي تفسيرها يقول ابن كثير رحمه الله: ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾، الجنات وهي البساتين (وعيون) المراد بها الأنهار والآبار (ومقام كريم)، المنابر.

وقال في قوله تعالى: ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾، كانت الجنان بحافتي نهر النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعًا، ما بين أسوان إلى رشيد وكان له تسع خلج، خليج الإسكندرية وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنتهى، كلها

---

(١) كتاب فضائل مصر لعمر بن محمد الكندي صـ٢٤ ط دار الفكر ١٣٩١هـ، والبهنسا قرية تابعة لمحافظة المنيا بصعيد مصر.

متصلة لا ينقطع منها شيء، وزرع ما بين الجبلين من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعًا لّما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلوجها (ونعمة كانوا فيها فاكهين) أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها، فيأكلون ما شاءوا، ويلبسون ما أحبوه، مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وساروا إلى جهنم وبئس المصير(١).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ﴾[المؤمنون: ١٨]، يقول ابن كثير: الأرض التي تحتاج إلى ماء كثير لزراعتها ولا تحتمل المطر يسوق الله إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر يسوق الله إليها ماء النيل ومعها طين يجرفه من بلاد الحبشة، فيسقي أرض مصر ويقر الطين ليزرع فيه فسبحان اللطيف الخبير.

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾[المؤمنون: ٢٠]، يقول: يعني الزيتونة والطور هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام(٢)، وأقسم الله بالتين والزيتون وطور سنين كما أقسم بالبلد الأمين، يقول ابن كثير: «وفي آخر التوراه ذكر هذه الأماكن الثلاث: جاء الله من طور سيناء ـ وأشرق من ساعير ـ واستعلن من جبال فاران، فذكرهم مخبرًا عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منهم ثم الأشرف منهما»(٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾[سورة القصص: ١٥]، قال المفسرون هي: منف مدينة فرعون، وأهلها ساكنها والذي دخلها هو موسى عليه السلام(٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾[سورة القصص:٢٠]، قالوا هي: منف أيضًا، والرجل هو مؤمن من أهل مصر. وقال تعالى حكاية عن يوسف مع إخوته:

قال يوسف عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾[سورةيوسف: ٧٨]، وهو منصب رفيع في مصر.

(٦) ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾[سورة يوسف:١٠٠]، جعل الشام بدوًا.

---

(١) تفسير ابن كثيرج٤ ص١٤٤ ط دار الحديث بالقاهرة سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٢) المرجع السابق ج٣ ص ٢٣٥.

(٣) المرجع السابق ج٤ ص٥٢٨.

(٤) كتاب فضائل مصرص٢٥ مرجع سابق، وتفسير صفوة البيان ط ٣ ص ٤٩١،وزارة الأوقاف بالكويت سنة١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

يقول صاحب فضائل مصر: «فهل تعلم أن بلدًا من البلدان في جميع أقطار الأرض أثنى عليه الكتاب بمثل هذا الثناء، أو وَصَفَه بمثل هذا لوصف أو شهد له بالكرم غير مصر»[1].

<u>وخلاصة ما تشير إليه الآيات وما يقوله المفسرون:</u>

١ـ أن الله ذكر مصر صراحة ووصفًا أكثر من غيرها من بلدان العالم.

٢ ـ أن الله تبارك وتعالى أثنى على أهل الإيمان والعدل من أهل مصر.

٣ ـ أن الله ﷻ ميز مصر بخيرات وبركات كفيلة بإقامة الدين والدنيا معًا.

٤ ـ أن مصر بلد الأمن والأمان، يأوي إليها المؤمنون بالله ورسله.

هذا خلاصة ما أفهمه من الآيات السابقة وتفاسيرها.

* * *

(١) المرجع السابق ص ٢٦، وانظر كتاب أوراق مصر صـ ١٨ تأليف د/ مختار عبد العال ود/ جلال أبو زيد، ط الأولى سنة ١٩٩٩م كليوباترا للطباعة والكمبيوتر.

ثانيًا: ما ورد في فضل مصر وأهلها في سنة النبي ﷺ:

دعا النبي الصحابة الكرام إلى حسن معاملة أهل مصر، فقال ﷺ: «ستفتح عليكم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لكم منهم رحمًا وذمة»(١).

أما الرحم فهاجر أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وهي من مصر، وإسماعيل أبو العرب ويصدق مَن يقول عن أهل مصر انهم أخوال العرب.

وأما الذمة فزواج النبي ﷺ:

من مارية القبطية التي ولدت له إبراهيم رضي الله عنه، وقال عليه الصلاة والسلام في رواية أخرى: «ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا»(٢).

وورد في السنّة: أن نهر مصر من أنهار الجنة، قال ﷺ: «رأيت عند سدرة المنتهى نهرين ظاهرين ونهرين باطنين، وأخبرني جبريل أن الظاهرين النيل والفرات»(٣).

ذكر صاحب الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام في تفسير الحديث السابق، حديث أنس رضي الله عنه أن هذين النهرين في السماء الدنيا، وقال له الملك: هما النيل والفرات، أصلهما وعنصرهما»(٤)، يحتمل أن يكون رأى في حالة اليقظة منبعهما، قال صاحب كتاب الرحيق المختوم: «ومعنى ذلك أن رسالته ﷺ: ستستوطن الأودية الخصبة في النيل والفرات، وسيكون أهلها حملة الإسلام جيلًا بعد جيل، وليس معناه أنّ مياه النهرين ينبع من الجنة»(٥)، وسواء أكان النهران ينبعان من الجنة، أو هما في السماء حقيقة، أو مجازًا فلا خلاف أن للنهرين مكانة خاصة عند الله ورسوله ﷺ، وإلا لَـمَا كان لذكرهما بهذا الخصوص معنى له فائدة، والذي ذكره صاحب الرحيق المختوم، قاله

---

(١) رواه مسلم عن أبي ذر، باب وصية النبي ﷺ عن أهل مصر، كتاب فضائل الصحابة رقم٢٥٤٣ موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف المصرية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) رواه مسلم المرجع السابق، نفس الباب والفصل والصفحة.

(٣) صحيح البخاري عن أنس، رقم ٥٢٨٧ باب استعذاب الماء ج٥/ صـ ٢١٢٨ ط دار ابن كثير اليمامة بيروت سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م الطبعة الثالثة تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا.

(٤) الروض الأنف المجلد الأول/ ج٢/ ص١٥٠ ،ط مؤسسة مختار للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٣م.

(٥) الرحيق المختوم تأليف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري الجامعة السلفية الهند، صـ ١٣٦ ط دار الفكر ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب فقه السيرة [١]،وهو تفسير لعله أشمل من تفسير النص على ظاهره.

إذ إن تفسير النص على ظاهره لا يعدو كونه بيان لفضل النهرين عن غيرهما من أنهار الدنيا، حيث أنهما ينبعان من الجنة ورآهما النبي ﷺ في السماء.

أما التفسير الثاني فهو يتحدث عن فضل أبناء البلاد التي تحيا بماء النهرين وتستوطن الأودية التي يمر بها هذا الماء المبارك، فالأرض بساكنيها وإلا فما قيمة الأرض الخصبة وقد أهملها أهلها فصارت جرداء؟ وما قيمة القلاع العظيمة وليس بها رجال؟ وما فائدة المساجد الخالية من الناس، والتي لا تقام فيها شعائر ولا تعظم فيها حرمات؟ فالأرض بالإنسان الذي يحيا عليها ويعرف قدرها وفضلها وما أودع الله فيها من بركات وخيرات.

والنيل حقيقة هو في الأرض وينبع فيها، ولكن بينه وبين أنها الجنة شبهًا، ووجه هذا الشبه البركة في العطاء والدوام وعدم الانقطاع.

فكما أن أنهار الجنة لا ينفد عطاؤها فكذلك النيل والفرات، «ولقد أجمع أهل الدنيا أنه ليس في الأرض نهرٌ أطول منه ولا أكثر عطاءً وخيرًا منه، ولا يزرع حول نهر من أنهار الدنيا كما يزرع حول نهر مصر»[٢].

هذا أهم ما ورد في سنة رسول الله ﷺ عن مصر وأهلها، وهو إن دلّ على شيء فإنما يدل على مدى اهتمام النبي ﷺ بمصر، قبل أن تفتح، فكيف لو فتحت في زمانه ﷺ ، وتشرفت بقدومه ﷺ إليها ورآها رأي العين.

أعتقد أنه ربما حظيت عنده بمزيدٍ من الاهتمام والتعريف بفضلها، وفضل أهلها، ولله أقدار وكل شيء عنده بمقدار.

***

(١) فقه السيرة صـ ١٤٠، ط دار الكتاب الحديث سنة ١٩٧٦ م.

(٢) فضائل مصر بتصرف صــ ٦٣ مرجع سابق.

ثالثًا: أحداث التاريخ:

رغم أن كثيرًا من تاريخ مصر القديم والحديث بات معلومًا للكثيرين بفضل ما يقوم به الإعلام من ذكر أمجاد الماضي والتغني بها، وإقامة التماثيل والرموز الدالة عليها؛ إلا إنه ينبغي ذكر بعض الأحداث التاريخية التي تؤكد ما أهدف إليه من بيان القيم الأصيلة التي عاش بها ولها المصريون، والتي تغيرت كثيرًا في أيامنا هذه لأسباب من أهمها وأخطرها مشكلة الفقر، والمرء يرقى بالقيم إلى أعلى الدرجات في الكمال البشري، ويهبط بفقدها إلى أحط الدركات، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[سورة التين:٤ ـ٥]، والتاريخ يؤكد أن أبناء مصر ـ من حيث المجموع ـ هم من المعادن الطيبة التي ارتقت بالقيم والمبادئ الأصيلة، فمنذ زمن بعيد وأهل مصر يعرفون الكثير من العلوم والمعارف والآداب.

يقول كل من «دوجلاس بريور» و «إيميلي تيتر»، عن مصر ما يلي:

«في وقت ما حوالي ٧٦٠٠ قبل الميلاد ... وهو ما يُطلِق عليه علماء الآثار بالعصر الحجري... وقد تم التحول من الحياة البدائية القائمة على الصيد وجمع النباتات إلى الحياة القائمة على زراعة المحاصيل وتربية الحيوانات لاستهلاك الإنسان ... خلفت مزيدًا من التفاعلات الاجتماعية المركزية، كما يوحي الفن المصري في صحراء مصر الغربية بالمعرفة المبكرة للنباتات والحيوانات الداجنة في بيئة الصحراء»(١).

وورد في كتاب قصص الأنبياء: «أن جميع العلوم التي صدرت قبل طوفان نوح عليه السلام، إنما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى وهو الذي يسميه العبرانيون خنوخ النبي وهو إدريس عليه السلام، قيل إنه ولد بمصر بمدينة منف ودعا إلى التوحيد وعلّم العلوم العلوية والطب والفلك، ومجد الله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر»(٢).

---

(١) كتاب مصر والمصريون ترجمة د/ عاطف معتمد، كلية الآداب جامعة القاهرة، ود/ محمد رزق معهد الدراسات الأفريقية جامعة القاهرة، طـ دار الشروق صـ ٦٥ بتصرف، تاريخ الطبعة ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

(٢) قصص الأنبياء الدكتور عبد الوهاب النجار صـ٤٣، ط مكتبة دار التراث بالقاهرة، بدون تاريخ.

وكما ذُكرت مصر في القرآن والسنة، ذُكرت في التوراة والإنجيل[1] في مواضع كثيرة مما جعل اسم مصر باقٍ، بل ويتردد على ألسنة الناس إلى يوم القيامة فهي البلد العظيم الذي يذخر بالخير العميم ويفخر بالانتماء له كل مَن آمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ولا يخفى على أحد ما للكعبة من قدسية واحترام، فهي بيت الله الحرام وهي قبلة المسلمين لا تصح الصلاة إلا بالتوجه إليها، والتاريخ يؤكد أن الكعبة هي بيت هاجر وابنها إسماعيل، ولم يكن ذلك بمحض الصدفة، وإنما بقدر من الله تعالى، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وظل أهل مصر يولون هذا البيت عناية خاصة واهتمامًا كبيرًا، وإلى وقت قريب كانت ترسل كسوة الكعبة كل عام من مصر.

ويقول عمر بن يوسف الكندي: «إن منافع مصر في الحرمين لبينة ؛ لأنها تميرها بطعامها وكسوتها وسائر مرافقها فلها بذلك فضل كبير، ومع ذلك فإنها تطعم أهل الدنيا من أقصى جنوب الأرض وشمالها في بلاد الهند و الأندلس وما بينهما، ولا ينكر هذا مُنكِر»[2].

وعن وزراء فرعون وجلسائه بعدما استشارهم فرعون في أمر موسى وأخيه هارون، قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[سورة الشعراء: ٣٤-٣٧].

يقول: «فهل في الدنيا جلساء ملك أرجح عقلا وأحسن محضرًا منهم ؟ حيث أنصفوا وأمروا أن يمتحن بمثل ما وقع لهم، فقالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[سورة الشعراء: ٣٧].

«وأجمعت الرواة على أنه لا يعلم جماعة أسلمت في وقت واحد أكثر من جماعة القبط، وروي أنه لم يفتتن رجل واحد منهم كما افتتن بنو إسرائيل بعبادة العجل» [3].

---

(١) ومن نصوص التوراة والإنجيل التي ذكرت مصر وفضلها، وأنها جنة الرب في الأرض كما في (سفر التكوين ١٣/ ١٠)، وسميت بـ (رهب)، يعني ما يرهب بكبريائه وقوته (سفر الأيام ٩/ ١٣/ ٢٦)، وللمزيد ارجع إلى ما يسمى بالكتاب المقدس (سفر التكوين ١٢/ ١٠/ ١٦) وما بعدها وأعمال الرسل (٧/ ٣٣)، وإنجيل متى (٢/ ١٣/ ١٥/ ١٩ / ٢١)، ط العيد المئوي سنة ١٩٨٣م مكتبة دار الكتاب المقدس بمصر.

(٢) فضائل مصر صـ ٢٣، مرجع سابق.

(٣)المرجع السابق صـ ٣٠ ـ ٣١.

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه عن مصر: « إن ولايتها جامعة تعدل الخلافة، وقال عنها سفيان بن عيينة (١٠٧ ـ ١٩٨ هـ)، إنها كنانة الله يحمل فيها خير سهامه»(١).

وكما أقسم الله عز وجل بطور سيناء أقسم بالبلد الأمين ، ولا أعلم أن مكانًا تجلى ربنا إليه ورأى نور الله عز وجل غير هذا المكان.

ولا أعلم ـ أيضًا ـ أن بلدًا من البلاد وصفها نبي من أنبياء الله بأنها (خزائن الأرض) في قول يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾[سورة يوسف:٥٥]، إلا مصر.

هذا ليعرف كل مصري كيف كان آباؤه وأجداده، فإذا علم الحالة التي كانوا عليها، من الرفعة والعلو والمكانة عند الله وعند الناس، أدرك الفارق الشاسع بين ما كانوا عليه وما صرنا إليه.

فالضد يظهر حسنه الضدد وبضددها تتميز الأشياء

مَن دخل مصر من الأنبياء:

نبي الله إدريس عليه السلام ونبي الله إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام وزوجه سارة، وخرج منها بهاجر التي تزوجها، وولدت له إسماعيل أبا العرب، ونبي الله موسى عليه السلام وقصصه مع فرعون معلومة، ذكرَها القرآن الكريم، وكذلك نبي الله هارون عليه السلام، وكذلك نبي الله يعقوب وابنه نبي الله يوسف عليهما السلام، وأحفاد وأولاد نبي الله يعقوب هم الذين قال الله لهم ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [سورة يوسف:٩٩]، ونبي الله المسيح بن مريم وأمه عليهما السلام، ويوشع بن نون في عهد موسى، ودانيال عليه السلام(٢).

ولا يخفى أن هذا العدد الكثير من الأنبياء عليهم السلام كان له الأثر الكبير على أخلاق وقيم المصريين، ولعل هناك أنبياءٌ آخرون كان لهم نشاطٌ دعوي في مصر لا نعرفهم.

قال تعالى: ﴿ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ ﴾[سورة غافر: ٧٨]، وهؤلاء الأنبياء وأصحابهم وأتباعهم كان لهم الفضل في تهيئة أبناء مصر لقبول تعاليم النبي الخاتم واستبشارهم به ونصرتهم له.

---

(١) الفتنة الطائفية صـ١٩ مرجع سابق.

(٢) فضائل مصر صـ٣٧، مرجع سابق.

«ذكر أهل العلم والمعرفة والرواية أنه دخل مصر ممن صحب رسول الله ﷺ مائة رجل ونيف، وقال يزيد بن أبي حبيب: وقف على قبلة المسجد الجامع ـ ثمانون رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ»[1].

وتأمل معي مدى تأثير دعوة مائة صحابي من أصحاب رسول الله ﷺ وراءهم جيش من الدعاة والفقهاء والأتباع والجنود (في مصر) لتعليم أبنائها القيم التي جاء بها الإسلام.

ناهيك عن الأعداد الغفيرة ممن أسلموا من الحكماء والعلماء من أهل الكتاب الذين ورثوا عن المسيح والأنبياء السابقين عليهم السلام الكثير من القيم والمبادئ، وكان لمصر أيضًا ـ عبر التاريخ ـ شرف استقبال أهل الفضل والتقوى من الخلفاء والعلماء والأدباء والفقهاء والشعراء.

والخلاصة:

أن مصر بلدٌ قديم له تاريخ عظيم سطره الله على صفحات كتبه التوراة والإنجيل والقرآن، وعلى ألسنة رسله الكرام ولا يزال وسيظل أتباع هؤلاء الرسل يذكرون مصر ـ إلى يوم القيامة، وستظل مصر بأبنائها حصن الإسلام ومعقل المسلمين إلى يوم الدين.

***

---

(١) فضائل مصر صـ٣٧،٣٩، مرجع سابق.(٢) وللمزيد انظر كتاب يوحنا النقيوسي (تاريخ مصر) صـ١٢٥وما بعدها ترجمة د/ عمرعبد الجليل ط/ القاهرة سنة٢٠٠٠م وكتاب توماس أرنولد (الدعوة الى الاسلام)ص١٢٣-١٢٤ ترجمة د/ حسن إبراهيم حسن، ود/ عبد الحميد عابدين ط/ القاهرة سنة١٩٧٠م فالنصارى الموحدون أتباع أريوس (٢٦٥-٣٣٦م) كانوا يؤمنون ـ كما يقول يوحنا النقيوسي ـ: إن المسيح مخلوق وليس (إلهًا)، وهذه كانت ديانة معظم نصارى مصر، وإن أكثر من نصف هؤلاء دخلوا الإسلام قبل تمام الفتح، وقبل وصول عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى الاسكندرية، وفي دراسة ـ للمركزالقومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ عن الأصول العرقية للشعب المصري تقول: إن ٦٪ من المصريين عرب جاءوا مع الفتح، و٢٪ قبائل بربرية، و٢٪ بدو من سكان البلاد، و٢٪ بوهيميون، و٨٨٪ لعائلات مسيحية تحول ٩٠٪ منهم إلى الاسلام انظر كتاب (التطور الفكري لدى جماعات العنف في مصر) صـ ٢٣٠، ط/ شبين الكوم سنة ٢٠٠٨م للدكتور كامل عبد الفتاح بحيري.

الفصل الأول

المجتمع المصرى وعلاقته بالقيم.

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول: قيمة التدين الفطرى والاعتزاز بالهوية العربية والإسلامية

المطلب الثاني: قيمة التكافل وحسن الجوار

المطلب الثالث: قيمة الصبر الإيجابي ومواجهة الأزمات بحكمة واقتدار

المطلب الرابع: قيمة تفعيل الإحساس بالمسئولية نحو الإسلام والمسلمين.

المطلب الأول:

قيمة التدين الفطري والاعتزاز بالهوية العربية والإسلامية:

ويشتمل هذا المطلب على أربع نقاط، وهي:

١ ـ مفهوم الفطرة.

٢ ـ مظاهر التدين في مصر وأدلته، وفيه:

أ ـ حب الشخصية المصرية للتدين.

ب ـ الإيمان بالحياة بعد الموت.

ج ـ إرسال الرسل.

٣ ـ الاعتزاز بالهوية العربية والإسلامية.

٤ـ دور الأزهر في الحفاظ على الدين والهوية.

أولًا: تعريف الفطرة:

الفطرة لغة: من مادة (ف ط ر)، بالكسر: الخلقة، والفطرة: الابتداء والاختراع أو الخلق، والجمع: فِطَر، فطر الله الخلق خلقهم وبدأهم

قال أبو الهيثم الفطرة هي: الخِلقة التي يخلق عليها المولود [١].

والفطرة هي: «الجبلة المتهيئة لقبول الدين»[٢].

والفطرة هي: صفة الإنسان الطبيعية ـ شعوب تعيش على الفطرة، خِلْقَة خُلِق عليها المولود[٣].

والفطرة ـ أيضًا ـ «الخلقة السليمة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه، أو الطبيعة السليمة التي لم تشب بعيب»[٤].

وفي القرآن الكريم: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم: ٣٠]. وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[٥]. والفطرة في اصطلاح الفلاسفة هي: «الاستعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل، والفطرية: القول بأن الأفكار والمبادئ جِبِلِيَّة»[٦].

والشيء الفطري في الإنسان هو الكامن في النفس والموجود في الذات قبل التلقين والتجربة، والذي يؤثر دائمًا على سلوكه وعقيدته، وأهل مصر من أوائل الشعوب التي بحثت عن الدين واهتدت بالفطرة إلى كثير من حقائقه، أو اقتربت منها.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج ٥، صـ ٣٤٣٢، ٣٤٣٣، مادة (ف ط ر) مرجع سابق.

(٢) التعريفات للجرجاني صـ ١٩٠، مرجع سابق.

(٣) رائد الطلاب صـ٦١٢، جبران مسعود، مرجع سابق.

(٤) المعجم الوجيز صـ ٤٧٦ مرجع سابق.

(٥) رواه البخاري في صحيحه باب الجنائز رقم ١٣٥٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم باب القدر رقم ٦٩٢٦، عن أبي هريرة أيضًا، وله طرق أخرى، انظر موسوعة الحديث الشريف وزراة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٦) المعجم الوجيز صـ ٤٧٦، مرجع سابق.

ثانيًا: مظاهر التدين في مصر وأدلته:

شعب مصر شعب متدين عبر تاريخه الطويل ما عرَف الإلحاد ولا آمن به ولا دافع عنه «بل كان الدين والحياة في مصر متمازجين إلى حدٍّ يستحيل معه أن يكون المرء أدريًا [(١)] فلقد كان الفلك والطب والجغرافيا والزاعة والفن والقانون...بل وكافة أوجه الثقافة والحضارة المصرية ترجمة لاعتقادات دينية، وقد وصفت ديانة إخناتون أثناء عصر العمارنة (الأسرة ١٨) بالوحدانية»[(٢)].

أ ـ حب الشخصية المصرية للتدين:

ويقول الدكتور أحمد عكاشة في كتابه (تشريح الشخصية المصرية): «تتميز الشخصية المصرية بالانبساطية، وحب الاختلاط، والدفء العاطفي وسهولة الإيحاء (فيما يسمى بطيبة القلب) مع الإحساس بالمسئولية الأسرية والانتماء والتماسك مع الدين أكثر من الوطن.

يقول جيمس يرستد في كتابه الشهير (فجر الضمير): «إن المصريين هم الذين أوجدوا الضمير الإنساني؛ لأنهم أول مَن عرفوا الله وكذلك آمنوا بالعالم الآخر، ولم يتمكن أحد قبلهم من إدراك هذا الواقع، ويبدو أن الإيمان بالله واليوم الآخر يتوارثان من خلال جينات الوراثة في المصريين، فقد آمن المصريون بالله قبل الأديان السماوية ثم آمن المصريون باليهودية والمسيحية والإسلام، إذًا لا مفرّ من الاعتراف بأن الشعب المصريّ من أكثر الشعوب إيمانًا بالله»[(٣)].

يقول الدكتور محمد عمارة: «لقد ظل التوحيد مع المدنية يشعان على أرض مصر عبر تاريخها الطويل يتجددان فيها ليغالبا الوثنية والتخلف اللذين يأتيانها في ركاب الغزاة.. لقد غالبت مصر العديد من التحديات، غالبت بداوة الهكسوس، ودمار الغزوة الفارسية التي قادها (قمبيز) ٥٢٩ ـ ٢٢ /ق م والقهر الروماني الذي فرضه الغرب الإغريقي البيزنطي على الشرق مدة عشرة قرون من (الإسكندر الأكبر) ٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق م، إلى (هرقل) ٦١٠ ـ ٦٤١/ ق م، وعندما غبش الرومان

---

(١) الأدري: هو الذي يرفض الدين ويقول: لا أدري، مترجم كتاب مصر والمصريون د/ عاطف معتمد، د/ محمد رزق.

(٢) مصر والمصريون صـ١٦٣، مرجع سابق، وانظر كتاب أوراق مصر صـ ٢١٤ مرجع سابق.

(٣) تشريح الشخصية المصرية، د/ أحمد عكاشة أستاذ الطب النفسي كلية الطب جامعة عين شمس، رئيس الجمعية العالمية للطب النفسي سنة ٢٠٠٢/٢٠٠٥ طـ دار الشروق سنة ٢٠١٠ م، صـ ١٥،وانظر صـ ٢١٠ كتاب أوراق مصر مرجع سابق.

التوحيد الذي جدده المسيح رفعت مصر لواء النقاء لهذا التوحيد مع أسكب الإسكندرية أريوس ٢٥٦ ـ ٣٣٦ م الذي أعلن أن الله جوهر أزلي أحد لم يلد ولم يولد، وكل ما سواه مخلوق»[١].

نعم آمن المصريون القدماء بالإله الواحد، الخالق، المحيط بالناس، رب الدنيا والآخرة، وقد عرفت عنهم هذه العقيدة قبل الميلاد بأربعين قرنًا يوم أن كانت مصر مقسمة إلى ولايات كثيرة متصارعة.

وفي القرن الرابع عشر قبل الميلاد يتولى الملك (إخناتون) عرش مصر الموحدة، وينشط في دعوة الناس إلى الإيمان بإله واحد، هو خالق كل شيء، وهو المحيي والمميت[*].

ب ـ الإيمان بالحياة بعد الموت:

اهتم المصريون القدماء بمسألة الحياة بعد الموت والاجتهاد ـ منقطع النظير ـ في حفظ أجساد الموتى في ما يعرف بالتحنيط، في حين أن الهند إلى اليوم تتفنن في إتلاف جسد الميت وحرقه بالنار وتحويله إلى رماد تذروه الرياح.

«آمن المصريون القدماء بالحياة بعد الموت على أساس إيمانهم بأن الروح لا تفنى بالموت، ولا تذهب بذهاب الجسد، لأن الموت في نظرهم عبارة عن مجرد مفارقة الروح للجسد، وحتى يضمن عودة الروح لجسدها مرة أخرى بعد الموت بذلوا جهدهم في العناية بالأجساد وتحنيطها ووضعها في توابيت قوية ومقابر ضخمة، وبالغوا في إخفائها حتى لا يعتريها أمر يضيعها أو يضعفها، وبذلك تكون مستعدة لاستقبال الروح والعيش في السلام الكامل»[٢].

---

(١) الفتة الطائفية متى وكيف صـ ١١،١٠ بتصرف، مرجع سابق، وللمزيد انظر كتاب البداية والنهاية لابن كثير ج١ صـ ٢١٤ ط دار الكتب العلمية بيروت ط٢ سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٧م.

(*) لا ينكر أحدٌ أن كثيرًا من المصريين كان على الشرك وقد عبدوا مئات الآلهة؛ إلا أن الحق الذي يجب أن يعرف أن التوحيد كان في مصر من قديم الزمان وأنه ظل بارزًا يعارض الشرك وأهله؛ ورغبة في الاختصار أذكر الجانب المشرق والمشرف لمصر؛ لأن بحثي هذا يهدف إلى إبراز القيم الأصيلة التي يجب أن تبعث وتحرس وتدعم فالحق يحيى بذكره ونشره، والباطل يموت بهجره وتركه، وللمزيد انظر المرجع السابق صـ١١ وما بعدها.

(٢) دراسات في الأديان والنحل صـ ١٢٠ وما بعدها بتصرف، للأستاذ الدكتور أحمد أحمد غلوش، عميد كلية الدعوة الإسلامية سابقًا، طبعة مؤسسة الرسالة سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

ج ـ الإيمان بإرسال الرسل:

وإذا كان من العلماء مَن يرى أن التوحيد ظهر في مصر من قديم، وكان بهذه الصورة الفطرية كما يتصورون آنذاك، أو بسبب التأمل المستمر والنظر في ملكوت السماوات والأرض إلّا أن هناك من العلماء مَن يرى أن التوحيد والتدين في مصر، وإن كان من صنع الفطرة واهتداء العقل، إلا أنه سرعان ما تأثر بالتعاليم التي جاءت من السماء عن الرسل الكرام كـنبيّ الله إدريس ونوح وداود وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام.

واستدلوا على ذلك بأدلة منها قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[سورة فاطر:٢٤]، ومصر أمة من أعرق الأمم فلا مانع ـ شرعًا ولا عقلًا ـ أن يكون الله ﷻ قد أرسل إليهم رسلًا منهم مَن عرفنا ومنهم من لم نعرف، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[سورة غافر:٧٨]، وسواء أكان هذا التدين بالفطرة أو اهتداء العقل، أو كان من بقايا تعاليم الأنبياء، ففي كلتا الحالتين شرف، ومندوحة تحسب لأهل مصر.

ففي الأولى تفكروا في عظمة الله ووحدانيته وما يريده من العباد بفطرتهم قبل أن تأتيهم الرسل، وفي الثانية يكون لهم شرف الاحتفاظ بمعظم ما جاء به المرسلون من عقيدة وأخلاق في حين أن غيرهم حَرَّفَ وبدّل وغيّر، ولم يبق من ذلك شيء.

يقول الدكتور أحمد غلوش بعد مناقشة آراء العلماء في هذه المسألة: «على الجملة فإن التوحيد ظهر في مصر القديمة وبلغه رسل الله تعالى وهذا ما نرجحه ونراه الأولى بالتسليم»[1].

وهذه الحضارة التي ظلت تبحث عن الدين وتربط حياتها به سنين طويلة، بمجرد أن اهتدت إلى نور السماء وعرفت الإسلام وألمت به ولسان حالها يقول:

الله أكبـــر إن ديــــن محمـــد ... وكـتـابـــه أقـــوى وأقـــوم قـــيلا
لا تـــذكر الكتـــب الســـوالف قبلـــه ... جـــاء الصـــباح فـــأطفئوا القنـــديلا[2]

---

(١) المرجع السابق صـ ١٤١.

(٢) ديوان البوصيري ج١ صـ ١٨٢، بدون طبعة وبدون تاريخ.

ثالثًا: الاعتزاز بالهوية العربية والإسلامية:

أجل، لقد سعد المصريون بالإسلام واعتزوا به، وكان لهم السبق في إنشاء المدارس، والمعاهد، والكتاتيب، والمساجد، ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة ذكر بعض ما قام به الأزهر الشريف منذ نشأته (٦١ هـ ـ سنة ٩٧٢ م)، وإلى يوم الناس هذا من أعمال جليلة لحراسة الهوية العربية الإسلامية.

ما هي الهوية ؟

يقول الجرجاني في التعريفات: «الهوية هي الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق»[(١)].

و«أنها تعني الذاتية الخاصة البصمة التي تميز الظاهرة عن الظواهر التي تشبهها، أما مجمع اللغة، فهو يعرف الهوية حديثًا فيقول: إنها حقيقة الشيء، المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية، وليست أي صفات، والتي يميزها عن غيرها ... منها الصفات الجوهرية وإذا كنا نقول: إن موروثنا فيه الثوابت والمتغيرات فهذا يعني أن فيه ما هو (هوية) وفيه ما هو متغيرات»[(٢)].

وليس هناك أدل ـ على حب اللغة العربية في المجتمع المصري منذ عرف العروبة ـ من هذا التحول الكليّ للمجتمع من لغته القديمة (الحامية السامية ـ أو ما يعرف بالأفروآسيوية) (المصرية القديمة) التي استخدمت لأكثر من ٥٠٠٠ آلاف سنة أطول من أي لغة أخرى إلى اللغة العربية.

والعجيب أن هذا التحول كان سريعًا وشاملًا لمن دخل في الإسلام ولمن بقي على دينه، فالجميع صار يتحدث بالعربية ويعتز بها، ولم يبقَ للغة المصرية القديمة شأن يذكر.

«فالعروبة بالنسبة لهذه الأمة (هوية) لأنه على مر العصور ومنذ أن اندمجت هذه الجماعة البشرية بالتعريب في هذه الأمة الجديدة وأصبح ولاؤهم للعروبة.

والمواريث التي سبقت الفتح الإسلامي قد تعربت كما تعرب البشر ودخلت أثناء (عصر التدوين) في نسيج الحضارة الجديدة وصيغت بصيغة الإسلام، إن أمتنا هذه أمة متدينة ـ وهذا الكلام ـ الذي يتردد كثيرًا، ليس عبثًا ـ فالتدين قسمة من قسمات الهوية التي تتميز بها أمتنا العربية الإسلامية والقيم والأخلاقيات هي الأخرى من ثوابت الهوية»[(٣)].

---

(١) التعريفات للجرجاني صـ٢٨٦، مرجع سابق، حرف الهاء.

(٢) الاستقلال الحضاري صـ١٦٦ : ١٦٨ بتصرف، طـ/ نهضة مصر أبريل سنة ٢٠٠٨ م.

(٣) المرجع السابق صـ٦٦.

رابعًا: درو الأزهر الشريف في الحفاظ على القيم:

قام الأزهر الشريف بالدور العظيم والرائد في حفظ هذه القيم بما فيها (الوسطية بالمفهوم الإسلامي) واللغة العربية، وكان هذا الجهد ولايزال نصرًا للإسلام والمسلمين.

يقول الدكتور محمد عمارة: «أما الأزهر فهو ـ رغم انعدام الحاجة إلى تعريف مشاهير الأعلام ـ ذلك المسجد الجامع (الجامعة) التي اقترن قيامه بقيام (القاهرة) فأعلنا تحول مصر من دور الولاية إلى مركز (الخلافة) فكان منارة أهلتها لتنهض بعبء هذا الدور الجديد، فإلى جانب الصلاة كانت تلقى فيه دروس العلم، فلما كان الخليفة العزيز بالله (٣١٩ ـ ٣٦٥ هـ، ٩٣١ ـ ٩٧٥ م) استوى الأزهر جامعة علمية ومنارة فكرية وقبلة للعلماء والطلاب من كل الأجناس والأقاليم واللغات والطبقات، ثم توالت القرون وتعاقبت الدول وتغيرت النظم، وتنوعت حروف الدهر، والأزهر باقٍ يزداد رسوخًا، ويتزايد دوره ويتوهج ضياؤه، فلقد احتضن العربية والإسلام فغدا له في حياة أهلها مكان الحمى والحارس .... كان اتجاه سهام التغريب إلى (العروبة والإسلام) ومن ثم كان أحداق المخاطر، مخاطر التغريب بالأزهر الشريف حصن (العروبة) وقلعة (الإسلام) وكان الدور الرائد والفريد الذي نهض به الأزهر من أخطر ميادين صراع أمتنا ضد الغزوة الاستعمارية الحديثة »[1].

فما من أمة استهدفت العالم الإسلامي لاسيما عروبته وإسلامه (هويته) أو أرضه وثرواته، إلا وكان لعلماء الأزهر وطلابه مواقف مشهورة في مواجهة وجهاد هؤلاء الغزاة، سواء أكانوا صليبيين أو تتارًا... رغم الاغراءات.

إن مقاومة التغريب والأهداف الاستعمارية دليلٌ على الاستمساك بالقيم الإيمانية.

لقد عاش الأزهر حياة مصر والعروبة والإسلام كائنًا حيًّا يفعل في الأمة وينفعل بها، يقوى بقوتها ويضعف بضعفها.

لقد كان للأزهر شرف المقاومة، شارك في ذلك المحافظون من أبنائه والمجددون»[2].

(١) المرجع السابق، صـ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق صـ ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٢٨، ٢٢٩، بتصرف، وللمزيد انظر كتاب قاموس العادات والتقاليد المصرية صـ ٣٥، ٣٦ ط دار الشروق سنة ٢٠١٠ م د/ أحمد أمين،(١٨٨٦/ ١٩٩٤) درس بالأزهر الشريف، وعمل قاضيًا ومدرسًا في مدرسة القضاء الشرعي، ثم مدرسًا بكلية آداب القاهرة، ثم عميدًا بالكلية نفسها.

ولم يقف الأزهر ـ كما هو معلوم ـ عند حد مقاومة التغريب والأهداف الاستعمارية، أو عند حد إثبات الذات والدفاع عن الهوية، بل تجاوز ذلك إلى غزو أفكار هؤلاء وغيرهم والتأثير فيهم وذلك من خلال إرسال الدعاة والوعاظ ومساندة الوافدين من الدول الأخرى ـ وتدريبهم وفتح المدارس والمعاهد خارج مصر، والتعاون مع أهلها وإرسال الكتب والمدرسين ومنح الفرص المجانية للمتفوقين... إلخ، ما هو معلوم وقائم إلى الآن.

ولعل هذه الصحوات التي ظهرت في مصر، والعالم الإسلامي، والتي ترفض التبعية للغير والزوبان في شخصيته والرضوخ لما يريد، وتتطالب بعودة المجتمع إلى ثوابته وقيمه لعل للأزهر الشريف الفضل في تكوين هذه الروح المؤمنة الواعية التي وقفت وتقف بالمرصاد لدعاة التغريب وسماسرة الاستعمار، ولولا فضل الله على مصر ـ بوجود الأزهر ـ لصارت مصر الآن لا تعرف عن العروبة والإسلام إلا القليل.

ما عرف الأزهر التعصب للمذاهب والعلماء بل درس ويدرس المذاهب الإسلامية ـ في كل مجالات المعرفة ـ لا يتقدم مذهب على مذهب في مسالة، أو رأي على رأي، أو حكم على حكم، أو فتوى على أخرى إلا بالدليل الراجح من قرآن، أو سنة، أو إجماع.

فالطالب في الأزهر مطالب بتقديم الدليل عن كل ما يتعلق بمجال تخصصه، وكفى بذلك شرفًا وفضلًا؛ لأن هوية الأمة في الإسلام بمفهومه الشامل والوسطية بمعناها الحقيقي وليس في التعصب لمذهب أو فكر أو شخص أو بلد.

المطلب الثاني: قيمة التكافل وحسن الجوار.

التكافل يعني: التضامن والتعاون بين أبناء المجتمع الواحد، أقرباء كانوا أو جيران ليضمن الجميع ـ ولو ـ الحد الأدنى من الحياة الآدمية الكريمة.

يقال: «كفل الرجل بالرجل كفالة:«ضمنه»، وكفل الصغير «رباه وأنفق عليه»، وفي القرآن الكريم ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: قام على رعايتها، وتكفل بالشيء: أوجبه على نفسه ، وتكفل بالدين: التزم به»[1].

ومنه كافل اليتيم: الذي يتولى تربيته ويوفر له ضروريات الحياة الكريمة ومقوماتها، «والكافل هو: العائل يكفل إنسانًا، أي: يعوله»[2].

(١) المعجم الوجيز صـ/ ٥٣٧ مرجع سابق.

(٢) مختار الصحاح صـ/ ٥٧٥، مرجع سابق.

والتكافل بهذا المعنى ـ أو قريبًا منه ـ كان معروفًا في المجتمع المصري منذ عصر الأسرات ـ جمع: أُسرة ـ إذ أن المصريين بفضل نهر النيل الذي وهبه الله لهم، عرفوا العمران مبكرًا، وبنوا المدن والقرى على ضفافه، وحتى المناطق الصحراوية كان بها تمركز وعمران يجمع بين الأقارب والجيران.

«كانت الأسرة النواة لب المجتمع المصري، وتشير قوائم نسبية لا تحصى على أهمية الروابط الأسرية، وفي معظم العصر الفرعوني كان الرجال والنساء يرثون بشكل متساوٍ، من كل من الأبوين»[1].

وفي الأسرة المصرية، بكل طبقاتها، كان الأطفال بنوعيهما مقدرين مرغوبين (ولا توجد إشارة على ممارسة وأد البنات)، وكان لميلاد الطفل اهتمامًا كبيرًا وفرحًا عظيمًا، وكانت الرضاعة الطبيعية أحد أفضل السبل للحفاظ على الطفل، وتشير دُمَى ولعب الأطفال إلى أنه كان يخصص وقت فسيح للعب وبمجرد أن كانوا يتجاوزون سن الطفولة يبدءون التأهل للبلوغ ومعاونة الأهل، ويعود الوالدان أبناءهما ويزودانهم بأفكار عن العالم، وعن الدين والأسس الأخلاقية، والسلوك القديم»[2].

عَرَفَ المصريون بناء الأكواخ والمساكن وتقسيم الأراضي الزراعية فيما بينهم، ولعل هذا التجاور وما له من تبعات واحتكاكات يومية وهموم مشتركة، تتمثل في زراعة الأراضي في وقت واحد، وحمايتها من فيضان النيل، والاحتفاظ بالبذور اللازمة للأعوام القادمة، وجمع المحصول عند الحصاد، وبناء البيوت وما له من احتياجات، كل ذلك أسهم في بقاء قيمة التكافل وحسن الجوار.

ومما لا شك فيه (أن حياتنا قد تعقدت ولم تعد هي تلك الحياة البسيطة التي كنا نحياها في الماضي، والتي كانت تحكمها أعراف وتنطوي على قيم جليلة كالتواد والتراحم والحرص على إنسانية الآخرين، حين كان المجتمع يطرح الأنانية وحب الذات، وحين لم يكن شعار ـ أنا وبعدي الطوفان ـ قد ارتفع بعد، وحين لم نكن نعرف هذا التسيب العارم الذي اجتاح حياتنا المعاصرة»[3].

---

(١) مصر والمصريون صـ١٦٩/ ١٧٦ بتصرف، مرجع سابق.

(٢) عن الأسرة المصرية وعاداتها وقيمها الأصيلة، انظر كتاب قاموس العادات والتقاليد المصرية حرف الألف ص٤٢-٤٣، مرجع سابق.

(٣) د/ أحمد عكاشة ثقوب في الضمير صـ ١٥، ١٦، طـ دار الشروق سنة ٢٠٠٩م .

وجاء الإسلام فعرف المصريون أن هذه القيم فوق كونها عادات أصيلة في المجتمع المصري، فهي عبادات يثاب المرء بها أو يعاقب عليها وأن الإنسان خليفة في الأرض خلقه الله منها واستعمره فيها، وبعث إليه الأنبياء والمرسلين وشرع له الشرائع والقوانين التي تبين ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

منها: التكافل وحسن الجوار:

كانت هذه القيم ـ بعدما دخل الإسلام مصر ـ تنبع عن عقيدة وإيمان بالله ورسالاته، وكان المسلم يقوم بواجباته نحو المجتمع إما رغبة في ماعند الله تعالى وطلبًا لرضاه، وإما رهبة من الله تعالى وخوفًا من عقابه وانتقامه[1].

«فاق المجتمع الإسلامي المجتمعات الأخرى، ففي مجال القيم الإنسانية الرفيعة التي هي المظهر الحقيقي لعظمة المجتمعات فأنت تراها مجسده مطبوعة على تاريخنا الطويل، ولقد انطلقت تلك القيم السامية في أخوة الإيمان، وتحقيق الحق وتنفيذ العدل من مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[سورة النساء:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[سورة الحجرات:١٣].

والتقوى عن طريقها يظهر الإيمان الصادق وبها تتهذب النفس وتطمئن، ويتشرب القلب حلاوة الطاعة للمعبود»[2].

لقد وضع الإسلام نظامًا كاملًا وشاملًا لكل مناحي الحياة ومنسجمًا مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

وفي باب التكافل وحسن الجوار، حثّ الإسلام على برّ الوالدين، وصلة الرحم ورعاية الضعفاء وذكر حقوق الأبناء على الآباء، والآباء على الأبناء، وحق القربى، وشرع الزكاة، وجعلها ركن من أركان الإسلام، وحثّ على الإنفاق في أوجه الخير.

---

(١) انظر كتاب الدكتور رءوف شلبي : (الدعوة الإسلامية في عهدها المدني منهاجها وغاياتها) صـ ٣٨٤ وما بعدها، مطبعة الفجر الجديد سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م .

(٢) منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، صـ ٦٧، للدكتور محسن عبد الحميد، أستاذ التفسير والعقائد الإسلامية بكلية الشريعة ، والفكر الإسلامي الحديث بكلية الاداب جامعة بغداد، طـ مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٣م ـ ١٤٠٣هـ.

إن التكافل وحسن الجوار من القيم التي ما تخلى عنها المجتمع المصري طوال حياته، كان التعاون بين الأقارب والجيران إلى أبعد الحدود.

ما كان المرء يتخلى عن رعايته لأبويه ويدفع بهما إلى دار المسنين رغبة في التخلص منهما أو البعد عنهما أو طاعة لزوجته، بل كان المرء ـ وإلى عهد قريب ـ يُنزّل عمّه منزلة والده، تسأله مَن هذا ؟ يقول لك: أبي فلان، وينظر إلى ابن عمه نظرته إلى أخيه، بل كانت الأُسَر تعيش في بيت واحد بطعام واحد ودخل واحد، آباء وأبناء وأحفاد، لا يعرفون الأنانية وحب الذات، ما كان المرء يترك أخته أو أخاه يحيى أو تحيى حياة البؤس والجوع والمرض والعار، وهو غارق في الملذات لا يلتفت إليهم !!

كان الجيران والأقارب يتعاونون في بناء بيوتهم وجمع محاصيلهم وزراعة أراضيهم ومواساة مصابيهم وفقيرهم، كانت القرية التي يقطنها بضعة آلاف، كالأسرة الواحدة في أفراحها وأتراحها ما كان يعقل أو يقبل أن يقام عرس أو أفراح بجوار أو قريب من بيت فيه حالة وفاة أو مصاب، فقد يتهيأ أهل بيت لزواج ابنهم أو ابنتهم فيموت رجل أو امرأة من أسرة أخرى فيتوقف الزواج أربعين يومًا.

كان المرء الذي لم تتح له فرصة للتعليم ولم يحفظ شيئًا من القرآن أو السنة إذا رأى جاره مسيئًا إليه يقول للمسيء: (اتق الله، الجار ولو جار)، ولا يرضى أن يضار له جار ـ ولو كان ذميًّا ـ بل يسعى بكل طاقاته في رد الإساءة عنه ولو أدى ذلك إلى فقد حياته.

إذا كان ذلك حال الإنسان الأميّ، فكيف بمن وعي قول الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[سورة النساء آية: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ [سورة محمد:٢٣]، وقول رسول الله ﷺ: «لايزال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[(١)]، وقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عائشة، رقم (٥٦٦٨) باب الوصاءة بالجار ج٥/ ص٢٢٣٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة برقم(٤٨٩٠) باب النقيع والشراب الذي لا يسكر في العرس ج٥/ صـ١٩٨٧.

تأمل: كيف ربط ﷺ بين الإيمان وحسن الجوار، في قوله ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قالوا: مَن يارسول الله ـ لقد خاب وخسر ـ قال: مَن لا يأمن جاره بوائقه»[١]، وقوله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم»[٢].

ولقد حافظت مصر على هذه القيمة واحتفظت بها وما تخلت عنها بسبب جوع أو فقر منذ أن دخل الإسلام مصر وقبل ذلك وإلى وقت قريب.

المطلب الثالث: قيمة الصبر الإيجابي ومواجهة الأزمات بحكمة واقتدار:

الصبر نوعان: صبر إيجابي وهو محمود، وصبر سلبي وهو مذموم.

والصبر الإيجابيّ معناه: «ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله تعالى»[٣].

والصبر أيضًا: « حبس النفس عن الجذع ـ والصبر ـ بكسر الصاد ـ الدواء المرّ »[٤].

صبر، يصبر، صبرًا ـ أي: تجلد وواجه المصائب والبلايا بجرأة ـ وصبر عن الشيء، حبس نفسه عنه، امتنع عنه[٥].

هذا هو الصبر الإيجابي المحمود، وهو الصبر الجميل الذي أمر الله عزوجل به نبيّه محمد ﷺ في قوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[سورة المعارج:٥:٧].

والصبر السلبي صبر مذموم لأنه استسلام وضعف وهزيمة ورضا بالواقع المرّ دون تكليف النفس بالبحث عن حلول لمواجهة الخطر والمصائب مع القدرة على ذلك.

وتاريخ مصر يشهد أن أبناء هذا البلد كانوا يتحلون بالصبر الإيجابي وليس الصبر السلبي.

---

(١) صحيح البخاري، عن أبي شُريح العدوي الخزاعي برقم (٦٠١٦)، ورواه مسلم في صحيحه باب الإيمان برقم (١٨١)، عن أبي هريرة.

(٢)رواه ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عباس، وصححه الألباني، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد عن أنس بن مالك (٨/ ١٧)، وقال حديث حسن.

(٣) التعريفات للجرجاني صـ ١٤٩، مرجع سابق، ومن الأمثلة التي يرددها المصريون، (الشكوى لغير الله مذلة)، و(الصبر مفتاح الفرج).

(٤) مختار الصحاح صـ ٣٥٤، ٣٥٥، مرجع سابق.

(٥) رائد الطلاب صـ ٤٩٧، مرجع سابق.

انظر إلى آثارهم التي أثارت إعجاب بل واستغراب العالم ولا زالت قائمة تحكي لنا عن صبرهم في البناء والتعمير، وصبرهم في مواجهة الفيضانات الموسمية، وصبرهم في مواجهة الغزاة والمعتدين وصبرهم في مواجهة القحط والجفاف والآفات والأمراض... صبرًا ليس فيه استسلام ولا هزيمة ولا ذلّ ولا انقياد ولا فقدان السيطرة على النظام العام.

يقول مؤلف كتاب مصر والمصريون: «حظيت آثار مصر القديمة بإعجاب العديد من الشعوب على مرّ العصور، وتسرد إحدى النقوش كيف كان المرء يمضي نهارة مبديا إعجابه بمجمع هرم زوسر، وفي ٢٧ من يناير وصل الفرنسيون إلى الأقصر، كانوا مأخوذين بعظمة المعابد لدرجة أنهم أخذوا في التصفيق الجماعي إعجابًا، وشكلوا صفوفًا بطريقة تلقائية ورفعوا أسلحتهم تحية وتبجيلًا»[١].

فهذه إطلالة على الماضي العتيق، أعني بها أو بغيرها من قيم الماضي، أن يعلم القارئ الكريم أن هناك «أصول» و «ثوابت»، تمثل صفات متميزة ومشتركة دامت قرونًا طويلة ولا تزال باقية وإن تخلى عنها الكثيرون إلا أنها تحمل صلاحيات العطاء المعاصر للخلوص من الأزمات الراهنة التي تعيشها مصر الآن.

إن هذه الآثار دليل على صبر وصمود هذه الأمة على مرّ العصور ثم جاء الإسلام فعلمهم أن الصبر المفهم بالحيوية والنشاط والأمل عبادة لله تعالى قال ﷺ: «والصبر ضياء»، أي: نور من الله يضيء به البصيرة، ولابدّ من الصبر الجميل في مواجهة الأزمات.

وكم من آيات وأحاديث بينت قيمة الصبر، عرفها المؤمنون وعملوا بها، فنجحوا في الدنيا وسعدوا بثواب الآخرة.

«لقد شهدت وقائع التاريخ أن المسلمين قد زرعوا وصدقوا في استصلاح الأرض وتنظيم الري وتحسين أساليب الزراعة وتنويع مزروعاتهم، نظم المسلمون شبكة شاملة محكمة للري في مصر والعراق وإيران وما وراء النهر»[٢].

---

(١) مصر والمصريون صـ ٢٣، ٣٢، مرجع سابق.

(٢) د/ محمد فتحي عثمان ، أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كتاب القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ، طـ الدار السعودية، الرياض ص ٧٨ ـ ٧٩، سنة ١٩٨٥.

يقول الدكتور جلال أمين: «كانت حرب ١٩٦٧م قد ضربت الاقتصاد المصري ضربة قاصمة، أصبح معها الاستمرار في التنمية شبه مستحيل، فالجيش يراد إعادة بناؤه، وسكان مدن القناة يجري تهجيرهم وإعادة إسكانهم، وبترول سيناء أصبح في يد الإسرائيليين وقناة السويس مغلقة، والمعونات الخارجية انخفضت بشدة،كانت ضربة مباغتة سرعان ما انتهت دون حرب، كانت ضربة للتأديب حتى تعلن مصر ندمها وأسفها واستعدادها لأن تفعل ما يطلب منها» [١].

ومع هذا استمرت مصر في بناء جيشها والاستعداد لمواجهة عدوها والاعتماد على الله، ثم على عقول وسواعد وهمم أبنائها مع علمها بقوة عدوها ومن وراءه، وبقوة حصونه وتجهيزاته، منها خط بارليف الشهير[٢] إلا إن مصر صبرت وصابرت ودربت أبنائها وأعادت إليهم الثقة والقدرة على مواجهة التحدي والقدرة على إثبات الذات وإيقاع الهزيمة بهذا الجيش المغرور الذي يزعم أنه لا يقهر.

إن ما قام به أبناء مصر في العاشر من رمضان الموافق السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣م لَدليل قاطع على إبراز قيمة الصبر الإيجابي ومواجهة الأزمات بحكمة واقتدار، والمتأمل في تاريخ مصر يجد من ذلك الكثير والكثير.

***

(١) مصر في عصر الجماهير الغفيرة، د/ جلال أمين، له عدة مؤلفات عن المجتمع المصري والدراسات الأكادمية للاقتصاد، وله مقالات عدّة في مجلة الهلال صـ ٧٣، ٧٥ بتصرف، طـ دار الشروق سنة ٢٠٠٩، ومما يحسب لمصر صمودها أمام الفتن والاغراءات المصحوبة بالترغيب والترهيب والمتكررة من قبل المحتلين والغزاة لاغواء مصر حتى تنسلخ عن قيمها ومحيطها العربي والاقليمي انظر كتاب الفتنة الطائفية للدكتور/ محمد عمارة ص٢٥وما بعدها مرجع سابق.

(٢) خط بارليف: هو جبل صناعي ترابي أقامته إسرائيل على طول قناة السويس من الجهة الشرقية وكان يمثل الحصن الحصين للقوات الإسرائيلية؛ إذ إنه مليء بالألغام الأرضية والمدافع الرشاشة وأنابيب غاز النابالم، شديد الاشتعال وسلوك الضغط العالي من الكهرباء والأسلاك المنيعة الشائكة، ومن خلفه مراكز محصنة تسمى بالنقاط القوية لما لها من عمق تحت الأرض ودفاعات خرسانية مسلحة بأنواع من حديد الفُولاذ..... استطاعت مصر ـ بفضل الله ـ تدمير هذا الخط في وقت قياسي بعرف العسكريين، مما أذهل العالم، وأثبت الجدارة لمصر وجندها، والقدرة على تخطي الصعاب والتغلب على العقبات.

المطلب الرابع: قيمة تفعيل الإحساس بالمسئولية نحو الإسلام والمسلمين:

معلوم أن للإسلام والمسلمين أعداءً استخدموا كافة الوسائل والإمكانيات في حربهم على الإسلام والمسلمين، منذ أن بزغ فجر الإسلام وانتشر نوره، منهم من هاجم ديار المسلمين من جهة الشرق من آسيا «كالتتار أوالمغول»، ومنهم من هاجم من جهة الغرب «من أوربا»، كالصليبيين والاستعمار الحديث في القرن العشرين والواحد والعشرين.

يقول الدكتور محمد عمارة: «منذ بدء الهجمة الاستعمارية على ديار العروبة والإسلام ووضحت نوايا وأهداف هذه الموجة من موجات التحدي، فهي لا تبغي فقط السيطرة على طريق التجارة الدولية، ولا تقنع بالنهب الاقتصادي، ولا تكتفي بتفتيت وطن أمتنا فتحول دون وحدتها فقوتها فنهوضها، ولا تقف أطماعها عند تحويل شرقنا العربي والإسلامي إلى «هامش أمن» للغرب الأوربي.

لا تكتفي هذه الهجمة الاستعمارية بكل ذلك، بل إنها تسعى إلى سحق شخصيتنا القومية الخاصّة، ومسخ هويتنا الحضاريّة المتميزة.

من هنا، وبسبب هذه الأهداف الاستعمارية تنوعت أسلحة الصراع وتعددت ميادينه، فشملت ساحة (الفكر) و (المادة) وخاصة (المفكرون) و(العامة) واستنفر (العلماء) و (الجند)، واحتاج إلى القلم والسيف عبر تاريخه الطويل»[1].

هذه الأهداف المعلنة والخفية من قبل الاستعمار، تعلمها مصر جيدًا، كما تعلم أسلحة هذا الصراع المتنوعة وميادينه المتعددة.

وبما لها من خبرة طويلة في مواجهة الأعداء، وموقع متميز بين القارات وما لديها من علماء وعظماء وجنود.

تأبى مصر إلا أن تقف في وجه المعتدين، إحساسًا منها بالمسئولية الملقاة على عاتقها نحو الإسلام والمسلمين، فهي الشقيقة الكبرى، وهي بلد الأزهر الشريف وهي بلد الفكر والمفكرين والأبطال الشجعان المجاهدين.

نوعت مصر أسلحة الدفاع كما تنوعت أسلحة الخصوم في الهجوم، فكان في مصر الفكر الذي يردّ الفكر، وكان فيها الحديد الذي يفل الحديد، فكانت مصر السد المنيع أمام هذه الهجمات، وكانت خط الدفاع الأول والمنيع أمام أي عدوان على الإسلام أو المسلمين.

---

(١) الاستقلال الحضاري صـ٩، ١٠، مرجع سابق.

والتاريخ حافل بذكر وتأكيد هذه الحقيقة، ولنأخذ بعض المواقف التي تحسب لمصر، كموقفها من الحروب الصليبية، والمغول (التتار)، والاستعمار الحديث، لم تكن مصر لتدافع عن نفسها وحدودها فقط بل كانت تدافع عن الإسلام عقيدة وشريعة وتدافع عن العروبة هوية وحضارة وتدافع عن كل مسلم دان بالإسلام أو عاش في كنفه.

١ ـ الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦م إلى ١٢٠٩م.

سميت هذه الحروب بالحروب الصليبية؛ لأن المحاربين الأوربيين رسموا الصليب على صدورهم ودروعهم وخيلهم وأعلامهم، وإلى جانب هذه الأهداف والدوافع الدينية المعلنة كانت هناك دوافع اقتصادية وسياسية ومطامع أخرى، أراد هؤلاء الغزاة تحقيقها عن طريق الحرب على الإسلام والمسلمين [1].

«واستمرت هذه الحروب بين المسلمين والصليبيين قرابة القرنين من الزمان مستهدفة بلاد الشام وبالأخص مدينة القدس، وما حولها ومستهدفة أيضًا مصر ـ قلعة الإسلام آنذاك وحصنه المتين ـ نجح الصليبيون في تحقيق بعض أحلامهم أول الأمر، لكن سرعان ما استيقظ العالم الإسلامي وأحسّ بالخطر الداهم الذي استهدف تاريخه وعقيدته وحضارته، وعادت الوحدة لهذا العالم على يد الأيوبين والمماليك الذين نجحوا في إيقاع الهزائم بالصليبيين حتى انتهى الأمر بتحطيم آخر معاقلهم في عكا سنة ١٢٩١م على يد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن طولون، فظهرت بلاد الإسلام من رجسهم» [2].

لقد جعلت مصر من المماليك أبطالًا كقلوون وبيبرس وقطز وغيرهم ممن أَبَو الدنيّة في دينهم والذل والهوان لأبناء عقيدتهم فلقبوا أنفسهم بالناصرين فكانوا كذلك، في حين أن المماليك في الأمم الأخرى لا تحسن سوى الخدمة لأسيادها، لا تعرف عن فنون القتال ما يؤهلها لمثل هذه المواقف التي لا تنسى في التاريخ.

---

(١) راجع كتاب الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث، طـ وزارة التربية والتعليم بمصر سنة ٢٠٠٩م/ ٢٠١٠ صـ٥٧ بتصرف.

(٢) المرجع السابق صـ٥٨.

إن القيم التي تربى عليها هؤلاء تختلف عن القيم التي تربى عليها سائر العبيد. إن مماليك مصر ـ على ما بهم من أمور ـ [١]، كانوا بلا منازع أساتذة الكر والفر، عمل لهم الغزاة والطامعين ألف حساب وحساب فقد استطاعوا أن يوقظوا الأمة ويردوا عنها كيد الأعداء.

٢ ـ الغزو المغولي و معركة (عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ١٢٦٠م)، «هذا الغزو قامت به قبائل المغول من الصين ـ وهو ما يعرف بـ (التتار) وسقطت جميع البلاد الإسلامية التي غزتها هذه القوات بما في ذلك عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد وبلاد الشام»[٢].

ويطول بنا الحديث إن شرحت بالتفصيل أحداث هذه الغزوات ومواقف البطولة التي بدت من القادة والجنود، ولكن حسبي أن نهاية هذا العدوان الصليبي والمغولي كان على أرض فلسطين بقوات معظمها خرج من مصر.

« استقل صلاح الدين بحكم مصر، وعلم رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يمكن النصر على الصليبيين والأمة ممزقة فوحد بين مصر والشام، وأقام الدولة الأيوبية وجعل مقرها مصر.

وإذا كان الأيوبيون قد تصدوا للغزو الصليبي، فإن سلاطين المماليك قد تصدوا للغزو الصليبي والمغولي (التتار) معًا فكان عليهم مواجهة الخطر المشترك في وقت واحد والحيلولة دون قيام اتحاد بينهما يحقق لهما النصر على المسلمين، ونجح المماليك في دحرهما معًا وفي وقت واحد وعلى جبهات متعددة في حرب سجال دامت قرابة القرنين من الزمان حتى كان النصر الحاسم في عين جالوت ـ بفضل الله ـ الذي قيض لفرسان المماليك أن يقودوا جيوش المسلمين في مصر والشام لصد هذا الخطر الداهم عن ديار الإسلام وحضارة المسلمين»[٣].

كانت مصر تتألم بآلام المسلمين وتسعد بسعادتهم وما كانت تبخل بمالها ورجالها وعتادها، على إخوانها المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا.

---

(١) المجال هنا لا يسمح بذكر تاريخ المماليك وما لهم وما عليهم، وإنما أردت أن أبين أن القيم في مصر لم تخفض رايتها قطّ، تنطلق من مصر سواء أكان ذلك على يد المصريين أو مواليهم، ومَن عاشوا على أرضهم وتأثروا بهم.

(٢) انظر كتاب الحضارة الإسلامية صـ٥٩ بتصرف، مرجع سابق.

(٣) المرجع السابق صـ٦٤.

٣ـ الاستعمار الحديث في القرن الثامن عشر والتاسع عشر:

ظل العدوان الأجنبي على بلاد المسلمين ولم ينته وظلت الأطماع القديمة التي كان الصليبيون والمغول يهدفون إلى تحقيقها ظلت تراود كثيرًا من القادة الأوربيين، بل وزادت هذه الأطماع وتطورت.

فكانت الحملة الفرنسية على مصر والشام سنة ١٧٩٨م/ ١٨٠١م وكانت الحرب العالمية الأولى سنة ١٨٨١م/ ١٩١٤م، ولم تكن مصر بعيدة عن مسرح العمليات، بل لازالت تعاني من الألغام التي زرعت في صحرائها والتي تعد بالملايين وتحتاج إلى جهود جبارة، واموال طائلة لإزالتها، مما يعيق الاستفادة من مليون فدان قابلة للزراعة واستغلال بترول هذه الأرض، وقد تسببت الألغام خلال ٢٢ عامًا في موت ٦٩٦ شهيدًا وإصابة ٧٦٠٠ بإصابات جسيمة[(١)].

وكذلك العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م عقب تأميم قناة السويس، الذي أجبرته مصر ـ بفضل إبائها وعزة أبنائها ـ على الخروج من مصر والعودة من حيث أتى.

وكذلك الصراع المرير بين العرب وإسرائيل والذي قدمت فيه مصر أغلى ما تملك من خيرة شبابها وأفلاذ أكبادها وقوت أبنائها، ففي حرب١٩٤٨/ ١٩٥٢/ ١٩٦٧م، فقدت مصر أكثر من مائة ألف شهيد وضاعت سيناء بالكامل، وأصيبت مدن القنال بالشلل، وكان ما هو معلوم للجميع ولا يحتاج إلى دليل[(٢)].

«إن المصريين قد نهضوا في الحرب الطرابلسية نهضة ـ هي دون شك ـ ترضي كل مسلم، بل ترضي كل إنسان يقدر قدر الحمية، فانظر إلى ما كان لذلك من نتائج، أهمها:

حفظ شرف الإسلام وإفهام الأوربيين أن الإسلام لم يمت، وأن المسلمين لا يسلمون بلادهم بدون حرب، وفي ذلك من الفوائد المادية والمعنوية للإسلام ما لا ينكره إلا مكابر»[(٣)].

وكما تعاونت مصر مع شقيقتها (ليبيا) في طرد الاحتلال تعاونت أيضًا بالمال والرجال والسلاح والخبرة مع دول إسلامية أخرى، كالجزائر واليمن وسوريا ولبنان لنيل الاستقلال.

---

(١) انظر كتاب الدراسات الاجتماعية للصف الخامس الابتدائي، الفصل الدراسي الأول،صـ ٤٠، وزارة التربية والتعليم سنة ٢٠٠٩/ ٢٠١٠م، مطابع دار الشعب للنشر.

(٢) للمزيد انظر كتاب الحضارة الإسلامية، مرجع سابق.

(٣) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، طـ دار البشير صـ ٥٤، بدون تاريخ، تقديم محمد رشيد رضا، وتأليف الأمير شكيب أرسلان.

هذه القيمة العظيمة التي تحلى بها أبناء مصر وما تخلوا عنها على مدار تاريخهم الطويل تؤكد قيمة تفعيل الإحساس بالمسئولية نحو الإسلام والمسلمين حيثما كانوا وأينما وُجدوا.

وكما لمصر دور رائد وفاعل في ردّ العدوان المسلح ودحر الجيوش المعتدية على الإسلام والمسلمين، كان لمصر ـ أيضًا ـ دورًا بارزًا ورائدًا في منع الحملات التنصيرية وما صاحبها من غزو فكريّ من التغلغل في بلاد المسلمين.

هذا الدور لا يقل في الأهمية ـ إن لم يزد ـ عن الدور السابق، وسأذكر بعضًا من الأمثلة الدالة على ذلك.

أ ـ حملات التوعية والإرشاد التي يقوم بها العلماء في مصر، وحول العالم الإسلامي لكشف نوايا المحتلين وسماسرة الغزو الفكري داخل وخارج بلاد الإسلام، ولتحصين أبناء المسلمين ضد سموم هذا الغزو.

ب ـ إقامة المعاهد والمدارس والجامعات في العالم الإسلامي كفروع للجامعات والمدارس المصرية، ومنها الأزهر الشريف[1] مع الإشراف التام وإرسال المواد التعليمية ووسائل التدريس والمدرسين، وهذا واضح في السودان وماليزيا وأندونسيا ـ مثلًا لا حصرًا ـ فضلًا عن استقبال الوافدين والاعتناء الكامل بهم، وهذا أيضًا واقع ملموس لا ينكره أحد.

ج ـ قيادة الصحوة الإسلامية وترشيدها والتقريب بينها وإمدادها بالمعارف والمراجع والكتب الفقهية والعلمية التي تزخر بها المكاتب المصرية ودور الطبع والنشر ومنها الرسائل الجامعية المتخصصة في كل فنون المعرفة[2].

يذكر الدكتور/ محمد عمارة ما أسماه (بالنهضة المصرية والاستقلال الحضاري)،فيقول: «الأمر الذي لا شك فيه أن النهضة المصرية التي قادها محمد علي (١١٨٤هـ:١٢٦٥ هـ)، هي التي دخلت بعالمنا العربي، وبشرقنا الإسلامي إلى رحاب عصر اليقظة والبعث والإحياء، لقد تتطلعت مصر إلى هذه النهضة على عهد حكم علي بك الكبير (١١٤٠هـ ١١٨٧هـ) ثم جاءت الحملة الفرنسية (١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م) لتنبه الأذهان بواسطة الخطر القادم، وتلعب دور» الماس الكهربائي «المنبه لها كي تستيقظ وتعي العصر وتدخل فيما يدخل فيه الأحياء المعاصرون»[3].

---

(١) سبق الحديث عن دور الأزهر في الحفاظ عن الدين والهوية صـ..... من هذا البحث.

(٢) راجع كتاب الأقليات الإسلامية مصاعبها مشاكلها وسائل الحفظ عليها، أ.د. محمد إبراهيم الجيوشي، العميد الأسبق لكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة.

(٣) الحضارة الإسلامية صـ ٢١٤، مرجع سابق.

لقد سبقت مصر العالم الإسلامي في تدريس العقيدة الإسلامية الصافية والفلسفة والتصوف الإسلامي وجعلت أقسامًا كاملة في جامعاتها لدراسة هذه المواد وميزت بين الغث منها والسمين، في حين أن كثيرًا من الدول الإسلامية ينظر إلى هذه المواد على أنها بكل ما فيها بدع وضلالات.

والخلاصة :

١ ـ أن الله ﷻ قيض لأهل مصر في كل عصر مَن يجدد لهم أمر دينهم وقيمهم الفاضلة وأخلاقهم النبيلة.

٢ ـ ما عرفت مصر الأنانية وحبّ الذات وما عاشت لنفسها، بل عرفت واجبها نحو ربها ودينها وإخوانها.

٣ ـ واجهت مصر جميع التحديات عبر تاريخها الطويل، فكانت محل تقدير واحترام جميع المسلمين.

الفصل الثاني

أهم مظاهر الفقر في المجتمع المصري ، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: قلة مستوى الدخل الفردي في مصر.

المطلب الثاني: عدم كفاية المساكن ورداءة مستواها.

المطلب الثالث: البنية الأساسية ومستوى الخدمات.

أهم مظاهر الفقر في المجتمع المصري:

للفقر مظاهر عديدة في مصر، وهذه المظاهر ظاهرة للعيان، ولا أظن أن يختلف عليها اثنان، وذلك لكثرتها، وانتشارها وتنوعها، حيث توجد في تدني الأجور والمرتبات، والبنية التحتية والمساكن، والعشوائيات، والشوارع، والمدارس، والمستشفيات .... بل ومعظم الخدمات، وهذا ما سأوضحه بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

المطلب الأول: قلة مستوى الدخل الفردي في مصر:

إن أهم العوامل التي توفر للإنسان الحياة الكريمة، والتى تعد من ضروريات الحياة، التي لا يستغنى عنها الإنسان، العمل المثمر المناسب الذى يدر على صاحبه مايكفى لاحتياجاته ومن يعول، وتوفير الغذاء والدواء والسكن الضروري واللازم لحياة الآدميين، ومصر تشكو من بطالة ومن فجوة خطيرة في حياة الأفراد والأسر وأزمات لم يسبق لها مثيل.

١- انتشار البطالة بين أبناء الشعب:

يقول السيد رئيس الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء: إن معدل البطالة سجل ارتفاعًا طفيفًا خلال ديسمبر الماضي بنسبة ٠.٥٦٪ حيث سجل ارتفاعًا بنسبة ٩.٤٪ بدلاً من ٨.٨٤٪ خلال ديسمبر ٢٠٠٨م.

وأوضح أن نتائج القوى العاملة للربع الرابع «أكتوبر/ نوفمبر/ ديسمبر» ٢٠٠٩ .. انتهى إلى أن معدل البطالة خلال هذه الفترة بلغ ٩.٤ بينما بلغ ٩.٣٦٪ خلال الربع المماثل من عام ٢٠٠٨م.

وأضاف أن عدد المتعطلين بلغ ٢ مليون و٣٧٥ ألف متعطل بزيادة قدرها ١٦٦ ألف متعطل عن نفس الربع من عام ٢٠٠٨، وأنه تم رصد ارتفاع محدود في معدل البطالة بين الذكور خلال تلك الفترة حيث بلغ ٥.٢٧ كما ارتفع معدل البطالة بين الإناث مسجلًا ٢٢.٨٥٪.

وبلغت نسبة المتعطلين الذين سبق لهم العمل ١٢.٦٪ من إجمالي المتعطلين .. وبلغ معدل البطالة في الحضر ١٢.٩٪ وبلغ في الريف ٦.٧٪.

وسجلت أعلى معدلات للبطالة في المحافظات الحضرية .. حيث بلغت ١٣.٦٪ يليها حضر الوجه القبلي بنسبة ١٢.٨٪ وسجلت أقل معدلات للبطالة في حضر محافظات الحدود وحيث بلغت ٥.٦٪ .. وأضاف أن نسبة المتعطلين من الشباب «١٥ ـ ٢٩ سنة»٨٧.٢٪ حيث بلغ عدد المتعطلين «١٥ ـ ١٩ سنة»، ٣٨٣ ألفًا بينما بلغ عدد المتعطلين «٢٠ ـ ٢٤ سنة» مليون و١٦١ ألف متعطل.

وبلغ عدد المتعطلين الذين تتراوح أعمارهم «٢٥ ـ ٢٩ سنة» ٥٢٧ ألف متعطل، كما بلغت نسبة المتعطلين من حملة الشهادات المتوسطة وفوق المتوسطة والجامعية وما فوقها حوالي ٩٥٪ .. حيث بلغ عدد المتعطلين الحاصلين على مؤهلات متوسطة وفوق المتوسطة مليونًا و٣٥٧ ألف متعطل .. وبلغ عدد المتعطلين من حملة المؤهلات الجامعية وما فوقها ٨٩٨ ألف متعطل»[(١)].

هؤلاء العاطلين ومنهم مَن بلغ الثلاثين والأربعين من عمره، ومنهم مَن حصل على أعلى الشهادات الجامعية، ولايزال يعيش على نفقة والديه، الأمر الذي أحرج كثيرًا من الوالدين أمام الأبناء، بل وأحرج كثيرًا من المسئولين أمام الإحصائيات الدولية والمحلية على السواء، وعلى سبيل المثال ما نشرته معظم الصحف في مصر في يوم واحد[(٢)]، عن الفقر وتأثيره على معيشة المصريين قالت منظمة الشفافية الدولية ومقرها برلين:

لا يخلو يوم من الأيام إلا ويطالعنا الإعلام، والعلماء المختصين ... بأخبار وأحدث عن الفقر في مصر، وما وصل إليه حال الفقراء والمحتاجين، وباعتراف المسئولين المعنيين بحل هذه المشكلة وبتقارير المنظمات العالمية والمحلية.

وعلى سبيل المثال لا الحصر «أن استطلاعًا أجراه الحزب الوطني في مصر على المواطنين عن أهم مشكلة في مصر كانت الإجابات كالتالي:«البطالة وتوفير فرص العمل وارتفاع الأسعار»[(٣)].

---

(١) صحيفة الأخبار العدد (١٨٠٥٥)، صفحة ٢ بتاريخ ٢٨/ ٢/ ٢٠١٠م، وانظر بيانات الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء (الكتاب الإحصائي السنوي ٢٠٠٩م) جدول رقم (٢/ ١٤) صـ ٤٤ ، متوسط دخل الأسرة والفرد.

(٢) ومنها صحيفة الجمهورية والمصري اليوم والوفد في الصفحة الأولى بتاريخ يوم الأحد، الموافق ٢١/ ٣/ ٢٠١٠م، ففي المصري اليوم بالتاريخ المذكور العدد (٢١٠٧)، عن مواجهات ساخنة بين الحكومة والمعارضة بسبب بيانات جهاز المحاسبة عن الفقر في مصر، وعن ما نشرته منظمة الشفافية الدولة عن هذا الموضوع بشرح يطول ذكرة.

(٣) صحيفة المصري اليوم العدد (١٨٧٦)، بتاريخ ٢/ ٨/ ٢٠٠٩م.

وعن تقرير التنمية البشرية الأخير، أوضح وجود ٦ قرى في محافظة دمياط وحدها من بين (١٠٠) مائة قرية الأفقر في مصر منها قرية تصل نسبة الفقر فيها إلى ١٠٠٪[(١)].

«أفاد تقرير صادر عن الأمم المتحدة عن التنمية البشرية في مصر، أن أربعة عشر مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر بينهم أربعة ملايين لا يجدون قوت يومهم حيث تم تصنيف مصر الدولة (١١١) بين دول العالم الأكثر فقرًا»[(٢)].

وتقدر بعض الدراسات عدد المصريين الذين يعيشون في فقر مدقع بنسبة ٢٣٪ بينما لا تزيد نسبة الضمان الاجتماعي عن ١.١٪ من الناتج المحلي الإجمالي، وإن اسقراء بعض الدراسات التي قام بها البنك الدولي تشير إلى أن ١٦.٧٪ من المواطنين يعيشون عند خط الفقر القومي الأدنى.

أي ما يعادل (١) واحد دولار أمريكي في اليوم، أي: أن ١٠.٧ مليون لا يستطيعون الحصول على احتياجاتهم الأساسية من الطعام وغيره وتوضح نفس الدراسة أن ٤٢٪ من المصريين أي: ٢٦.٩ مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر القومي الأعلى [٢ـ دولار يوميًا]، ويتواكب مع مشكلة الفقر مأساة الجوع»[(٣)].

وما بلغت مصر حدًّا قياسيًا في الفقر بهذه النسب المخيفة والمتزايدة مثل ما وصلت إليه الآن، ولا أدري كيف يوفق المرء بين متطلبات الحياة الضرورية اليومية الملحة ـ وهو يقضي الساعات الطوال في طبور رغيف العيش ـ وبين ما تطالبه به الدولة من حب لها والتغني بأمجادها وبذل المهج في سبيل الدفاع عنها.

في معظم دول أوربا تمنح إعانة مالية تكفل لكل مواطن الحياة الكريمة وزيادة، ففي إيطاليا مثلًا يعطي للمواطن (٢٥٠) يورو لمجرد حصوله على الجنسية وأن يكون متزوجًا[(٤)].

---

(١) صحيفة العربي العدد (١١٦٩) صفحة ٧، بتاريخ ٢/ ٨/ ٢٠٠٩م.

(٢) بحث مقدم من السيد عبد الله السيد محمد إلى إدارة التعليم العالي ـ البرنامج التدريبي لصيف ٢٠٠٨م، رقم الكود (٢٣٨٧)، انظر كتاب د/ محمد عبدالحليم عمر/ أبحاث ندوة الفقر والفقراء في نظر الإسلام، صـ ١٤ وما بعدها ، ط مركز صالح كامل الاقتصادي جامعة الأزهر الأحد ٨/ رجب/ ١٤٢٠هـ ١٧/ ١٠/ ١٩٩٩م.

(٣) أ.د علي السلمي مصر المحروسة من تاني صـ٢١٥/ ٢١٦ ، ط مكتبة الشروق الدولية الطبعة الأولى سنة ١٤٣٠هـ/ نوفمبر ٢٠٠٩م، بتصرف، وانظر كتاب الإسلام والضمان الاجتماعي صـ٢٣ وما بعدها للدكتور محمد شوقي الفنجري طبعة سنة ١٩٨٠م/ دار ثقيف للنشر والتأليف، المملكة العربية السعودية.

(٤) هذا ما أكده لي أكثر من واحد ممن يعملون في أوربا.

« إن هناك حاجة لقوانين تحكم تضارب المصالح، وإن الجهاز الحكومي في مصر مثقل بأعباء ثقافة التوظيف لتفادي معدلات البطالة، الأمر الذي جعل الدخول منخفض ... وشدد تقرير المنظمة العالمية وقال: بدون نظام جاد لتنظيم الأجور في تغطية نفقات المعيشة»[١].

٢- تدني مستوى المعيشة وعدم توفر السلع الغذائية:

ويقول المستشار جودت الملط:«النمو الذي حققته الحكومة ٤.٢٪ لم ينعكس هذا النمو الاقتصادي على معيشة المصريين، وأن نسبة الفقر في مصر في ارتفاع من ٢٠٪ عام ٢٠٠٨م إلى ٢٣٪ عام ٢٠٠٩م، وأن مظاهر الفقر في الريف في مصر تصل إلى ٧٧٪ من إجمالي الفقراء، وأن مصر تحتل الترتيب ٨٢ من بين ١٣٥ دولة في العالم من حيث مستوى الفقر»[٢].

ويطول الحديث عن شكاوي المواطنين لعدم توافر السلع الضرورية، وغلاء الأسعار؛ لأن الإنسان بشر لابدّ وأن يأكل ويشرب ويعيش في جوّ صحي مناسب للحياة الآدمية وهذا كله يحتاج إلى دخل مستمر يغطي تكاليف الحياة، فكيف يعيش من دخله جنيه واحد، واحتياجاته الضرورية لا تقل عن ثلاث جنيهات.

إن متوسط دخل الفرد في مصر لا يزيد عن دولارين واحتياجاته اليومية تزيد عن دولارين، وهناك مَن هو أفقر وأكثر احتياجًا وأقل دخلًا [٣].

* * *

(١) المصدر السابق المصري اليوم بنفس التاريخ.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر كتاب مصر المحروسة صـ٣٠ مرجع سابق، وكتاب الإصلاح الاقتصادي في مصر صـ٢٠ للدكتورة منى قاسم، الناشر الدار المصرية اللبنانية للكتاب سنة ١٩٩٨م.

المطلب الثاني:عدم كفاية المساكن ورداءة مستواها:

العامل الثاني الذى لا بد منه لحياة مستقرة تحفظ للإنسان كرامته وتستر عورته، وتقيه الحر والبرد، المسكن المناسب قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النحل: ٨٠،٨١].

ذهبت إلى الأحياء الفقيرة في القاهرة والريف، ورأيت مظاهر الفقر بادية لكل ذي عينين، من العشوائيات ومساكن الطين اللبن والأكواخ البدائية التي يصعب على أصحابها اصلاحها أو سقفها بما يمنع عنهم المطر والبرد ... وهذه المنازل التي لا تصلح لسكنى الآدميين موجودة بأعداد كبيرة في الريف المصري ومعظمها لأيتام وعجزة يعيشون على الصدقات، والأعجب من هذا أن هناك مَن لا يملك هذا الكوخ؛ لأنه بني على أرض الأوقاف أو الدولة أو الشارع العام أو على ضفاف الترع ومشاريع الصرف الصحي أو في أملاك وزارة الري، والأعجب من هذا أن هؤلاء ليسوا في الريف فقط بل منهم مَن يسكن في محيط المدن الكبرى ففي القاهرة مثلًا أحياء بأكملها كـحي منشأة ناصر والدويقة وعزبة الهجانة والهايكستب وغير ذلك كثير.

«وتعد محافظة الدقهلية ودمياط والقاهرة والشرقية والبحيرة وقنا وبني سويف وأسيوط من أعلى محافظات الجمهورية في عدد العشوائيات، ففي القاهرة وحدها ٦٨ منطقة عشوائية من إجمالي ٧٩ منطقة عشوائية» (١).

أما عن مزاحمة الأحياء للأموات وسُكنى المقابر، ذهبت أيضًا إلى مناطق القبور فوجدت أعدادًا كبيرة تسكن القبور معظمهم لا يجد سكنًا، وبعضهم يعمل في تغسيل ودفن الموتى، ففي مقابر القاهرة الكبرى القديمة كمقابر البساتين ومقابر الغفير وغيرهما، وفي الريف ـ أيضًا ـ يعيش كثير من الأحياء مع الأموات.

---

(١) كتاب الديموجرافيا الأمنية(المفاهيم والأساليب)ص-١٣٣-، مرجع سابق.

«ومع ضخامة المشكلة وتكدس الطبقات الفقيرة في العشش أصبح سكن القبور نمطًا عاديًّا، ويضم قسم الخليفة أكبر تجمع لسكان المقابر، حيث تصل النسبة إلى ٤١٪ من إجمالي السكان، يليه قسم الجمالية، إذ تصل النسبة إلى ٤٨،٨٪ ، يليه الدرب الأحمر ١٣،٣٪، ويقدر عدد سكان المقابر في القاهرة وحدها بـ(١٠٠) ألف أسرة، أي: إن واحدًا من كل عشرين فردًا من سكان القاهرة يسكن المقابر»[1].

يقول الأستاذ/ أحمد عبد العزيز: «الأحياء يزاحمون الأموات في المقابر والفقراء يدفنون موتاهم في مقابر الصدقة، ففي المقابر - على مستوى الجمهورية - يسكن مع الأموات ١٢ مليون»، ويذكر الأستاذ/ أحمد شرحًا مفصلًا عن حال ساكني القبور وعن احتكار بيع المدافن والتحكم في دفن الموتى، ويعجب الأستاذ مجدي قرقر الأستاذ بمعهد التخطيط من الحالة التي وصل إليها الفقر في مصر، والتي جعلت الملايين يقيمون في القبور إقامة دائمة»[2]، ولا يخفى عن أحد ما لهذا الأمر من تأثير سلبي على القيم والأخلاق.

***

(١) الديموجرافيا الأمنية صـ١٣٣ ، مرجع سابق.

(٢) صحيفة صوت الأمة صفحة ٤ بتاريخ ٣١/ ١٠/ ٢٠٠٩م.

المطلب الثالث: البنية الأساسية ومستوى الخدمات:

أولاً: الخدمات الصحية:

يكفي لتأكيد هذه الحقيقة أن ينظر المرء إلى الشوارع والمستشفيات في القاهرة وضواحيها وفي الأقاليم والأرياف.

ومع أنه حدث تحسن بعض الشيء إلا إن الواقع يؤكد أن ما تم إنجازه في هذا المجال أقل بكثير مما يحتاجه الشعب، فهناك دراسة حديثة أعدها الدكتور/ رضا حجاج الأستاذ بكلية التخطيط الإقليمي والعمراني في جامعة القاهرة: «كشفت عن حرمان ٩٧٪ من سكان مصر من الصرف الصحي الحقيقي واعتماد ٤٠ مليونًا على صرف تقليدي كما في القرى والنجوع والمناطق الشعبية و١٢ مليون مواطن يعيشون بلا مراحيض منزلية، وأن في مصر ٤٥٠٠ قرية منها ٣٧٠ بها مبادئ صرف صحي ممول من جهات أجنبية»[١].

مع «أن الدولة مسئولة عن توفير الخدمات والمقومات الحيوية التي تهيئ جودة رأس المال البشري ـ وهو الرأس مال الحقيقي للمجتمع ـ : التغذية الأساسية، والخدمات الصحية ، والمعلومات والمقومات للصحة الإنجابية السليمة، وخدمات الصرف الصحي لا تصل إلّا إلى ٥٠٪ فقط» [٢].

وما يقال عن خدمات الصرف الصحى يقال عن خدمات العلاج، ولنا أن نقارن بين المستشفيات العامة وبين العيادات الخاصة التي لا يقدر على كلفة العلاج بها إلا الأغنياء.

وانظر إلى معاملة المرضى هنا ومعاملتهم هناك، الأمر الذي جعل الأصوات ترتفع بمطالبة الدولة بتعديل قانون العلاج على نفقتها، وأن تعقد جلسة ساخنة في مجلس الشعب لمناقشة قرارات العلاج وينشر تفاصيل ذلك في الجرائد الرسمية، ففي أخبار اليوم تأييد بالإجماع في مجلس الشعب للتحري عن قرارات العلاج على نفقة الدولة[٣].

---

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة والتاريخ والناشر.

(٢) مصر المحروسة من تانى صـ٢١٥ بتصرف مرجع سابق.

(٣) صحيفة الأخبار يوم ٢٨/ ٢/ ٢٠١٠م الصفحة (٥)، العدد (١٨٠٥٥)، نقل وتابع المناقشات كل من/ محمد عبد الحافظ، وأحمد عبد الحفيظ، وأحمد أبو زيد.

لقد أثبت الأطباء أن الهموم المعيشية وسوء التغذية توهن الجسد والعقل، وتأتي بالأمراض الخطيرة كالأنيميا وضعف جهاز المناعة وهشاشة العظام عند الحوامل بسبب نقص الكالسيوم، وتأخر النمو الطبيعي للأطفال وشحوب واصفرار في الوجه وأمراض أخرى ليس هنا مجال عدها[١].

والإنسان ليس ملكًا يستمد طاقته وقوته من ذكر الله فقط بل هو إنسان يتكون من جسد وروح، ولكل منهما غذاء ودواء لابدّ منهما معًا، وبنسبة كافية، وإلّا أصيب الإنسان بالمرض وأثر ذلك على صحته ومظهره وعلاقته بمن حوله في مجتمعه الذي يعيش فيه.

يقول رسول الله ﷺ «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »[٢]، ولا يحب أن يرى أثر الفقر والفاقة سيما وقد ملأ الله البلاد بكثير من الخيرات، والإسلام يعلم أن الإنسان له احتياجات لابدّ منها، وإلا انعكس ذلك سلبًا على سلوكه ومظهره، وعلى صحته وعقله وعلى دينه وخلقه.

كيف يعيش المرء بدون علاج وبدون مياه صالحة للشرب وبدون مأوى يليق بآدميته؟

ثانيًا: مجالات التعليم والمواصلات:

وما يقال عن المستشفيات العامة يقال: أيضًا عن المدارس العامة، والواقع الميداني يؤكد ضعف أداء هذه المؤسسات وافتقارها للكفاءات، والمعدات، والوسائل التعليمية اللازمة، والمواصلات، وما ينشر حول ذلك يطول ذكره وحصره، وعلى سبيل المثال: انظر إلى المواصلات العامة وإلى حال ازدحام الناس حولها، وإلى ما يحدث بداخلها حيث لا رحمة لصغير ولا وقار لكبير ولا حرمة لامرأة إلا في القليل النادر، ناهيك بالحوادث التي تنجم عن ذلك الازدحام، كل ذلك بسبب سوء الخدمات وانهيار البنية الأساسية في المجتمع بشقيها المادي، والأخلاقي.

---

(١) انظر كتاب أمراض الفقر صـ٤٣ وما بعدها ، مرجع سابق.

(٢) رواه الترمذي عن ابن مسعود الجامع الصحيح ج ٥ صـ ١٢٣، ط دار النشر ودار إحياء التراث العربى بيروت برقم (٢٨١٩) وقال حديث حسن، وانظر كتاب صحيح وضعيف الجامع الصغير للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، ط دار النشر المكتب الإسلامي برقم (١٧١١) وقال حديث حسن صحيح.

تلاميذ معهد أزهري بسيناء يتلقون دروسهم داخل مخزن سلع تموينية .. ومسئول: «لا توجد ميزانية لإنشاء معهد».

جنوب سيناء ـ أيمن أبو زيد:

يتلقى أكثر من ٢٠٠ تلميذ بالمرحلتين الابتدائية والإعدادية بمعهد الجيل الأزهري بطور سيناء دروسهم داخل مخزن للسلع التموينية أشبه بسجن إذ لا تزيد مساحته على ٥٠ مترًا، ومساحات الفصل الدراسي ٦ أمتار فقط، ويفتقد التهوية الصحية ولا يوجد ملعب أو حوش صغير أو حجرات أنشطة، أو حتى دورات مياه سواء للمدرسين أو التلاميذ، كما يقضي التلاميذ الفسحة في الشوارع الجانبية، للمعهد مما يعرضهم للخطر والحوادث، كما يعرضهم ضيق الفصول للأمراض المعدية.

من جانبه، قال الشيخ أحمد عابدين، مدير منطقة الأزهر بجنوب سيناء، إنه تقرر تقسيم تلاميذ معهد الجيل الأزهري على فترتين لحل مشكلة ضيق المكان وكثافة التلاميذ الكبيرة، مشيرًا إلى أن المكان مستأجر من المحافظة، وأوضح أنه لا توجد ميزانية لإنشاء معهد أزهري رغم أن الأرض مخصصة منذ سنوات طويلة وتم إنشاء سور حولها[1].

وعن الطريق انظر إلى فوضى الشوارع؛ لا نظام ولا انضباط ولا التزام بقواعد المرور ولا احترام لدين أو عرف أو قانون ... تحولت الشوارع إلى ما يشبه العشوائية، الباعة الجائلون والقابعون على الأرصفة وقد احتلوها وترى وتسمع ما لا يسر من مفردات الكلمات الهابطة والألفاظ النابية.

وخلاصة هذا الفصل:

أن مظاهر الفقر في المجتمع المصري كثيرة جدًّا ومتنوعة، وأنها بادية وظاهرة للعيان، في الشوارع والميادين العامة والمدارس والمواصلات والمنازل العشوائية وقلة مستوى الدخل والعلم والخلق والصحة العامة، وأن الأحداث اليومية وما ينشر عن الحوادث يؤكد ذلك.

---

(١) صحيفة المصري اليوم الصفحة (٥)، العدد (١٩٥١) بتاريخ ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٩م.

الفصل الثالث

أسباب الفقر في المجتمع المصري.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأسباب الخارجية:

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: رغبة الدول الكبرى في إبقاء مصر دولة فقيرة من أجل الضغط عليها.

المطلب الثاني: الاتفاقيات الاقتصادية الغير متكافئة.

المطلب الثالث: تصدير التكنولوجيا الاستهلاكية لنا، وتسهيل حصولنا عليها.

المطلب الرابع: الإعانات المشروطة والتي تصب في خدمة المانح لها.

المبحث الثاني: الأسبــاب الداخليــة:

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: عدم دراسة المشكلة بالقدر الكافي.

المطلب الثاني: الاعتماد شبه التام على الاستيراد لسد حاجات المجتمع.

المطلب الثالث: وجود العقبات أمام المشاريع الإنتاجية.

المطلب الرابع: عدم مراعاة العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل.

المطلب الخامس: الانشغال عن الانتاج بوسائل غير جادة ونافعة.

المطلب السادس: الإسراف والتبذير.

المطلب السابع: الفساد المالي والإداري وغياب الرقابة الرادعة.

المبحث الأول

الأسباب الخارجية:

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: رغبة الدول الكبرى فى إبقاء مصر دولة فقيرة.

المطلب الثاني: الاتفاقيات الاقتصادية الغير متكافئة.

المطلب الثالث: تصدير التكنولوجيا الاستهلاكية لنا، وتسهيل حصولنا عليها.

المطلب الرابع: الإعانات المشروطة والتى تصب في خدمة المانح لها .

المطلب الأول: رغبة الدول الكبرى فى إبقاء مصر دولة فقيرة:

استخدم الاستعمار بجانب الغزو العسكري لبلاد المسلمين الغزو الفكري، وتنوع هذا الغزو وتعددت وسائله، وإن كان الهدف واحدًا وهو السيطرة على بلاد العالم الإسلامي ونهب ثرواته والحيلوله دون قيام نهضة حتى يبقى ضعيفًا تابعًا محتاجًا له على الدوام، «وقد تركزت أهداف هذا الغزو أخيرًا في خلق التخاذل الروحي وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية»[١]، ومعلوم أن مصر هي من أوائل الدول الإسلاميه ـ إن لم تكن أول الدول ـ التي يعمل لها ألف حساب، لاسيما الدول الكبرى التي تعرف جيدًا تاريخ مصر ورغبة المخلصين من أبنائها في النهوض بها لتتبوء مكانتها التي كانت عليها[٢].

وإليك بعضًا من الأدلة لتأكيد هذه الحقيقة:

١ـ إضعاف المعنويات وبث روح الهزيمة وإشاعة الخيالات والغرائب عن قدرة المحتل التي هي أشبه بالمعجزات والتي لا تقاوم أو تضاها.... إلخ.

يقول الأمير شكيب أرسلان: «من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل الثقه بأنفسهم، كيف يرجو الشفاء عليل يعتقد ـ بحق أو بباطل ـ أن علته قاتله، أصبح المسلمون في الأعصر الأخيرة يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والأوربي إلا وينتهي بمصرع المسلم ولو طال كفاحه، وقر ذلك في نفوسهم و تخمر في رءوسهم،لاسيما الطبقة التي تزعم أنها الطبقة المفكرة، مازالت تنفخ في بوق التثبيط وتبث في سواد الأمة دعاية العجز، بل زعمت أن مجاراة الفرنجة في علم أو صناعة أو زراعة أو حرب هو ضرب من المحال، و كان الفرنجة من طينة والمسلمين من طينة أخرى، وقد أحسن الأوربيون بما عند المسلمين من هذه الحالة التي توافق أهدافهم فصاروا يروجونها فيهم»[٣].

---

(١) الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي صـ٤٣٠، وكذلك كتاب ثقوب في الضمير صـ ٧٦، مرجع سابق، وكتاب الحقيقة والوهم في الواقع المصري صـ٤٥، ومابعدها، د/ رشدي سعيد، ط دار الهلال سنة ٢٠٠٢م.

(٢) انظر كتاب مصر والدائرة المتوسطية الواقع والمستقبل حتى عام ٢٠٢٠/ د.سمعان بطرس فرج الله، أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة، صـ٢٨ وما بعدها، ط دار الشروق ٢٠٠٢.

(٣) لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم صـ١٤٢:١٤١ بتصرف، مرجع سابق.

والغزو الفكري المنظم والممول إذا طال مكثه في البلاد لاشك أنه مؤثر على العزائم والإرادات ويبعث على الخمول والكسل وهذا كله قد وقع في مصر.

والحق أن هذه الروح الانهزامية هي سبب في كثير من المشاكل الاقتصادية والإنتاجية، ترى معظم المشاريع الكبرى بدءًا من السد العالي والصناعات الحربية، وانتهاءً بمترو الأنفاق قامت ولازالت تسير وتدار بمعرفة الخواجات ـ من قريب أو بعيد ـ وقل مثل ذلك في أشياء كثيرة كالطاقة الذرية التي لاتزال مصر لا تساوي إيران أو حتى إسرائيل التي ولدت عام ١٩٤٨م، وربما تساق المبررات والحجج، لكن الذي لا أجد له مبررًا هو ما يتعلق بمقومات الحياة كالزراعة والدواء، والسلاح مع القدرة على ذلك.

وكما قال القائل:

ولم أرَ في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام [1]

٢ ـ تعطيل المشاريع القومية الكبرى

إما بإجهاضها في مهدها، وإما بعرقلة نموها وإضعاف عطائها، وإما بتقنينها وفرض الوصاية عليها.

يسأل الدكتور علي السلمي ويقول: لماذا تجمد المشروع القومي لتنمية سيناء ؟

وقد كتب جمال حمدان في كتابه سيناء من الاستراتيجية والسياسة والجغرافيا: «إن سيناء ليست مجرد صندوق من الرمال، إنما هي صندوق من الذهب مجازًا كما هي حقيقة، استراتيجيًا كما هي اقتصاديًا لقد تحررت سيناء سنة١٩٧٣م.

وعادت طابا سنة ١٩٨٢م،كما قامت وزارة التعمير بوضع خطة لتعمير سيناء تشمل عمل امتداد لترعة الإسماعيلية يتحقق عنه زراعة ٤٠٠ ألف فدان واستقطاب ثلاثة ملايين مصري للحياة في سيناء بحلول عام ٢٠١٧م ولكن ها نحن بعد أربعة عشر عامًا ونراه وقد تباطأ تنفيذه بشكل ملحوظ»[2].

---

(١) ديوان المتنبى (١/ ١٦٣) دارالمعرفة بيروت، تحقيق/ مصطفي السقا وآخرون .

(٢) د/ على السلمي/ كتاب مصر المحروسة صـ٣٩٦ بتصرف، مرجع سابق.

وقل مثل ذلك في مشاريع كثيرة قامت ونهضت ثم هوت وتلاشت أو ضعفت وما عادت تعطي بالقدر المرجو منها، كـمشروع توشكى، وشرق العوينات.

يقول علماء التاريخ: «في أوائل القرن التاسع عشر وبروز قوة محمد علي باشا في مصر، حدث رد فعل عنيف بين انجلترا وفرنسا وروسيا في مؤتمر لندن لضرب القوات المصرية التي كانت تمثل طليعة القوة العربية، والمعبرة عن قوة مصر التي بدأت تتحول من كيان قطري إلى كيان قومي مع الشام والحجاز وغيرهما»(١).

والأدلة على تورط هذه الدول الكبرى في المؤامرة على مصر أكثر من أن تحصى، وليس آخرها إسقاط الطائرة التي تقل عشرات العلماء والعسكريين في المحيط ولا تدخل صندوق النقد الدولي ولا الخصخصة، ولا التلويح بالعقوبات وزرع الفتن والكلام في مثل ذلك يطول(٢).

***

(١) حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، الدكتور السعيد رزق فرج/أستاذ قسم التاريخ جامعة الأزهر، والدكتور محمد المنسي عاصي/ أستاذ قسم التاريخ جامعة الأزهر، صـ٢٨ مكتبة وصفي سنة ١٤٠٨: ١٩٨٧م.

(٢) انظر ثقوب في الضمير صـ٦٨، مرجع سابق، وكتاب حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة صـ٣٠، ٣١ مرجع سابق.

المطلب الثاني: الاتفاقيات الاقتصادية غير المتكافئة:

الاستعمار الغربي ماض في مخططاته على قدم وساق، لا يَكل ولا يَمل، يسن القوانين التي يريدها، ويطبقها على مَن يحب، وله من التأثير على المنظمات الدولية كمجلس الأمن، ومنظمة الأمم المتحدة وغيرها من الهيئات التي تعمل لصالح الدول الكبرى.

ناهيك بما يسمى بـ«حق الفيتو» وامتلاك وسائل الضغط المادية والمعنوية وأخيرًا النظام العالمي الجديد «العولمة»[(١)].

يقول الدكتور كمال مصطفى تحت عنوان اتفاق الأقوياء: «ورغم تصارع النظامين نظام سيطرة رأس المال على الحكم، ونظام سيطرة الحكم على رأس المال و رغم اختلافهما إلا أنهما يتفقان في مواجهة إخراج دول العالم الثالث من حالة التخلف والمعاناة في حدود تجعل الضعيف ضعيفًا وتبقي القوي قويًا، يعرف اللصوص كل شيء عن بلادنا ومقدرتنا.

عن الشركات عابرة القارات غول قادم من الغرب يلبس رداء الحمل، أفلا يستيقظ المسلمون للاستفادة بما في أيدي خصومهم من تقدم مادي ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[سورة محمد: ٢٤]، أليس في هذا القرآن: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [سورة المائدة: ٢].

لكن يبدو أن الصغار لا يفهمون البر والتقوى إلا في حدود الصدقات والحسنات التي تعطى للشحاذين»[(٢)]، كما تم نقل شركات مصر للتجارة الخارجية، ومصر للاستيراد والتصدير، ومصر لتجارة السيارات، والنصر للتصدير والاستيراد، والتجارة للأخشاب، إلى الشركة القابضة للنقل البحري والبري، ومرة أخرى ما علاقة شركة النقل البحري والبري بشركات التجارة الخارجية؟ اللهم إلا كونها تستخدم سفنها في نقل البضائع المستوردة»[(٣)].

إن تعاليم صندوق النقد الدولي والاتفاقيات الاقتصادية بين مصر والدول الكبرى جعلت كثيرًا من المراقبين و المتخصصين يقلق من الوضع الذى وصلت إليه مصر[(٤)].

---

(١) انظر كتاب ماذا أعدت مصر لنفسها صـ ٢٥ ومابعدها،طـ دار الاعتصام سنة ١٩٩٦م،د/ عبد الصبور شاهين، إعداد عبد الله المهدي، وكتاب الاستقلال الحضاري د/ محمد عمارة صـ٩ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) كتاب منهج الإسلام في علاج حاضر المسلمين صـ١٩وما بعدها، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧من د/ كمال مصطفي محمد ـ رحمه الله ـ المدرس السابق بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة.

(٣) مصر المحروسة من تانى صـ٦٨: ٦٩ مرجع سابق.

(٤) انظر كتاب مصر والدائرة المتوسطية الواقع والمستقبل، صـ٢٨ وما بعدها،مرجع سابق.

أنت الآن ترى المنتجات الصينية وقد غزت الأسواق المصرية وهجمت على الناس فى عقر دارهم، فأبناء وبنات الصين يجوبون الشوارع والميادين، ويذهبون إلى القرى والنجوع، ويدخلون البيوت، ويبيعون بأسعار تغري الكثيرين من المصريين، وقُل مثل ذلك في اتفاقيات كثيرة والنتيجة إضعاف مصر واقتصادها للهيمنة عليها.

إن « فى الواقع المصري الحزين، يشهد المصريون تصاعد التحديات الخارجية وتضائل الدور المصري في مواجهة القوى الإسرائيلية المتزايده، والسيطرة في المنطقة بالكامل مع السياسة الأمريكية الساعية إلى تأكيد السيطرة على ثروات ومقدرات المنطقة، كما يشهدون مصر المحروسة تستجدي الشقيقات العربيات وتحصل على مليون طن قمح منحة من رئيس دولة الإمارات !!!»[١].

ولعل من أكبر الأدلة على ذلك، عجز مصر عن منع الغزاة المعتدين من عبور قناة السويس أثناء حربهم على العراق، مع أنها أعلنت عن رفضها للحرب ونددت به ولم تشارك فيه، إلا أن هناك اتفاقيات، وكذلك الحال مع إسرائيل وتصدير الغاز المصري لها وحصار غزة، وتدخل الدول الكبرى في سياسة مصر وخصوصًا أمريكا[٢].

«حيث بدأ الأمر وكأن الولايات المتحدة تخطط بشكل قصدي لعزل مصر عن العالم العربي وعن مشاكله، مثل الحرب الأهلية في لبنان، وحرب العراق وإيران، ... كذلك ارتبطت الولايات المتحدة بالانهيار الاقتصادي المستمر والمتزايد في مصر»[٣].

إن ما حدث لمصر عام ١٩٤٨م، وعام ١٩٦٨م وضعف التعاون العربي ـ لاسيما التعاون العسكري والمادي ـ جعل مصر تعمل ألف حساب وحساب للاتفاقيات الدولية التي وقعت عليها، خصوصًا ما يتعلق بالسياسة الخارجية والإنتاج المحلي[٤].

---

(١) مصر المحروسة من تانى صـ٤١ مرجع سابق.

(٢) كتاب مصر المحروسة صـ٤١٧، وما بعدها، وصـ٤٤٧ مرجع سابق، وكتاب رسالتي إلى الأمة د/ زغلول النجار، أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية صـ٤٩٨ إلى ٥٠٠، ط نهضة مصر سنة ٢٠٠٩م الطبعة الأولى، وصحيفة المصري اليوم صـ٩ بتاريخ ١٦/ ٥/ ٢٠١٠، تحت عنوان: وزير البترول: تصدير الغاز لإسرائيل تمّ بناءً على معاهدة كامب ديفيد، وهذا الذي ذكره الوزير غير صحيح يقول الدكتور/ جلال أمين في كتاب مصر والمصريون في عهد مبارك، ط دار الشروق سنة ٢٠١١م صـ ٤٥: (.... ففى عام ١٩٩٩م تم تأسيس شركة شرق المتوسط للغاز بالمشاركة مع رجل أعمال إسرائيلى، واتفقت تلك الشركة مع غسرائيل على تصدير ١٢٠ مليار متر مكعب غازاً طبيعياً لإسرائيل).

(٣) ثقوب في الضمير صـ٦٨ مرجع سابق.

(٤) للمزيد انظر كتاب الإصلاح الاقتصادي في مصر صـ٢٠،٢١، د/ منى قاسم مدير مركز البحوث الاقتصادية ط =

المطلب الثالث: تصدير التكنولوجيا الاستهلاكية لنا، وتسهيل حصولنا عليها:

الإنسان لا يستغني عن الطعام والشراب والدواء والسكن ..... وقد يستغني عن الترفيه والكماليات والمتع الزائدة عن الحاجة الضرورية، لذا يجب الاهتمام أولًا بما يسمى (بالأساسيات أو الأمن الغذائي)، وجعل ذلك على رأس الأولويات التي تسعى الأمة في إصلاحها، ثم إذا ما استغنت الأمة بإنتاجها لهذه المواد الضرورية، وحصلت على الاكتفاء الذاتي جاز لها أن تفكر في الكماليات والترفيه ـ ومع الأسف ـ لا يراعى هذا الأمر منذ خمسين سنة، مما أدى إلى تفاقم مشكلة الفقر والجوع، والدول الغربية تعلم أن مصر قابلة للاستثمار، وأن أبناءها جادين في تنمية بلادهم ـ لو أتيحت لهم الفرصة لذلك ـ لذا فهي تستثمر في مصر ما هو خاضع للاستهلاك اليومي ولا يخدم عملية التنمية، وإليك هذا المثال:

«بروكتر أند جامبل» تضخ ١٨ مليار جنيه في السوق المحلية..

محمد سلطان: مليار جنيه لمصنع جديد للحفاضات والمبالغ الأخرى لتوسيع نشاط المنظفات.

قررت مجموعة «بروكتر أند جامبل ـ مصر» ضخ نحو ١٨ مليار جنيه في السوق المحلية خلال السنوات العشر المقبلة، منها مليار جنيه لإقامة مصنع جديد للحفاظات في العام ٢٠١٢.

وقال محمد سلطان: مدير المجموعة في مصر والشرق الأدنى في تصريح خاص لـ «المصري اليوم»: إن المصنع سيقام في مدينة السادس من أكتوبر على مساحة ٢٥٠ ألف متر مربع، مشيرًا إلى أنه سيتم ضخ ٨٠٠ مليون أخرى في تطوير وتوسعة مصنع المجموعة القائم حاليًا والمتخصص في المنظفات بشكل رئيس.

وتقدر استثمارات الشركة العالمية في مصر حاليًا بنحو١٨ مليار جنيه خلال مصنعها في السادس من أكتوبر.

كانت الشركة الأم قد أغلقت مصانعها في كينيا ولبنان واليمن لضعف الجدوى الاقتصادية، إلا إنها ما زالت تعتبر مصر مناخًا مشجعًا على الاستثمار.

وأشار سلطان إلى أن المجموعة الأم، قررت ضخ هذه الاستثمارات في السوق المحلية بالنظر إلى الموقع الجغرافي وانخفاض التكلفة، وارتفاع نمو الطلب المحلي على حفاظات الأطفال[1].

= الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٩٨م، والاستقلال الحضاري صـ١٤٧، ١٤٨ مرجع سابق، وانظر كتاب ماذا حدث للمصريين صـ٦٨ وما بعدها، ط دار الشروق سنة ٢٠٠٩م، د/ جلال أمين.

(١) صحيفة المصري اليوم صـ٩، يوم ١٦/ ٥ / ٢٠١٠م.

يقول الدكتور جلال أمين تحت عنوان مصر و حضارة السوق منذ نحو خمسين عامًا كتب الأستاذ كاربولاني المؤرخ الاقتصادي و أستاذ علم الاجتماع الشهير كتابًا مهمًّا ذاع صيته / عنوانه «الانقلاب الكبير» وكان يقصد بالانقلاب تحولًا معينًا حدث في أوروبا هذا الانقلاب هو (نظام السوق) يقوم هذا النظام على تكثير وبيع جميع الأشياء مقابل كميات من النقود، هذا النظام يتسارع معدل انتشاره كانتشار النار في الهشيم، ففي كل يوم يبتدع نظام السوق منتجًا أو خدمة جديدة لم تكن من قبل تخضع للبيع والشراء بحيث تزيد تكلفتها كلما زاد الاستهلاك منها كخدمة الاتصال التليفوني، هذا الحل العبقري الذي تفتق عنه ذهن المنتجين، والبائعين الباحثين عن أقصى ربح.

أحد الأمثلة الصارخة لذلك ما حدث من تحويل الحاجة إلى مياه الشرب إلى الحاجة إلى المشروبات الغازية حتى يستقر في الذهن أن هذه المياه الغازية هي الطريقة لري الظمأ فيتذكرها المرء بمجرد الشعور بالعطش بدلًا من أن يتذكر الماء الطبيعي وقل مثل ذلك في بنطلونات الجينز، والموضه وذلك لاصطياد المستهلك وإجباره على الشراء»[1].

ومعلوم أن شركات الكوكاكولا، ولعب الأطفال، والمأكولات السريعة، ودور الأزياء العالمية، والمحمول والمجلات الهابطة وغيرها جاء لنا من الخارج، ناهيك عن التفنن في اصطياد الشباب بالإدمان وتوفير أنواع و أنواع من المخدرات وتيسير الحصول عليها في حين أن السلع الخدمية المهمة لا تصدر إلينا إلا بأضعاف سعرها الحقيقي، ناهيك عن دور الإعلام في الترويج لهذه السلع الاستهلاكية.

والحقيقة «أنه احتلت قيمة التسلية والابتياع المرتبة الأولى يليها الحاجة للطعام والشراب، ثم التملك والنظافة، ويعتبر الاهتمام بهذه القيم دليلًا على أن الرسالة الإعلامية، تسعى إلى تشجيع سلوكيات وقيم غير مطلوبة، باعتبار أنها قيم استهلاكية، وإسراف فيما يضر بالمجتمع»[2].

ويكفي أن تقارن بين سعر آلة تصوير حديثة وسعر تلفزيون حديث، وبين ثمن وسائل اللهو وأدوات الطرب والمجلات الهابطة، وبين ثمن وسائل الإنتاج والكتاب المفيد سترى الفرق واضحًا.

---

(١) ماذا حدث للمصريين صـ١٧٨ـ ١٧٩ مرجع سابق.

(٢) د/ محمود عبد العاطي مسلم: القيم التي تعكسها الإعلانات في التلفزيون المصري، صـ ١٩٧، ط مركز صالح كامل (مؤتمر القيم) الفترة ٨/ ١٢/ ١٩٩٩، وحتى، ٦/ ١/ ٢٠٠٠.

المطلب الرابع: الإعانات المشروطة والتي تصب في خدمة المانح:

تحت عنوان: ليس بالدعم وحده يحيا المصريون كتب الدكتور علي السلمي يقول: «لقد بلغ حجم المعونات الاقتصادية التي تتلقاها مصر من هيئة المعونة الأمريكية فقط خلال الفترة من ١٩٧٥م حتى ٢٠٠٧ ما يزيد عن ٢٥ مليار دولار أمريكي بخلاف ١٣ مليار دولارًا سنويًّا معونة عسكرية.

والسؤال الذي يطرح نفسه: أين ذهبت تلك المليارات؟ وماذا حققت للمواطن المصري؟ في مقال نشرته مجلة (كريستيال ساينس مونيتور) بتاريخ ١٢ من أبريل ٢٠٠٤م كتب» تشارلز ليفنسون «يقول: إن الأموال التي تقدمها المعونة الأمريكية لمصر ينظر إليها على أنها مساعدة على تحقيق الاستقرار، ودعم سياسات الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة، وتمكين المرور الأمريكي عبر قناة السويس، واستمرار السلام مع إسرائيل.

ثم يقول الكاتب: «إن المعونة توفر سبيلًا سهلًا لمصر كي تتفادى الإصلاح وأنهم - أي المصريين - يستخدمون أموال المعونة لدعم برامج متقادمة ولمقاومة الإصلاح»، ويواصل الكاتب نقل كلمات السفير الأمريكي فيقول: «إنه بدلًا من أن تكون المعونة سبيلًا للمساعدة فهي تحبط الرغبة في الإصلاح»[1].

فالمعونات تتدفق على مصر ليس من أمريكا فقط، بل ومن غيرها ومع ذلك لم نرَ مشروعًا كبيرًا مثمرًا يستوعب العاطلين عن العمل، ويعود على مصر وأبنائها بالخير.

ثم يقول: «الفقر المرّ وضروراته وما يترتب عليه من الالتجاء إلى طلب المنح والمساعدات من الخارج، وما يمثله من ذلك من إهدار للكرامة الوطنية وتأثير على حرية القرار الوطني، فإلى جانب أمريكا أكبر مانح للمساعدات لمصر.

تحصل حكومتنا على مساعدات من ألمانيا، وكندا، وفرنسا وإيطاليا، والنمسا، وهولندا، وأسبانيا، وفرلندا، والدنمارك، وسويسرا، وصندوق النقد الدولي، والاتحاد الأوربي وبرنامج الأمم المتحدة اليونيسيف وبرنامج الغذاء العالمي وغيرهم»[2].

---

(١) مصر المحروسة صـ ٢٣٠ ـ ٢٣١، مرجع سابق، نقلًا عن (إدوارد والكر) السفير الأمريكي في مصر من ١٩٩٤ حتى ١٩٩٨م.

(٢) مصر المحروسة صـ٢١٩، مرجع سابق.

والحقيقة «أن هذه الأموال التي تدفقت على مصر (المعونات الأجنبية)، كانت ضعيفة الصلة جدًّا ببذل جهد حقيقي في الإنتاج، وهذا واضح لا يحتاج إلى دليل، بل لعل العلاقة بينها وبين الإنتاج، علاقة عكسية» [(١)]؛ لأنها كانت بمثابة الإسعافات السريعة والمخدرة أو المنومة للشعب لا هو يستفيد من هذه الإعانات في بناء المستقبل إيمانًا بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة التوبة آية: ١٠٥]، ولا هو آخذ بالمثَل الصيني الذي يقول: «لا تعطني سمكة أسُدُّ بها رمقي ولكن أعطني شبكة وعلمني كيف أصطاد»[(٢)].

«ارتبطت الولايات المتحدة بالانهيار الاقتصادي المستمر والمتزايد فى مصر والذى انعكس في تقديم مساعدات اقتصادية لايتم بها دعم أي تنمية اقتصادية حقيقية في مجال الصناعة والزراعة، وأصبح في مصر سوق للمنتجات الأمريكية جاهزة الإنتاج مما أدى إلى مزيد من الضعف الاقتصادي والسياسي لمصر»[(٣)].

وهذا يؤكد أن هؤلاء القوم لا يعطون مصر هذه الإعانة لوجه الله الكريم، إنهم يعطون هذه الإعانات بحسابات دقيقة ولأهداف باتت معروفة لا ينكرها إلا مكابر وإن أعطوا بيد أخذوا بالأخرى أضعاف ما أعطوا.

إن هذه الإعانات يحدد مسارها سلفًا ومعظمها ينفق ـ وفق شروط محددة ـ كوسائل منع الحمل في حدود تضمن بقاء التفوق لإسرائيل وبقاء الفقر والحاجة والتبعية والانقياد للدول المانحة[(٤)].

الخلاصة:

١ ـ أن الدول الكبرى (المهيمنة على السياسة والاقتصاد) ماضية في مخططاتها على قدم وساق تهدف إلى إضعاف الدول النامية ومنها مصر.

٢ ـ تتخذ هذه الدول وسائل خطيرة للوصول إلى ما تصبوا إليه، لتصبح الدول الفقيرة سوقًا استهلاكية، فتعتمد على الاستيراد والاعانات، ولا تفكر في الإنتاج أوالعمل.

وهذا من أخطر أسباب الفقر.

---

(١) ماذا حدث للمصريين صـ ٥٩، مرجع سابق.

(٢) انظر صـ٣٢٩ منهج الإسلام في علاج حاضر المسلمين، د/ كمال مصطفى، مرجع سابق.

(٣) ثقوب في الضمير صـ ٦٧: ٦٨ مرجع سابق.

(٤) انظر كتاب مصر المحروسة صـ ٢٣٠ وما بعدها، وصـ٤١٤، مرجع سابق.

الـمـبـحـث الـثاني

المبحث الثالث: الأسبـــاب الداخليـــة:

وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول: عدم دراسة المشكلة بالقدر الكافى.

المطلب الثاني: الاعتماد شبه التام على الاستيراد .

المطلب الثالث: وجود العقبات أمام المشاريع الإنتاجية.

المطلب الرابع: عدم مراعاة العدالة فى توزيع الثروات وفرص العمل.

المطلب الخامس: الانشعال عن الإنتاج بوسائل غير جادة ونافعة.

المطلب السادس: الإسراف، والتبذير.

المطلب السابع: الفساد المالي، والإداري وغياب الرقابة الرادعة.

المطلب الأول: عدم دراسة المشكلة بالقدر الكافي:

ظهرت مشكلة الفقر في مصر ـ على الراجح ـ في منتصف القرن الماضي سنة ١٩٥٠م، عندما هيئت الدولة المصرية الاقتصاد المصري للاندماج في الاقتصاد العالمي، منذ هذا الحين والفقر يسلك طريقه إلى الأمة المصرية، ومع أنه ظل موجودًا وظاهرًا في الخمسينيات والستينات والسبعينات؛ إلا أنه لم يصل إلى حد المشكلة إلا في العشرين سنة الأخيرة منذ ١٩٩٠م وإلى الآن «بمجرد أن تراجع دور الدولة المصرية عن إدارة الاقتصاد عندما انصاعت للطغوط الأنجلو غربية وقبلت معاهدة لندن، بدأ رأس المال الأجنبي في التدفق على مصر والقيام بالدور الذي كانت تقوم به الدولة في إدارة الاقتصاد وتوجيهه في غياب البديل الوطني، وقد قدمت الامتيازات الأجنبية والنظام القضائي القنصلي، ثم المحاكم المختلطة والمظلّة القانونية التي تحمي رأس المال الأجنبي في السوق المصري، ولهذا نجح رأس المال الأجنبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في نصب شباك التبعية حول مصر»[١].

وهذا بالطبع أدى إلى ضعف الإنتاج، وانخفاض المشاريع اللازمة لتغذية سوق العمل بما يناسب ظروف مصر.

تقول الدكتورة منى قاسم: «أما بالنسبة لمصر فإن سكانها يدرجون في جداول البنك الدولي ضمن فئة الدول المنخفضة الدخل (متوسط دخل الفرد السنوي ٦٦دولارًا)، مما يعني ضعف القدرة الشرائية داخل المجتمع وضعف فرص اتساع السوق المصرية، وقدرته على استيعاب منتجاته، وما يحصل عليه السكان من داخل مصر يكاد يكفيهم بالكاد تكاليف المعيشة الأساسية (الطعام ، والشراب ، والسكن ، وتعليم الأولاد في المدارس الحكومية)، فضعف القدرة الشرائية داخل المجتمع المصري سيضعف الفرصة أمام اتساع السوق وأمام الصناعات الجديدة، وبالتالي انخفاض تكاليف الإنتاج وتحقيق الربحية»[٢].

---

(١) كتاب المجتمع المصري صـ٢٧٣، ٢٧٤، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب جامعة القاهرة، مراجعة أ.د/ محمد حمدي إبراهيم سنة ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥م، طبعة خاصة بالكلية، بتصرف.

(٢) الإصلاح الاقتصادي في مصر صـ٢٠، مرجع سابق.

وهذا يدل على عدم دراسة المشكلة بالقدر الكافى لمعرفة أبعادها، وخطورتها، وكيفية التصدى لها؛ لأننا «نرى أن الحكومة ليس لديها استراتيجية واضحة للتعامل مع مشكلة الفقر، ولا تتوجه بعناية خاصة للتحقيق من حدته سوى من خلال دعم السلع التي تحاول الان التخلص منها، وابتداع أساليب مختلفة لتخفيف ما تخصصه لهذا البند، وقد كان إنشاء الصندوق الاجتماعي للتنمية في عام ١٩٩١م يهدف إلى المساعدة في تخفيف الفقر، ولكن يبدو أن شيئًا ذا بال قد تحقق في هذا الصدد، فضلًا عن ذلك فلا يوجد في الحكومة الآن جهة واحدة مهمتها تنسيق كافة البرامج و الأنشطة الموجهة للتعامل مع قضية الفقر»[1].

والعجيب أن كثيرًا من المسئولين يقيسون نسبة الفقر بامتلاك الثلاجات والتليفونات «فى مصر مركز أبحاث، يتبع مجلس الوزراء، اسمه (مركز المعلومات ودعم القرار) فى أبريل٢٠٠٦م، أدلى رئيس هذا المركز بتصريح نفى فيه بشدة أن الفقراء يزدادون فقرًا فى مصر، والدليل الذى اعتبره قاطعاً على ذلك، أن امتلاك الثلاجات فى مصر زاد من ٥٦٪ (من مجموع الأسر المصرية) إلى ٨٦٪ فى العشر سنوات من١٩٩٥:٢٠٠٠م، وقال: إن نفس الشئ ينطبق على التليفونات»[2].

وهناك دراسة قام بها الأستاذ أحمد توفيق في تحقيق أجراه مع بعض المسئولين وبعض علماء الاقتصاد في صحيفة الجمهورية عن أسباب الفقر، وعدد الفقراء، وطرق حل المشكلة:

يقول: ١٤ مليون فقير .. أربعة ملايين منهم لا يجدون قوت يومهم.

مكافحة الفقر.. قضية عاجلة.

الخبراء: نحتاج إلى خريطة للفقراء.. ودعم المشروعات الصغيرة هو الحل.

٥٥٪ هي نسبة الفقر في مصر بعد ما كانت لا تتعدى في أسوأ الأحوال من قبل أكثر من ٤١٪ ومن المتوقع ازدياد عدد الفقراء بشكل أكبر في الفترة القادمة في الوقت الذي انتهى تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية في وقت سابق إلى أن هناك ١٤ مليون مصري تحت خط الفقر، منهم ٤ ملايين لا يجدون قوت يومهم ..!!

(١) مصر المحروسة صـ ٢٢٤، ٢٢٥ بتصرف، مرجع سابق.

(٢) د/ جلال أمين، كتاب مصر والمصريون في عهد مبارك،صـ ١٢٥، مرجع سابق.

ما أكده التقريران الأخيران دفع نائبًا بمجلس الشعب إلى التقدم باستجواب إلى الحكومة حول حالة الفقر التي توغلت ـ وفقًا له ـ داخل المجتمع المصري مما دفع كثيرين للموت غرقًا في رحلات الهجرة غير المشروعة إلى عدد من الدول الأوروبية بحثًا عن تحسين أحوالهم المعيشية.

ورغم أن نسبة مَن يقبعون تحت خط الفقر .. كما يؤكد مسئولو منظمة العمل لا تتعدى ٢٠٪ إلى جانب نسبة مماثلة قريبة منه لتدني ظروفهم الاقتصادية من جانبهم.

تضارب مثل هذه التقارير التي تسجل نِسَبًا غير دقيقة لا تستند إلى أسس وقواعد حقيقية، إلا أننا طرحنا القضية برمتها في سطور هذا التحقيق بحثًا عن الحقيقة والحلول الواقعية التي ترفع من مستوى معيشة المواطنين[١].

ورغبة في الاختصار، أذكر أهم ما توصلت إليه الدراسة:

١ـ أن عشرين في المائة (٢٠٪) من المصريين يقبعون تحت خط الفقر، لا يجدون قُوتَهم اليومي بصورة منتظمة، ومثلهم مهددون بالفقر ويقتربون منه.

٢ـ أن المشكلة لم تدرس بالقدر الكافي وأن هناك تقارير تصدر عن بعض المنظمات تقول: إن نسبة الفقر تزيد عن ٢٥٪ وتقارير أخرى تقول إنها وصلت إلى ٤٠٪ و ٦٠٪ والمتفق عليه بين الجميع نسبة الـ ٢٠٪ فقط[٢].

٣ـ أن معدل الفقر تزايد في الآونة الأخيرة وان هذه النسب قابلة للارتفاع نتيجة غياب العدالة في توزيع الثروات وثمار التنمية.

يقول الدكتور علي السلمي: «أكثر من نصف المصريين يعيشون تحت خط الفقر بما يقل عن دولار أمريكي واحد يوميًّا ..... وتنهمر الوعود والأحلام على الشعب المصري الذي يعاني الفقر والبطالة والمرض فضلًا عن الجهل، فيما يقارب نصف المصريين يعيشون تحت خط الفقر، أي: ٢١ مليون مصري، أي: حوالي ١٠٪ من قوة العمل متعطلون وأغلبهم في فئة العمر الأزهر (٢٥ ـ ٢٩ سنة)، ويفتقر أكثر المصريين إلى الخدمات العلاجية الكافية»[٣].

---

(١) صحيفة الجمهورية عدد ٢٠٣٨٨، صفحة ٣، بتاريخ ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٩م.

(٢) الكتاب السنوي بالجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء صـ٥١٨ ج١/ ٢٢، نسبة السكان ذوي الدخل أقل من واحد دولار أمريكي يوميًا، أكثر من ٢٠٪ .

(٣) مصر المحروسة صـ٣٠، صـ١٠٢، مرجع سابق بتصرف، وانظر كتاب الحقيقة والوهم في الواقع المصري،صـ ١٥، =

إذن هناك اختلاف واضح بين العلماء والجهات الرسمية في تقدير عدد الفقراء وفي بيان أسباب المشكلة،وأبعادها ،وخطورتها والطرق المثلى لحلها ،وهذا يؤكد عدم دراسة المشكلة دراسة كافية وشاملة .

يقول شفاء عبد الغني:

«إننا نرجوا مخلصين وقبل فوات الأوان وتفاقم المشكلات أن نواجه المشكلات بكل شجاعة، وبالوسائل العلمية، بحيث تنبع من واقعنا دون نقل عشوائي من الغرب لإعادة توزيع السكان وتوفير فرص العمل وإقامة مشروعات عملاقة واستزراع ملايين الأفدنة.

إن الأمانة والضمير وحب الوطن وإنكار الذات مفردات غابت وتغيب فى هذا الزمن، ولابدّ من إعادتها لأهميتها في تنمية المجتمع وتحقيق التقدم والازدهار، إن تغيير الطريقة التي نعمل بها أمر ليس بالسهل فهذه العملية تتطلب تغيير جذري في نظرتنا للعمل نفسه، وهو الشيء الذي لا يفضله أحد على الإطلاق، مع أن التقدم عادة لايحدث بدون تغييرات في طريقة الأداء وإقامة مشروعات عملاقة، فالمشروعات العملاقة هي معيار تقدم الدول وازدهار الشعوب فالفولاز والطائرات والأسلحة والسيارات والزراعة والسياحة والتعليم والتكنولوجيا مشروعات عملاقة و من علامات التقدم بين الدول»[(١)].

ويقول: عن المدن الجديدة المقامة حاليًا حول المدن الكبرى: «ظهور العديد من الأماكن والمراكز العمرانية حول المدن الكبرى خط من خطوط التنمية التي تسير عكس الاتجاه، ولها آثارها السلبية على التنمية الاقتصادية، تزيد من الكثافة السكانية لاعتمادها على المدن الكبرى، والواقع الفعلي يشير بوضوح إلى أن هذه المراكز لم تقوم بالدور المنتظر منها وخاصة في جذب السكان إليها، كما أنها لم تسهم في القضاء على ارتفاع نسبة الجريمة وانتشار الأمية والبطالة والفقر»[(٢)].

=

١٦، د/ رشدي سعيد أستاذ الجولوجيا وله مؤلفات ومقالات عن المجتمع المصري، مرجع سابق، للمزيد انظر صـ٧ من الكتاب المذكور.

(١) انظر مصر دولة عظمى خلال خمسين عامًا ص١٣،ص١٧، مطابع الفاروق الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٧، رقم الإيداع بدار الكتب/ ١٧٩٧٤ سنة ٢٠٠٧.

(٢) المرجع السابق صـ٢٣.

ولقد ورد في الأثر أن: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها»[١]، والحكمة: وضع الشيء في موضعه المؤدي إلى الغاية منه، وحتى يوضع الشيء في موضعه لابد من علم يتعلق بهذا الشيء ومظانه ومواضعه... والعاقل هو الذي يستفيد من تجارب الآخرين، «ولقد ارتبط ازدهار الإسلام وانتشاره بحركات الترجمة والنقد وتعريب العلوم وتطويرها والاستفادة منها»[٢]، والله ﷻ يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣، والأنبياء: ٧]، ولقد قص لنا ربنا تبارك وتعالى قصة نبي الله موسى مع العبد الصالح (الخضر) وقص لنا قصة نبي الله يوسف في مصر ... ثم قال لنا ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف :١١١]، والإنسان إن عرف شيئًا، غابت عنه أشياء، والحياة لها مستجدات، وتتطور باستمرار، ولابد من مواجهة الأحداث بحكمة ووعي .... كل ذلك لا يتم ولا يكون إلا بالاستفادة من جهود أهل الخبرة والمعرفة.

وكم من أبحاث علمية بذلت فيها الأوقات والنفقات ولا يستفاد منها لا على مستوى الفرد والجماعة، ولا على مستوى الدولة والمجتمع، اللهم إلا في حدود ضيقة لا تفِ بالمطلوب.

منذ أكثر من ثلاثين سنة والعلماء يقدمون الحلول لمعالجة مشكلة الجوع والفقر والبطالة في العالم كله لا في مصر وحدها[٣]، ـ ومع الأسف ـ الحال كما هو، بل يزداد سوءًا وينذر بما لا يحمد عقباه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٢:٢٥].

يقول الدكتور على السلمي: «وعلى الرغم من كل عوامل الإحباط المحيط بالمناخ العام في مصر ورغمًا عن عدم الاهتمام الرسمي بقضية مصر المستقبل ـ باستثناء تلك الكلمات العارضة عن المستقبل التي تظهر في بعض المناسبات في الخطب الرئاسية ـ فإننا نطرح تصورًا سريعًا لمصر يتجدد

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة، في الجامع الصحيح برقم (٢٦٨٧) دار إحياء التراث بيروت، تحقيق/ محمد أحمد شاكر.

(٢) انظر كتاب بينات الحل الإسلامي صـ ١٥ وما بعدها د / القرضاوي مكتبة وهبة، طـ الثانية سنة ١٩٩٢م.

(٣) من هذه الأبحاث، رسالة الماجستير للدكتور/ حلمي صابر(مشكلة الجوع وكيف عالجها الإسلام)، وكتب الدكتور القرضاوي، والشيخ الغزالي، والدكتور محمد شوقي الفنجري، وغيرهم.

في أنه بحلول العام ٢٠٣٠ ستكون مصر أمة متقدمة، يضمها مجتمع مصري متماسك واثق من نفسه، مشبع بقيم أخلاقية وسلوكية قوية، ووفق هذه الرؤية يمكن إنجاز نقلة موضوعية في الواقع المصري تعالج ما يعانيه المصريون من متاعب ومعاناة وتحقق تحسين جودة الحياة لجميع المواطنين والارتفاع بمستوى وجودة التعليم والوصول إلى المعايير العالمية في جودة التعليم، إن وضع مثل تلك الرؤية المستقبلية وتفعيلها بقوة وإصرار هو التحدي الحقيقي للشعب المصري، إن نجاح وضع وتطبيق استراتيجية مستقبلية لمصر يتطلب الإفادة من تجارب الآخرين واستثمار الخبرات والمنهجيات التي أثبتت نجاحها في دول أخرى ـ خاصة ماليزيا، والهند، والصين ـ والاستفادة من مفاهيم الإدارة الغربية التي تمثل أساسًا وركيزة في نجاح المشروعات إذا أحسن تطبيقها»[١]، وشيء من ذلك لم يحدث، مما حدا بكثير من الباحثين للخروج من مصر للبحث عن مَن يقدرهم ويقدر أبحاثهم.

«إن الأبحاث العلمية في مصر لا تجد الاهتمام المناسب، بل تمر بأزمات كبيرة ومتعددة، مما أدى إلى تراجع دورها في النظام الاقتصادي الجديد، منذ أوائل السبعينيات، وجعل كثيرًا من علماء الاقتصاد في الجامعات المصرية يفضل السفر بأبحاثه إلى الخارج»[٢].

ومما سبق يتضح:

ـ أن الفقر موجود في مصر، وأنه صار مشكلة تؤرق المصلحين، وأن النسبة التي اتفق عليها الخبراء وهي ٢٠٪ ليست قليلة فهي كافية لإحداث القلاقل والأزمات، إذ إن خمس ١/٥ المجتمع أو أكثر يعاني من الفقر وتوابعه، والحقيقة التي أكد عليها علماء اقتصاد متخصصون أن الفقر في مصر يزيد بكثير عن نسبة العشرين في المائة.

* * *

---

(١) كتاب مصر المحروسة من تاني صـ٣٥٨، ٣٥٩ بتصرف، مرجع سابق.

(٢) للمزيد انظر كتاب الحقيقة والوهم في الواقع المصري صـ ١٠٠ وما بعدها، مرجع سابق.

المطلب الثاني: الاعتماد على الاستيراد فى سد حاجة المجتمع:

استيراد ما لابدّ منه، ولا غنى عنه ليس عيبًا، إنما العيب أن نعتمد على الاستيراد اعتمادًا شبه تام، هنا تكمن المشكلة، بل وتزداد وتتضاعف وتتعقد يومًا بعد يوم، طالما رضى المجتمع بفكرة الاستيراد وركن إليها، و اعتبرها بديلًا عن الإنتاج الوطنى والاكتفاء الذاتى؛ لأن في هذا الركون وهذا الرضا قتل للهمم، وتثبيط للعزائم، وتسكين للوضع مع بقاء المشكلة قائمة تتحكم فيها قوى أخرى قد تتحول ـ بين عشية وضحاها ـ من صديق متعاون يصدر، إلى عدو غادر يدمر.

والعقلاء الذين يجلبون من الخارج ما ليس مثله فى الداخل، أما أن نستورد ما يمكننا صنعه أو زرعه أو العثور عليه في أرضنا أو الاستغناء عنه ، فهذا هو الخطأ والخطر.

لذا كان من الحكمة أن تعي مصر والعالم الإسلامي خطورة الاعتماد على الغير، لاسيما السلع التي لا يستغني عنها الشعب كـ(القمح مثلًا)، وكذلك الدواء، ومواد البناء، وقطع الغيار اللازمة للسيارات، والطيارات، والقطارات، والمعدات الأخرى، التي لا يمكن أن يتحقق الاستقرار والتقدم بدونها.

«وإذا علمنا أن ما تدفعه الدول الإسلامية في الاستيراد سنويًّا يكفي لإقامة أكبر الصناعات، ولدعم أضخم المشروعات الزراعية والإنتاجية التي يمكن أن تسد حاجة المسلمين كافة، وتغنيهم عن تحكم التكتلات العالمية المستغلة فيهم، و إذا أدركنا ذلك علمنا مدى الخسارة الناتجة عن فتح أبوابنا للإنتاج بلا حدود، وعدم اعتمادنا على إمكاناتنا الذاتية مهما كانت محدودة »[1].

والسؤال هنا إذا كان هناك ضرورة لشراء القمح أو استيراد دواء أنفلونزا الطيورـ مثلًاـ فهل هناك ضرورة لاستيراد إبر الخياطة، أو أدوات التجميل والميكياج؟

إن المسألة لم تعد مسألة استيراد مجموعة من السلع بأثمان نملكها أو نقترضها، بفوائد مركبة أو بسيطة ميسرة وعلى الأجيال القادمة أن تسدد، لا؛ لم تعد المسألة بهذه البساطة وإنما أكبر و أخطر من هذا التصور القاصر، لم يقف الأمر ـ في الاعتماد على الاستيراد بدل الإنتاج ـ عند حد تنويم الشعوب وتخديرها وتعليمها الكسل والاتكال ولا عند حد غلاء الأسعار واستنزاف الموارد وإنما تعدى الأمر إلى ما هو أخطر وإلى ما هو أكبر على المستوى الديني والاقتصادي والقومي والعسكري والاجتماعي والأخلاقي.

---

(١) رسالتي إلى الأمة صـ٣٠٣، مرجع سابق.

هذا الخطر الكبير تعرفه جيدًا الدول الكبرى التي تصدر لنا العولمة و أنظمة السوق الحرة والاتفاقيات الجمركية وتريد أن تتحول بلاد العالم الإسلامي إلى سوق كبرى لمنتجاتها تعرف هذه كيف تستهلك، ولا تعرف كيف تنتج.

«صارت مصر الآن وفي السبعينيات من القرن العشرين ـ بسبب السياسات الخاطئة ـ تستورد خمسة أرغفة من كل ستة أرغفة، لقد تضائلت مساحات القمح وتم تقسيمها بين الإنسان والحيوان، و أصبح نصيب الحيوان ومن ورائه كبار مربي الماشيه هو الأكبر، وأصبح الشعب مهدد بالمجاعة بين وقت و آخر أمام هيمنة موردي القمح وتحكمهم في بيعه إلا بشروط هي في صالحهم، شروط تبقي القوي قويًّا و الضعيف ضعيفًا لا يفلت من آثار الضعف.

لقد أصبح القمح مصيبة خطيرة تتصل بحياة الشعب واستقلال الوطن، لقد أصبح مادة استراتيجية في العلاقات الدولية فلم تعد قيمته النقدية هي كل شيء، بل أصبح من المحتمل أن يكون بين أيدينا ثمنه ولا نستطيع الحصول عليه بسبب تقلبات السياسة»[(١)].

ولا يخفى على من له صلة بالعلوم الشرعية أن مسألة الاكتفاء الذاتي وسد حاجة المجتمع من السلع التي لا يمكن أن يُستغنى عنها؛ لأنها من الفروض الدينية التي يأثم المرء أو المجتمع كله بتركها والتهاون في إقامتها مع القدرة على ذلك.

فهي تدور بين فروض العين، وفروض الكفاية، حسب التخصصات والمهام والتكاليف التي يقوم بها كل مسلم في موقعه إن كان مهندسًا، أو طبيبًا، أو صانعًا، أو عاملًا، أو مزارعًا .....

❊ ❊ ❊

(١) منهج الإسلام في علاج حاضر المسلمين صـ١٣٠: ١٣١ مرجع سابق.

المطلب الثالث: وجود العقبات أمام المشاريع الإنتاجية:

قلما تجد مشروعًا مفيدًا قام في مصربدون عقبات (كئود) كالرِّشوة، وما يسمى بالروتين القانوني، مع أن شعار الدول المنتجة «الرأسمالية» ـ دعه يعمل دعه يمر ـ والنتيجة لا عمل ولا إنتاج ولا حراك يذكر ولا مشاريع تقام والناس قد ركبوا قطار الجوع و الفقر و الجهل والمرض ينتظرون المعونات ويستجدون العطف ويلهثون وراء الفُتات إلا ما رحم ربي، وقليل ما هم!!

أولًا: تفضيل الوظيفة الحكومية على المشاريع الإنتاجية:

هذا ـ للأسف ـ هو حال أبناء مصر الآن، لقد مرت مصر وتمر بحالة نفسية جعلت الكثير يشعر بالخمول و الكسل وعدم الرغبة فيما يسمونه ـ بلغة العصر ـ المغامرة بالمشروعات الخاسرة، لكثرة ما يرون من عقبات وتعقيدات أدت بهم إلى الاعتقاد أن أي مشروع محكوم عليه بالفشل حتمًا وأن الوظيفة الحكومية هي الأفضل والأضمن للمستقبل.

يقول الدكتور جلال أمين: «خطر ببال أبي عندما تخرج أخي بكلية الهندسة أن ينشئ له مشروعًا خاصًّا به (دار نشر لها مطبعة خاصة)، ويتفرغ لها أخي عوضًا عن الوظيفة الحكومية كمهندس في هيئة الكهرباء، فإذا بأصدقاء أبي يجمعون بأن يترك التفكير في هذه المجازفة الخطيرة التي يمكن أن يترتب عليها تدمير مستقبل ابنه، إذ بعد مرور الزمن وفشل دار النشر والطباعة (هذا الفشل الذي كان يعتبرونه أمرًا حتميًا!!)، سوف يشعر أخي بالأسى الشديد عندما يرى زملاءه المهندسين، قد حصلوا على الدرجات في سلم الترقي الحكومي، ومن ثَمّ تخلى أبي عن فكرة المشروع إخلاصًا لمبدأ الوظيفة الحكومية»[(١)].

---

(١) للمزيد انظر كتاب ماذا حدث للمصريين ص ٢٠، ٢٨ وما بعدها وص٨٦، مرجع سابق، وانظر كتاب الحقيقة والوهم في المجتمع المصري ص ٢٣ وما بعدها، مرجع سابق، وانظر كتاب جذور الفساد الإداري في مصر ص ١٤٤ ط دار الشروق سنة ٢٠٠٨م/ عبد الخالق فاروق باحث وخبير اقتصادي بالجهاز المركزي للتنظيم والإدارة ، وانظر كتاب الإصلاح الاقتصادي في مصر دكتورة/ منى قاسم ص ١٨ ،مرجع سابق، كل هذه المراجع تؤكد ما قاله الدكتور جلال أمين، من تفضيل معظم المصريين العمل الحكومي على المشروع الإنتاجي.

ثانيًا: طلب الرشوة مقابل تسهيل الاجراءات ورخص العمل:

«في صحيفة الجمهورية بقلم رئيس التحرير في (دراسة محايدة) عن حال المصريين مع العمل والإنتاج تقول الدراسة:

١ـ المصريون لا يثقون في بعضهم البعض ..... وتفسير ذلك أنها الأزمات الاقتصادية.

٢ـ أصبح المصريون يعيشون في بحار من السلبية واللامبالاة.

٣ـ يغلب على المعاملات الكذب وعدم قول الحقيقة، وأن الكذابين يزيدون.

٤ـ أن المواطنين لا يثقون في وعود الحكومة لعدم اهتمامها بالفقراء، وعدم تصديها للفساد.

٥ـ أنهم يلجئون للرِّشوة لإنهاء مصالحهم وسرعة الإنجاز، والرِّشوة تزيد في المصالح الحكومية لاسيما المدن والمجالس المحلية، والمصريون يتعاملون معها على أنها (قاعدة سلوكية لا غنى عنها)، وترسخت في أذهان الناس، بحيث لم يعد أحد يراها عيبًا، أو حرامًا، بل هناك مَن يدللها، ويطلق عليها أسماء وحوافز...»[1].

كانت الرِّشوة في الزمن الماضي (شذوذًا عن القاعدة) كان المرتشي لا يجرؤ على الإعلان بها وكان يمارسها (في الخفاء)، ولا يمكن الحصول عليها بسهولة؛ لأنها لا تتم بوجود الراشي والمرتشي بل تحتاج إلى عنصر آخر وهو «الرائش» أي: الوسيط و تحتاج إلى وقت وترتيبات وربما نظر الراشي إلى المرتشي نظرة ريبة وعدم احترام، أما الآن فالرِّشوة هي القاعدة العريضة وقضاء المصالح لا تتم بها فيها المشاريع الإنتاجية التي تحل مشاكل الفقر والبطالة وتفتح العديد من فرص العمل ـ لا تتم إلا بالرِّشوة.

يقول: أ.عبد الخالق فاروق :«يستخلص الدارس المتعمق لشئون وبنية الإدارة الحكومية أن هذه المواد الدستورية الكثيرة [2] التي تنص على حقوق العاملين ومزاياهم ، كذلك ما نصت عليه المواثيق الدولية فقد جرى إهدراره، ولم يحل وجودها من تردي أوضاع العاملين في بيئة العمل الحكومي بما

(١) صحيفة الجمهورية ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٩م،صـ١٩، العدد ٢٠٣٨٠، ومن تدليلهم للرشوة القول بأنها إكرامية أو مرزقة، أو حسنة، يقولون: أعطيناه حسنة أو إكرامية أو مرزقة....إلخ.

(٢) انظر كتاب الدستور المصرى القوانين الأساسية مادة ٧-٨-٩، صـ ١٤، إعداد نشأت حسن المحامي، ط البدراوى للتوزيع .

أدى إليه من تتدهور أدائه، وضعف مستوى الخدمات المقدمة إلى الجمهور والمواطنين، خاصة الفقراء منهم، فقد آلت بيئة العمل إلى انتشار حالات الفساد الإداري والرِشوة والمحسوبية باعتبارها وسائل لتعويض النقص والتدهور في الحقوق الأجرية للعاملين»[١].

وعن سوق العمل الخاص والاستثماري يقول ـ أيضًا ـ : «فطالما ظل العاملون بالقطاع الخاص والاستثماري يفتقرون إلى مظلة أو شبكة أمان اجتماعية وصحية، فإن الاندلاع المتزايد من جانب خريجي الجامعات والمدارس المتوسطة من الالتحاق بالوظائف الحكومية قائمًا دون حل.

أن توفير الإرادة السياسية على إدارة الدولة والمجتمع في تطبيق القوانين بحزم دون وساطة أو محسوبية، أو مجاملات لبعض رجال الأعمال الملتصقين بإدارات الحكوم، وقادتها من ناحية أخرى، من شأنه فتح باب إصلاح جذور لنظم الإدارة والعمل في البلاد»[٢].

بل ومن أعجب ما قرأت أن: «هناك رِشوة تقدم من الآباء والأمهات للأبناء، إذا تغيرت قيمهم بقيم يصعب التعامل معها»[٣].

تأمل كيف يتحول المجتمع من حارس للقيم ومحافظ عليها، إلى مضيع لها ومتخلي عنها.

«إن هناك غشًّا جماعيًّا تتواحى به فصول ويتواحى به مربون وأولياء أمور!! كيف تنجح أمة يتحول فيها الضلال إلى أن يمون عنصرًا سائدًا يعيش الناس في ظله !!»[٤].

وعن المشاريع والإنتاج ـ أيضًا ـ فلقد «شاعت الشكوى من اتجاه الاستثمار في مصر إلى فروع غير منتجة أو قليلة الإنتاج ... كالمضاربة على الأراضي والإسكان الفاخر وفروع الصناعة والخدمات ضعيفة الأثر في دفع عجلة التنمية، كصناعة المشروبات الغازية أو السياحة، كذلك شاعت الشكوى من اتجاه الاستثمار الحكومي إلى مشروعات المرافق العامة على حساب الاستثمار في الزراعة

---

(١) انظر جذور الفساد الإداري في مصر بيئة العمل وسياسات الأجور والمرتبات في مصر من عام ١٩٦٣ إلى ٢٠٠٢، ص٤٠ مرجع سابق، وانظر تقرير وزارة الداخلية / مصلحة الأمن العام تقرير سنة ١٩٩٤م، أن الرِّشوة وتعطيل وسائل النقل، بلغت ١٠٠٪.اعلى نسبة ضبط للمتهمين

(٢) كتاب جذور الفساد الإداري في مصر صـ٣٦٩ ، ٣٧٠، مرجع سابق بتصرف.

(٣) ثقوب في الضمير صـ١٢٧، مرجع سابق.

(٤) كتاب خطب الشيخ محمد الغزالي ج٢ صـ٢٤٨، طـ دار الاعتصام سنة ١٩٨٨م، وللمزيد راجع كتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي صـ١١٥، طـ مكتبة وهبة الطبعةالرابعة عشر سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

والصناعة، مما أدى إلى الإخلال في الهيكل الإنتاجي وهيكل العمالة على السواء، ويرد كل ذلك عادة إلى سياسة الانفتاح الاقتصادي بما عنته من انحسار دورها في توجيه الاستثمار الخاص من جهة أخرى، هذا التفسير هو الصحيح بالطبع»[١].

ونتيجة ذلك الحصار هي هروب المستثمرين ـ على الأقل ـ من المشاريع التي تحتاج إلى صبر ومعالجة ووقت كالقمح والقطن مثلًا، إلى مشاريع ذات عائد كبير وسريع اقتداءًا بغيرهم ممن تباركهم وتعينهم النظم والقوانين.

يقول الأستاذ هاني صالح وممدوح رمضان/ في التحقيق الذي أجرياه في صحيفة الجمهورية المصرية تحت عنوان:

المزارعون ينصرفون عن القمح إلى زراعات اقتصادية أخرى

يبدو أن القمح المصري سوف يمر بنفس الأزمة التي يمر بها القطن.. وسوف تتآكل المساحات المخصصة لزراعة القمح كما حدث مع الذهب الأبيض وذلك بسبب انصراف المزارعين عن القمح وزراعة المحاصيل الاقتصادية التي تحقق أرباحًا معقولة مثل البرسيم وبنجر العلف والسكر واللب السوري.

يقول المزارعون إن أسعار القمح خلال الموسم الزراعي ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩م، لم تكن مشجعة وحقق الفلاح خسائر من زراعة الأقماح .. ويطالبون بضرورة إعلان الأسعار للموسم الجديد في الوقت الحالي حتى يتخذ الفلاح قرار زراعة القمح بدلًا من زراعة المحاصيل البديلة [٢].

سألت عددًا من الشباب يعملون في مشاريع الإنترنت والمحمول، ما سرّ انتشار محلات النت والمحمول والإقبال عليها ؟ كان الجواب: «لأن إقامة هذه المشاريع سهل ولا توجد أمامه عقبات تذكر، والربح منه وافر وسريع ولا خطر منه ولا خوف من الكساد أو الخسارة .... أما المشاريع الإنتاجية فصعبة وتحتاج إلى رأس مال وإجراءات ووقت، ومع هذا كله غير مضمونة النتائج.

(١) ماذا حدث للمصريين صـ ٢٤ ـ ٢٥، مرجع سابق.

(٢) صحيفة الجمهورية العدد ٢٠٣٦٤ / بتاريخ ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٩م، صفحة ٦.

هذه العقبات التي توضع أمام المشاريع الإنتاجية والوظائف الحكومية طالت أصحاب الاحتياجات الخاصة من المرضى والمعاقين، فهم يصرخون - كما ورد في صحيفة الجمهورية - ويقولون: «إن المؤسسات تتجاهل حتى نسبة الـ٥٪ فأين نذهب....؟ لا إعداد، ولا تأهيل، ولا قاعدة بيانات لأعداد المعاقين، وها هم عالة على أسَرهم يعيشون على الإحسان من الجمعيات الخيرية ولجان الزكاة، ويناشدون الحكومات، ورجال الأعمال أن يساعدوهم في عمل مشروعات صغيرة تناسبهم كالأكشاك والمحلات التجارية لتخفيف العبء عن أسرهم»[1].

* * *

(١) صحيفة الجمهورية صـ١٥ عدد ٢٠٣٦٤، بتاريخ ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٩م.

المطلب الرابع: عدم مراعاة العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل:

أولًا: نبذة مختصرة عن الموارد الطبيعية الغنية بها مصر.

مصر غنية بالموارد الطبيعية سواء أكانت زراعية أو مائية أو معدنية أو بشرية، وهذا معروف ولا ينكره أحد من العلماء المتخصصين.

١ – الموارد الزراعية:

يقول الدكتور عماد الدين حسن، والدكتور حنفي محمود سليمان: «لعلنا نعلم أن مساحة جمهورية مصر العربية تصل إلى ١.٠٠٣.٠٠٠ كيلوا متر مربع، ويتركز السكان في الشريط الضيق لوادي النيل والدلتا، ويترتب على ذلك ضئالة المساحة المأهولة بالسكان إذا ما قورنت بجملة المساحة ٥٫٥٪ مما أدى إلى أن تعاني مصر من كثافة سكانية عالية بلغت في الكيلوا متر الواحد ١٧٠ نسمة في المساحة المأهولة، وحوالي ٥٩ فرد لكل كيلوا متر مربع من المساحة الكلية، وذلك وفقًا لتعداد السكان/ نلاحظ أن السكان يتركزون في الوادي والدلتا إذ يسكنها حوال ٩٧٪ من إجمالي سكان مصر بينما لا يتجاوز مساحتها ٤٪ من إجمالي مساحة مصر» [(١)].

ولا خلاف فيما أعلم ـ بين العلماء فيما ذكره الدكتور عماد والدكتور حنفي من أن مساحة مصر تربو على المليون كيلو متر مربع وأن نسبة المعمور منها ضئيل جدًّا، وأن هناك أكثر من ٨٥٪ أرض بور بكر منذ خلق الله الأرض لم يستفاد منها !!

ولا خلاف ـ أيضًا ـ من أن مصر بلد زراعي منذ القدم، إن المناخ في مصر يساعد على زراعة كافة المحاصيل الزراعية على مدار العام.

«.... يكفي أن نعلم في كلمات بسيطة سهلة بعيدة عن المصطلحات الاقتصادية، أن مصر وحدها كانت ولأمد طويل هي مزرعة القمح التي تعتمد عليها الامبراطورية الرومانية، وهي مخزن الغلال الذي يغذي سائر المنطقة بشهادة القرآن الكريم، ستة مليون فدان تزرع في مصر بالري»[(٢)].

---

(١) مفاهيم أساسية في إدارة الموارد البشرية ـ الجامعة العمالية صـ ١٣المؤسسة الثقافية، د/ عماد الدين حسن، د/ حنفي محمود سليمان ، بدون تاريخ، وانظر كتاب مصر والمصريين صـ٧٦، مرجع سابق.

(٢) منهج الإسلام في علاج حاضر المسلمين صـ ١٣٠، ١٣١، مرجع سابق.

هذه الملايين الست هي التي ورثها المصريون عن الفراعنة ونظم ريها محمد علي باشا الكبير، ولازالت مصر عالة عليها حتى الآن، باستثناء بعض الإصلاحات الصحراوية المحدودة التي لا تفي باحتياج مصر.

هذه المساحة التي زرعها محمد علي أو نظم أو طوّر زراعتها ليست هي وحدها الأرض الزراعية الصالحة للزراعة في مصر، بل هناك ضعف هذه المساحة في الصحراء الغربية والشرقية وسيناء، ومنها ثمانية ملايين فدان قابلة للزراعة [١]، والسؤال المحير لماذا لم تزرع هذه المساحات الهائلة ؟ ولصالح مَن تبقى معطلة إلى الآن ؟

تقول الاحصائيات: يسكن الصحراء ١٪ من جملة السكان بينما تبلغ مساحتها ٩٦٪ من جملة مساحة مصر [٢]، تأمل ١٪ يشغل ٩٦٪ من مساحة أرض مصر، ألا يدل ذلك على العجب والاستغراب؟!

٢- الموارد المائية:

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء:٣٠].

لعل قائل يقول: هذه المساحات الهائلة التي ذكرت ليس فيها ماء يكفي للزراعة.

والجواب: أن مصر بها مياه جوفية مثل مياه نهر النيل.

«تتوافر المياه الجوفية في الواحات الخمس (سيوة ـ البحيرة ـ الفرافرة ـ الداخلة ـ الخارجة)، وقد أقيم مشروع الوادي الجديد في الداخلة والخارجة »[٣].

ولقد رأيت بعيني المياه الجوفية في الوادي الجديد وقربها من سطح الأرض، ونتاج المحاصيل الزراعية هناك، وهي لا تقل في جودتها عن نتاج مزارع وادي النيل، «خزانات هائلة تتراوح المياة فيها بعمق ٢٠٠ إلى ١٢٠ مترًا فوق سطح الأرض»[٤] ولا يزال أبناء هذه البلاد يستخرجون المياه

---

(١) راجع كتاب جغرافيا مصر والوطن العربي، طـ وزارة التربية والتعليم سنة ٢٠٠٩ / ٢٠١٠م، وكتاب ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية طـ٢ عدد ١٥٣، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية صـ١٠٣، عام ١٤٢٨ هـ-٢٠٠٧م.

(٢) مفاهيم أساسية في إدارة الموارد البشرية صـ١٤، مرجع سابق.

(٣) المرجع السابق ص١٤.

(٤) منهج الإسلام في علاج حاضر المسلمين صـ١٤٦، مرجع سابق.

بطريقتهم البدائية ولاغراضهم الخاصة ولاتوظف هذه الموارد ـ سواء الأرض الصالحة للزراعة، أو المياه، أو هما معًا ـ في خدمة الشعب المصرى.

ففي سيناء وحدها أكثر من مليون فدان قابلة للزراعة لم يستثمر منها شيء يذكر[١]، ناهيك عن تجريف التربة وصناعة الطوب وتبوير هذه الأرض وضياع معالم الزراعة بردم الآبار والترع وتقسيمها مباني بقصد الحصول على الربح السريع والوفير[٢].

تقول الإحصائيات الرسمية: «لا تزال الاستفادة في مياه الري لا تتعدى ٥٠٪ من إمكاناتها»[٣].

٣- الثروات المعدنية الغنية بها مصر:

مصر مليئة بالمعادن والخامات اللازمة لتطور الصناعة، وبها ـ أيضًا ـ من الطاقة ما يكفي لإقامة أكبر المشروعات ومنافسة الدول المتقدمة، وربما التفوق عليها.

«من أهم المعادن الموجودة في مصر الحديد، والمنجنيز، والفوسفات، والزنك، والنحاس والذهب والقصدير، والتنجستين والتيتانيوم والتوريوم والكروم والكاولين والفحم والغاز الطبيعي»[٤].

هذا الكم الهائل والمتنوع من الثروات المعدنية، لا أظن أنه يوجد مجتمع في دولة مساحتها مليون كيلو متر مربع، وهذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى قد حبى مصر وأمدها بالخيرات التي تؤهلها دومًا بالسيادة والغنى والريادة، والدليل على ذلك أن مصر تصدر للخارج معظم هذه المعادن.

وفقط أتكلم عن واحدة من هذه الثروات الهامة والحيوية الغنية بها مصر وهي الحديد.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[سورة الحديد آية: ٢٥].

هذا المعدن الذي ذكره الله صراحة في كتابه وبين اهم فوائده ـ صناعة السلاح والمنافع الأخرى كالسيارات وبناء العمارات.... هو موجود بكثرة في مصر.

ومصر بها: خام حديد يصل في سمك طبقاته إلى ١٢ متر... ويوجد بكميات كبيرة في منطقة

(١) مصر المحروسة من تاني صـ ٣٩٧، مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب تشريح الشخصية المصرية صـ ٢١٢، مرجع سابق.

(٣) راجع كتاب جغرافيا مصر والوطن العربي، مرجع سابق، وكتاب المياه والتنمية الاقتصادية أ/ أشرف صبحي عبد العاطي وعمرو علي حسن صـ٣٩ وما بعدها، طـ ١٩٩٩م دار مكتبة الإسراء.

(٤) كتاب جغرافيا مصر والوطن العربي صـ ١٢٤، مرجع سابق.

الواحات البحرية بالصحراء الغربية في جبل الجديدة وتتكون معادن الخام من الليمونيت والهيماتيت والمغرة، كما يوجد حديد خام في أسوان كما يوجد في الصحراء الشرقية على شكل عروق، كما يوجد في سيناء وقد بلغ حجم الإنتاج من خام الحديد ٢.٧ مليون طن سنة ١٩٩٧ »(١).

ومع هذا تحدث أزمة في الحديد تصيب قطاع البناء بالشلل التام، وإحداث أزمة تجعل الحديد (السلعة الحيوية) تختفي من السوق، ويتضاعف سعرها إلى أضعاف، ففي عام واحد (٢) يتراوح سعر سعر الحديد من ثلاثه إلى تسعه آلاف، قل مثل ذلك في أنبوبة الغاز، وصناعة السيارات وغيرها، وهذا واضح لا يخفى على أحد.

٤ – الموارد البشرية الغنية بها مصر:

يقاس مدى تقدم الدول ليس فقط من خلال ما تملكه من ثروات وموارد، إنما أيضًا بقدرات وإمكانيات سكانها.

إذ إن العنصر البشري هو أساس تحقيق التنميه الاقتصادية والاجتماعية بقدر ما يملكه من قدرات ومعارف ومهارات وقيم وعادات وتقاليد ومعتقدات دافعة لطاقته نحو الابتكار والإبداع، فالإنسان هو المحور الرئيسي المستهدف بالتقدم والتنميه(٣).

ومصر ليست بحاجة إلى موارد طبيعية بقدر ما هي في أمس الحاجة إلى صدق النوايا فى الإصلاح والرغبة الحقيقية في حل المشكلات حلًّا جذريًّا،المشكلة ليست في قلة الموارد أو الأيدي العاملة، فمصر غنيه بالموارد بشهادة المختصين فى إدارة الموارد، وإنما المشكلة لخصها المتنبي ـ الشاعر المعروف ـ عندما قال:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... حتى يشمن وما تفنى العناقيد (٤)

والمتنبي قال ذلك في وقت ما كانت مصر تعاني فيه من أزمات خانقه مثل اليوم، وهو على أي حال يرى أن الخير في مصر كثير ولقد رمز إليه «بالعناقيد» التي تتناهشها الثعالب من كل ناحيه والحراس عليها «نيام» ولكثرتها ووفرتها لاتنفد ولا تزول.

---

(١) كتاب جغرافيا مصر صـ ١٢٤ بتصرف يسير، مرجع سابق.

(٢) في عام ٢٠٠٨م تراوح سعر طن الحديد المسلّح من ثلاثة آلاف جنيهًا مصريًّا إلى تسعة آلاف.

(٣) راجع كتاب مفاهيم أساسيه في إدارة الموارد البشريه صـ١١، مرجع سابق.

(٤) ديوان المتنبى صـ ٥٠٧، دار بيروت للطباعة والنشر ط سنة ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

مصر بها فائض من الخبراء فى معظم المجالات تصدره للخارج حتى بلغ عدد المهاجرين من أبناء مصر أكثر من أربعة ملايين[1].

يقول الدكتور محمود عطية: «استطاع أبناء مصر القدامى أن يبرهنوا بعملهم وعطائهم أن (مصر هبة المصريين) بتلبية متطلبات عبقرية المكان والانتقال من عبقرية المكان إلى عبقرية الإنسان بدايةً من اهتمامهم بالزراعة والصناعة وفنون العمارة إلى هداية الإنسان واكتشاف الضمير البشري والمناداة بـ«إله واحد» وتعاظم عطاء المصري في تسخير كل إبداعه من أجل رقي وتقدم بلاده أرض النيل.... تتذكر كيف يبرئ المصري نفسه حين يقسم «وإني لم ألوث مياه النيل يومًا»»[2].

«نحن نؤمن أن الثروة الحقيقيه في مصر هم أبناؤها إذ يمثلون رأس المال الحقيقي، فهم القوة المنتجة لكل السلع والخدمات والقيم في المجتمع، وهم القوة الفكرية المبدعة الخلاقه، وهم الأداة المحورية في تفعيل واستثمار موارد المجتمع المادية والطبيعية وتحقيق القيمة المضافة، وهم أصحاب الوطن ومصدر قوته»[3].

الثروة البشرية كم هائل مهمل لا يستفاد منه ـ على الوجه الأكمل والمطلوب ـ بل وينظر إليه على أنه عبء على المجتمع لا عونًا له.

إذن مصر غنية بالموارد الطبيعية الكثيرة والمتنوعة، وأن مشكلة الفقر ليست بسبب قلة الموارد والإمكانات وإنما لأسباب أخرى منها:

عدم مراعات العدالة في توزيع الثروات ،وفرص العمل.

---

(١) انظر كتاب ماذا حدث للمصريين صـ ١٠٧ـ١٠٨، صـ ١٧٤، مرجع سابق.

(٢) احترس مصر ترجع إلى الخلف صـ ٢٦ ط دار الشروق سنة ٢٠٠٩م، تأمل هذا القسم في وقت لم تكن فيه الملوثات قد بلغت من الخطورة ما بلغته الآن.

(٣) مصر المحروسه من تانى صـ٢٦٨، مرجع سابق.

أولًا: الوظائف الحكومية:

إن أناسًا قد تبوءوا أعلى المناصب والدرجات والوظائف الحكومية، وآخرين لهم سنوات وسنوات وهم يبحثون عن فرصة عمل ـ أي عمل يستر حالهم ـ ومع ذلك لا يجدون[١].

والعجيب أن هؤلاء وهؤلاء على درجة سواء، فهم أبناء مصر ـ وربما تخرجوا في كلية واحدة، وبدرجة متساوية، بل ربما يكون المحروم ـ من هذه الوظيفة ـ أعلى درجة وكفاءة ومهارة من صاحب الحظ[٢].

والأعجب من هذا، القوانين المنظمة لسوق العمل في مصر! فهناك مَن يحظى بالكادر الخاص أو حوافز مميزة[٣]... وهناك مَن ينتظر العلاوة الدورية كل عام، ناهيك عن التسهيلات والتعقيدات في الحصول على قطعة أرض أو ترخيص لعمل مشروع أو الحصول على قروض لتمويل المشاريع ... أو الابتعاث للخارج ... فهناك من تذلل له القوانين ويتيسر له الأمر، وهناك من يجد العقبات والتعقيدات، وهناك من ييأس ويترك المسألة برمتها ويبحث عن عمل آخر ميسور ... وهكذا الحال وصرنا كما قال القائل:

ما الناس إلا عاملان فعاملا قد مات من عطش وآخر يغرق

وبعيدًا عن المحسوبيات والوساطة والرِّشوة للحصول على الوظائف أو فرص العمل، فهناك مَن يُعيّن بأمر تكليف، وهناك مَن يُعيّن بالمسابقات ولجان التحكيم، وهناك مَن يُحرَم من التعيين ـ بعد النجاح في المسابقة وبعد الكشف الطبي ـ لمجرد الاشتباه أو لاعتبارات أخرى فوق القانون[٤].

ولم يقف الحال عند حد الاستئثار بالمناصب المرموقة، وترك الأعمال الأخرى المهنية والحرفية ذات العائد البسيط للبسطاء، لو وقف الحال عند هذا الحد لتصبر الناس، إذ وجدوا حد الكفاية.

---

(١) انظر جذور الفساد الإداري في مصر صـ٣٤، وما بعدها، مرجع سابق.

(٢)المرجع السابق صـ١٨٩، ١٩٠وصـ٢٧٧.

(٣) انظر المرجع السابق صـ٢٩٠ وصـ٢٩٩ وصـ ٣٠١،٣٠٠.

(٤) انظر الدستور المصري المادة السابعة والثامنة والثالثةعشر والرابعة عشر، صـ ١٤-١٥ ، مرجع سابق، وانظر كتاب جذور الفساد الإداري في مصر بيئة العمل وسياسة الأجور والمرتبات في مصر من ١٩٦٣ إلى ٢٠٠٢م، صـ ١٧٤ وما بعدها، مرجع سابق.

قال ﷺ: «ستجدون بعدي أثرة وأمورًا تنكرونها. قالوا: وبما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا الذي عليكم وسلوا الله الذي لكم.......»[(١)].

لم يقف الحال عند الأثرة التي أشار إليها الحديث الشريف والتي تعني حب النفس المفرط، أو اختصاص المرء نفسه بأجود الأشياء دون غيره[(٢)]، أو التميز على الغير بحيازة الخير مع ترك جزء من هذا الخير للغير.

وصل الحال في مصر إلى درجة استقدام العمال الأجانب للعمل في مصر وطرد العمالة المصرية والاستغناء عنها.

يقول الأستاذ محمد يوسف:

بالرغم من ارتفاع البطالة ومهارة المصريين

ظاهرة استقدام العمالة الأجنبية تتزايد في مصانع العاشر

«بدأت ظاهرة استقدام العمالة الأجنبية في انتشارها بشكل ملحوظ بالرغم من أعداد البطالة المرتفعة ومهارة العمالة المصرية وكفاءتها العالية .. في الوقت نفسه الذي أفادت مديرية القوى العاملة بالشرقية أنه تم التفتيش على ٣٦٠ شركة خلال هذا العام من بينهم ٦٠ شركة تضم أكثر من ٤٢٠ عاملًا أجنبيًّا وأنه تم تحرير محاضر مخالفة لها.

إن تشغيل العمالة الأجنبية أمر خطير جدًّا ويهدد الاستقرار الداخلي لأسباب عديدة منها زيادة أعداد البطالة وعدم خلق كوادر فنية بين العمالة المصرية مستقبلًا»[(٣)].

إن آخر ما يمكن أن يتصوره المرء ـ في بلد يدعي أنه ينحاز للفقراء ـ أن تسمح بطرد العمال من وظائفهم واستبدالهم بعمال أجانب.

إذا كانت الوظائف السيادية لها مبرراتها ... الكفاءة ... الخبرة ... المؤهل العلمي ... السيرة الذاتية ... فما هي مبررات طرد العمال وهم في سن العطاء؟

---

(١)رواه البخاري باب المناقب برقم (٣٦٠٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه مسلم في صحيحه باب الإمارة برقم (٤٨٨١)، عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

(٢) انظر رائد الطلاب ط دار العلوم صـ ٢٥، مرجع سابق.

(٣) صحيفة الجمهورية يوم ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٩م، العدد (٢٠٣٨١)، صـ٧.

وليس لهم أعمال بديلة ولا تعطى لهم مكافئآت تكفي لإقامة المشاريع المنتجة، إن هؤلاء الذين يطردون من أعمالهم ينضمون إلى طابور العاطلين فيزداد العدد ويكثر الخطأ، ويعظم الخطب.

إن من أخطر الأسباب التي ساعدت في انتشار مشكلة الفقر في مصر - إن لم تكن أخطرها على الإطلاق - عدم مراعاة العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل بين فئات وأفراد المجتمع.

ثانيًا: تقسيم الأراضي والمشروعات الإنتاجية:

يقول الدكتور محمود عطية تحت عنوان (محظوظي الدخل):

«إن خبراء علم الاجتماع يؤكدون أن فئة محظوظي الدخل موطنها الأصلي يرجع إلى مرتفعات آليات السوق غير المنضبطة في خلال حديث تنشيط الاستثمار وبرامج الخصخصة والمعونات الأجنبية والتعامل مع الهيئات غامضة العمل والنوايا داخل البلاد والترويج للديمقراطية وتسقيع الأراضي وتراس المنشآت الحيوية والجلوس في موقع الصدارة حيث لا حسيب ولا رقيب، بهذا الفساد تباع أراضي الدولة بملاليم الفلوس،لا أخفي ما أشعر به من خوف كلما استمعت لخبرائنا الاقتصاديين حين يتحدثون عن خطر هذه الفئة فهم يربكوننا، فكم من المصريين دخلوا دائرة الفقر؟ وهل في بلادنا ترصد شرائح الفقراء؟ وهل لدينا أرقام نثق بها؟

وهل سمح خبراء ووزراء الاقتصادية بالمحروسة بما يسمى بالتوزيع العادل لثروات البلاد بين جميع الطبقات؟

وهل هناك وجود في بلاد العالم لمن يطلق عليهم طبقة (محظوظي الدخل)، التي تتراكم ثرواتهم من اقتصاديات هامشية لا تصب في مصالح اقتصاد البلاد وعلى حساب طبقات (محدودي الدخل)، وفي وجود حكومات وطنية»[1].

إن الطريقة التي تقسم بها الثروات وفرص العمل ..... والنظم المتبعة والمعلنة في توظيف العاملين أو تقسيم الأراضي التابعة للدولة لتؤكد عدم مراعاة العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل، مع أن المادة الرابعة والثالثة عشر والرابعة عشر من دستور الدولة تنص على أن الأساس

(١) احترس مصر ترجع إلى الخلف صـ١٩، ٢٠ ، ٢١ بتصرف، مرجع سابق.

الاقتصادي والنظام القائم على الكفاية والعدل بما يحول دون استغلال، ويؤدي إلى تقريب الفوارق بين الدخول ويكفل عدالة توزيع الأعباء والتكاليف العامة [(١)].

ثالثًا: الثروات والدخل القومي:

إن أناسًا في مصر تحت أيديهم ثروات البلاد يتصرفون فيها كما يشاءون وآخرين ـ وهم الغالبية العظمى من أبناء المجتمع ـ ليس لهم من الأمر شيء، ومعظم الثروات تذهب إلى الأغنياء، ولا تلتفت الدولة إلى الفقراء.

«إن جزءًا كبيرًا من عائدات البترول وقناة السويس والسياحة والمعونات الخارجية .... يذهب في الأصل إلى يد الدولة، وقد كان من الممكن أن يكون توزيع الدولة لهذه العائدات على الأفراد مناسبًا مع ما يبذله الأفراد من جهد، ولكن الواقع أنه من السهل تبريد الأموال، خصوصًا إذا كانت هذه الأموال في يد الدولة، وعلى الأخص إذا كانت الدولة (رخوة) من النوع الذي عرفته مصر ابتداءً من السبعينيات، فكم كان من السهل أن تنفق هذه الأموال على أصحاب النفوذ أنفسهم، أو على أصحاب النفوذ ومحاسبيهم، وأن تغمض الدولة عينها على من وضع يده على أراضيها، أو مَن يختلس أموالها، أو يحصل على امتياز من الدولة لا يستحقه، أو يمنع أن يؤدي للدولة حقوقها»[(٢)].

ومصر ـ كما هو معلوم ـ قد طبقت في مجال توزيع الثروات وفرص العمل النظامين (الاشتراكي والرأسمالي) في حل مشكلة الفقر وما حُلّت بل زادت تعقيدًا وانتشارًا لأسباب لم تعد خافية على أحد، فالكتب التي كتبت عن فساد النظامين أكثر من أن تُحصى[(٣)].

فالمعلوم أن«الاقتصاد الرأسمالي، الأساس في التوزيع، هو الملكية الخاصة، فكل بقدر ما يملك، ويترتب على ذلك تفاوت في الدخول بحسب التفاوت في الملكية والميراث، ويكون عادة هذا التفاوت شديدًا.

---

(١) انظر كتاب الدستور المصرى ، صـ ١٣، ١٥، مرجع سابق، وكتاب جذور الفساد المالي في مصر صـ٣٧ مرجع سابق.

(٢) ماذا حدث للمصريين صـ ٦٠ مرجع سابق، وانظر كتاب مصر والمصريون في عهد مبارك، صـ ٣١، مرجع سابق.

(٣) راجع كتاب الضوابط الشرعية للاستثمار، طـ دار الإيمان سنة ٢٠٠٨م، اعداد نصر محمد سالم، وكتاب مستقبل الأمة الإسلامية، طـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد (٩٩) سنة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، وكتاب ثقوب في الضمير نظرة على أحوالنا ، مرجع سابق، وكتاب الإسلام وعدالة التوزيع للدكتور/ محمد شوقي الفنجري، الطبعة الأولى دار ثقيف للنشر والتأليف المملكة العربية السعودية سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

وفي الاقتصاد الاشتراكي، الأساس في التوزيع هو العمل، فالكل تبعًا لعملة، وفي ظل هذا الاقتصاد تتفاوت الدخول بسبب اختلاف القدرات والمواهب الانسانية ويصبح هذا التفاوت كبيرًا»[١].

هذا التفاوت الذي يحدثه كلا النظامين قد صار ثقيلًا لا يطاق، إذ ساعد في اتساع الفجوات بين الطبقات وكان على حساب الطبقة الوسطى التي هي رمانة الميزان في المجتمع، وأحدث خللًا واضحًا في الحياة الاجتماعية وسوق المال وأسعار السلع، ومنها السلع الأساسية الأولية وأصبح في المجتمع مَن يعيش ببصنع مئات من الجنيهات، ومنهم مَن يملك عشرات الألوف والملايين، والجميع أمام متطلبات الحياة سواء، وأمام الواجبات الدينية والوطنية سواء.

ويطول الكلام عن حيازة أراضي الدولة وبيعها بأقل من ثمنها [٢] ، ناهيك عن « تزايد الميل الاحتكاري في الاقتصاد المصري ـ مثل: الحديد والأسمنت والاتصالات ..... إلخ»[٣] ، وعن «إبعاد الكفاءات الحقيقية والموهوبين وأصحاب الرأي المستقل ..... من العمل في الوظائف والمناصب السيادية والقيادية وتقديم ذلك لغير الكفاءات»[٤].

* * *

(١) د/ محمد شوقى الفنجرى ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية، صـ ٥٣ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب مصر ترجع إلى الخلف صـ ٢٠ ، مرجع سابق.

(٣) للمزيد انظر جذور الفساد المالي والإداري في مصر صـ ٣٥٣ مرجع سابق.

(٤) كتاب لماذا لا يثور المصريون/ ط دار الشروق سنة ٢٠١٠ صـ ٩٧.

المطلب الخامس: الانشغال عن الإنتاج بوسائل غير جادة أونافعة:

إذا كانت الغاية حل مشكلة الفقر فإن الوسيلة التي تُوَصِّل إلى هذه الغاية يجب أن تكون مشروعة وناجحة ومفيدة، فالوسائل عندنا تأخذ حكم المقاصد.

وعندما يتكلم العلماء عن الفقر ومكافحته والتصدي له، يذكرون العمل الدءوب والجاد، والمشاريع الكبرى والعملاقة والوسائل الحديثة لتطوير الإنتاج وتحسينه، وخلق الفرص الجديدة والأجواء المناسبة والعنصر البشري وقيمه ومروءته وعقائده وأخلاقه ومواهبه وخبراته؛ لأن الأمم تتقدم وتنتصر وتتخطى العقبات والإبداع والرغبة الصادقة في التطور والانتصار.

والمجتمع الذي يسعى بجد واجتهاد نحو هدف منشود، مجتمع نشيط لا يعرف الكسل ولا الملل ولا الاتكال على الغير، ولا يرضى بالدون من الوسائل والحلول، إنما يطمح دائمًا إلى أعلاها وأحسنها، إما بالابتكار والاختراع، وإما بالتعليم والتعلم والاستفادة من تجارب الآخرين.

ومصر ـ للأسف ـ لا هي استفادت ـ كما ينبغي ـ من التقنية التي يوفرها العلم الحديث في مجال الإنتاج، ولا هي وفرت المناخ المناسب للعلماء والباحثين لاستكشاف وسائل وطرق حديثة تواكب العصر، بل ظلت ـ للأسف ـ تراوح[1] مكانها لا تتقدم إلا ببطءٍ لا يفي بالمطلوب لسد حاجة المجتمع المتزايد يومًا بعد يوم.

المجتمع يزيد، والاحتياج إلى السلع، ومنها السلع (الأولية) تزيد، والإنتاج لا يزيد (بالقدر المطلوب) والمشكلة تتفاقم .... والسبب: لا إنتاج ... لا جودة ......لا تطوير.

وتعود الناس على الإعانات، والدعم، والحلول السريعة، وما عادوا يفكرون في مشروعات تنموية طموحة والمناخ العام يساعد على ذلك، حيث ترى وسائل اللهو، واللعب أكثر من وسائل الإنتاج والعمل الجاد، والتشجيع الرسمي، والشعبي للعب أكثر بكثير من التشجيع على الإنتاج، والعمل، والحوافز والجوائز والمنح، والأموال التي ترصد للعب أضعاف أضعاف ما يرصد للعمل المفيد، والعلم النافع الذي يعود على الأمة بالخير والرخاء[2].

---

(١) انظر كتاب الاقتصاد المصري بين التبعية والاستقلال، صـ ٥٥ وما بعدها، ط دار الشروق سنة٢٠٠٧ للدكتور أحمد الشربيني.

(٢) نشرت صحيفة الجمهورية في الملحق بتاريخ ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٩م العدد (٢٩٢)، عن كشف حساب مهرجان القاهرة المسرح التجريبي أنه تكلف ٥٠ مليون جنيه، وعن نفقات اللعب قالت الصحيفة ذاتها، أكد الخبراء أن فريقي اتحاد الشرطة =

قارن بين المساحات التي خصصت للعب، والمساحات التي خصصت لبناء المدارس والجامعات، وبين رواتب العاملين هنا والعاملين هناك.... ،ناهيك عن دور السينما والمسارح والمصايف، والقرى السياحة وغيرها من الأشياء التي تبدد الطاقات، أو تزاحم الأعمال الجادة المنتجة، وخذ على سبيل المثال «كرة القدم»، والأموال التي تصرف، والأوقات التي تهدر، والاهتمام الزائد عن الحد والتلهي والانشغال الذي طال الصغار والكبار حتى النساء والبنات، وأصبح لا يخلو بيت من لاعب أو مشجع، ولا يخلو شارع من مباراة، ولا تخلو قرية من نادي كرة ونادي شباب، وأقيمت الوزارات ووضعت القوانين المنظمة بل والحازمة في اللعب، وبين اللاعبين، وقل مثل ذلك في التمثيل الهابط، والفن الساقط بجميع أشكاله وصوره.

هذا المال وهذه الجدية، وهذا الحزم، وهذا النظام الذي يحكم اللعب ويشجع عليه، الأولى أن يكون لصالح العمل والإنتاج والبحث العلمي.

* * *

=

والداخلية سبب في ارتفاع أسعار اللاعبين، حيث كان سعر اللاعب من عام ٢٠٠ إلى ٢٠٠٥ لا يزيد على ٦٠ ألف جنيه وارتفع في الدوري الممتاز (ب) إلى ٤٠٠ ألف ونصف مليون جنيه في الموسم الواحد، والأمثلة كثيرة: إكرامي إبراهيم انتقل لنادي الدخيلة بـ٤٠٠ ألف جنيه، ملحق الجمهورية بتاريخ ٨/ ٢/ ٢٠١٠م العدد(٣٧٦) صـ١٤.

المطلب السادس: الإسراف والتبذير:

إنفاق المال في غير حاجة أو ضرورة، سبب خطير من أسباب الفقر، ويتضاعف هذا الخطر ويشتد كلما زاد الإنفاق عن الحد، وصار عادة معتادة يداوم الناس عليها أفرادًا وجماعات.

ويصل الخطر مداه وتكون الطامة الكبرى عندما تسن القوانين لرعاية الإسراف والتبذير وحمايته، وعندما يبارك، ويمول من قبل الدولة الفقيرة[1]، ومن قوت الشعب، وعلى حساب حياته وعلاجه وتعليمه وكرامته.

أولًا: لأن المال عصب الحياة وعمادها وبدون المال لا يمكن الوصول إلى تنمية شاملة وإنتاج يلبي حاجات المجتمع.

ثانيًا: لأن التبذير والإسراف سفاهة وطيش لا تصدر عن عاقل حكيم يقدر الأمور حق قدرها ويضع كل شيء في موضعه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[النساء:٥].

والسفيه الذي يبدد المال ليس أهلًا لقيادة الأمة في ميادين الحياة، وهو بشهادة القرآن الكريم شيطان رجيم، وليس إنسان حكيم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦:٢٧].

والعلماء أجمعوا على وجوب الحَجر على السفيه، وإن كان المال ماله، وإن كان السفيه والدًا أو جدًّا أو أُمًّا أو ابنًا ... ومع أن الحَجر يقيد حريته ويؤثر على نفسه ، ومع ذلك كله يحجر عليه؛ لأن تبديد المال وإتلافه شرّ عام وخطر كبير، وفي القواعد الأصولية المتفق عليها بين العلماء، «أن العام مقدم على الخاص» و «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» ، «ولا ضرر ولا ضرار في الإسلام».

وإذا كان ذلك معمول به على مستوى الأفراد والأقارب والأسر والجماعات، فهو من باب أولى عندما يتعلق الأمر بمصير الشعوب والدول والأمم، وعندما يهدد المجتمع في أرزاقه ومقدراته.

---

(١) أشرت في الصفحات الماضية إلى الأموال التي ترصد للعب ويكفي أن نقرأ أن وزارة الثقافة كلفت فيلمًا واحدًا من بين عشرات الأفلام (المسافر) عشرون مليونًا كما نشرت صحيفة المساء صـ٣ يوم ١٧/ ١١/ ٢٠٠٩م، عدد(١٩١٩٤)، وما نشرته الصحيفة ذاتها في أول صفحاتها عن الجسر الجوي من مصر إلى السودان لتشجيع المنتخب المصري في لعبه مع الجزائر واستمرار هذا الجسر الجوي يومين متتابعين، كما تقول الصحيفة بتاريخ ١٦/ ١١/ ٢٠٠٩م عدد (١٩١٩٣).

والإسراف والتبذير بكل أنواعه وجميع أشكاله وصوره موجود في مصر وبقوة وكثرة، وعلى جميع المستويات فهو حاصل من الفرد والمجتمع والجماعة والدولة والأمثلة على ذلك كثير.

١ـ على مستوى الأفراد والأسر:

يقول الدكتور محمود عطية: «علماء الاجتماع يؤكدون دائمًا أن الفرد ابن ثقافته ومن أهم ثقافات الشعوب (عاداتها وتقاليدها)، وغالبًا ـ لا حول ولا قوة للفرد ـ أمام ثقافة مجتمعه .... يشتريها بحلوها ومرها ـ إلا ما رحم ربي وملك عزيمة من حديد تؤهله للوقوف أمام بعض ثقافات مجتمعه.

وبما إنني ـ كغيري ـ لا أملك قوة التغيير، اعتبرت نفسي ضحية لعاداتنا وتقاليدنا التي تعلى من قيمة (الأكل) ولا تحتاج أنت ـ قارئي ـ إلى جهد كبير للتأكد من اقتران كل أعيادنا ومناسباتنا بالأكل وبأنواع معينة من الأكل، ولا أعرف لماذا هذه الأنواع بالذات، مثلًا شم النسيم، ارتبط بأكل البيض وتلوينه، وبالفسيخ والسردين، ومولد النبي ﷺ ارتبط بشراء وأكل حلوى المولد ... والأعياد ارتبطت بصناعة وأكل الكعك وغيره......ورمضان وموائد الرحمن والقطايف والكنافة ..... أظن أن تلك الأعياد والمناسبات ساهمت بقدر لا يغتفر في ترويض غذائنا حتى وجدت نفسي أحد عتاة (الأكيلة)، أعتدت تقريبًا تناول اللحوم في معظم وجبات اليوم، وفجعت كما فجع الكثيرون ممن نخرت ثقافة الأكل في عظامهم»[1].

ولعل ما ذكره الدكتور محمود عطية/ هوالواقع المشاهد الذي يتنافى مع تعاليم الإسلام الرافضة للإسراف والتبذير والتبعية والانقياد (٢).

ولم يقف الأمر عند حد الأعياد والمناسبات التي أشار إليها الدكتور محمود عطية، بل تطور الأمر ولا يزال يتطور، فهناك أعياد الميلاد، وأسبوع المولود، وعيد الحب، وما ينفق في رمضان، وفي المصايف، والرحلات، ولعب الأطفال،وأجهزة المحمول، ومصانع الشبسي، والبسكوت، والمشروبات، والمخدرات، وكروت المعايدة، والشموع والألعاب النارية، وما ينفق على الأفراح من خطوبة وشبكة وعقد وبناء.... إلخ .

---

(١) احترس مصر ترجع إلى الخلف صـ ١٣١،١٣٢، مرجع سابق.

(٢) ففي الحديث : «لا تكونوا إمعة تقولوا: إذا أحسن الناس أحسنا، وإذا ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم، إذا أحسن الناس أن تحسنوا، وإذا أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم»، رواه الترمذي في سننه، وقال حديث حسن رقم (٢٠٠٧)ج٤، صـ٣٧٤/ طـ دار إحياء التراث العربي بيروت / تحقيق أحمد شاكر، وآخرون.

ولا يخفى على أحد ما يقوم به التجار من دعايات وترويج واستيراد؛ لأن كثيرًا من هذه السلع لا يصنع محليًّا، وإنما يستورد بعضه بالعملة الصعبة كفانوس العيد الذي تصدره لنا الصين ودول أوربا ولعب الأطفال وأجهزة المحمول وغير ذلك كثير.

ناهيك بسوق الزينة للنساء والرجال وأنواع المكياج والعطور والميداليات الجديدة والموضة السنوية وفنون الطهي الحديثة والأساسات المنزلية المستوردة، والشاليهات، والفسح، والمصايف، وغير ذلك كثير، وتنفق فيه أموال هائلة، وعلى نطاق واسع، وعلى حساب التنمية، والإنتاج.

وللأسف صارت هذه الأمور جزءًا هامًا من ثقافة المجتمع، البعض يرى أنها دين لا يمكن التخلي عنه ولو أدي ذلك إلى الاقتراض، وبالفعل تجد من يقترض ليذهب إلى المصيف ولا يقطع عادة اعتادها، ومن يقترض ليشتري العفش والأساس الذي يرضيه أو زوجته أو الناس ... ونظام البيع بالتقسيط سهل لنا الحصول على ما نريد ويترتب على ذلك ديون وديون يظل المرء يسدد أصحابها سنوات طويلة يضيع معها معظم العمر، وعندما يسدد ما عليه ويفكر في إنشاء مشروع منتج يرى نفسه وقد تقدم به السن وازدحم بأعباء المعيشة فقد صار له أولاد وزوجته، هذا على مستوى الأفراد والأسر في مصر وهو ظاهر ومعروف.

٢ ـ الإسراف والتبذير على مستوى الدولة: وهو الأخطر والأدهى والأمرّ؛ وذلك لأن القوانين المعمول بها لا تضع حدًّا لإسراف وتبذير الأفراد، والأسر بل وتعينهم على ذلك بتوفير واستيراد السلع الترفيهية والسلع الاستهلاكية،[١] وتيسير الحصول عليها وإغراق الأسواق بها والسماح بالدعاية لها ولا تتدخل في ترشيدها، ووضع الضوابط المتوازنة للاستفادة منها في حدود لا تضر بالتنمية والإنتاج لاسيما (السلع الاستراتيجية)[٢] اللازمة والضرورية التي لا يستغنى عنها المجتمع يومًا واحدًا، كالقمح، ومواد البناء، والدواء، والتعليم، والصرف الصحي، وغيرها من السلع الأولية والمشروعات المهمة التي تفتح الأمل أمام الشباب وتعيد إليه الثقة في نفسه وفي بلده وقدرته على الإنتاج والعطاء.

---

(١) انظر كتاب الاقتصاد المصري بين التبعية والاستقلال صـ١١٧ وما بعدها، مرجع سابق، وكتاب مصر والدائرة المتوسطية صـ٢٨٦ ومتا بعدها، مرجع سابق.

(٢) كلمة استراتيجية كلمة يونانية وتعنى هنا الشئ البالغ الأهمية، ومنها القوى الاقتصادية، انظر كتاب رائد الطلاب صـ٦٣، مرجع سابق.

والإسراف والتبذير لم يقف عند حد استيراد الكماليات والسلع الترفيهية وتسهيل الحصول عليها والدعاية لها، وإنما تعدى ذلك بكثير حيث نرى الإنفاق الرسمي على مشاريع كان في الإمكان ـ مثلًا ـ أن تقوم المدن الجديدة بعيدًا عن القاهرة ومستقلة عنها ولكن جميع المدن الجديدة تقريبًا قامت على حساب القاهرة الكبرى، في المرافق والطرقات والجامعات والمستشفيات، فزادت الأزمات وتنوعت وتعقدت، وصارت تؤرق المصلحين، وتربك المواطنين ... الأمر الذي جعل الجميع يفكر في حلول فورية وعاجلة للخروج من الوضع الراهن(١).

ونتج عن ذلك العشوائيات، والبناء غير المرخص، والمخالف للنظم والمواصفات العالمية وانتشر ذلك في عموم محافظات الجمهورية، وأصبح واقعًا أليمًا، فرض على الدولة التعامل معه، إما بهدمه وتدميره، وإما بالاعتراف به وتطويره، وكلا الحالتين لا تخلو من الإسراف والتبذير بيوت تهدم، وبيوت تقام، خزنات صرف ومياه تردم وأخري تقام .. مشاريع ماء وترع تردم وأخرى تقام، ناهيك عن كسر الأرصفة والطرق المعبدة لتوصيل المرافق وإعادة تخطيطها ورصفها.

***

(١) انظر كتاب مصر دولة عظمى،صـ١٣:١٧ مرجع سابق.

المطلب السابع: الفساد المالي والإداري وغياب الرقابة الرادعة:

ذكرت ـ فيما تقدم ـ أن مصر مليئة بالثروات والخيرات، وأن ما يصب في خزانة الدولة من عائدات البترول والغاز الطبيعي وقناة السويس والضرائب والمساعدات والمنح والإعانات الخارجية .. وغير ذلك كثير[1]، ولا يوزع توزيعًا عادلًا على جميع فئات الشعب ولا يوظف توظيفًا مفيدًا وصالحًا، وهذا عائق من اكبر العوائق التي تعطل التنمية والإنتاج، وتُبقى الفقر والاحتياج.

ورغبة في الاختصار؛ لأن الحديث عن الفساد المالي والإداري وغياب رقابة الدولة ... يطول لكثرة ما كتب ونشر وأُعلن.

أبدأ هنا بذكر ما قاله أحد العلماء المتخصصين، في مجال الاقتصاد عن تبديد الأموال العامة في غياب الرقابة الرادعة التي تحاسب أو تعاقب أو تعاتب.

«إن قطاع الأعمال العام يمثل ركيزة في بناء الاقتصاد الوطني، ينبغي أن تتوفر له مستويات متعالية في الكفاءة الإدارية والقدرة التنافسية بما يسمح له بالمساهمة بفاعلية في إنتاج القيمة المضافة في تعظيم الناتج القومي الإجمالي.

إن قطاع الأعمال العام يمكنه ـ إذا أحسنت إدارته ـ أن يعمل على تحقيق التوازن في الأسواق وكبح جماح القطاع الخاص (المنفلت) والحد من نزعاته الاحتكارية، ويدعونا هذا الاقتناع إلى مراجعة أوضاع ذلك القطاع وإعادة هيكلته على نحو يعود به إلى الشكل الأفضل، وذلك بدمج الشركات القابضة القائمة حاليًا في شركة قابضة واحدة تتبعها جميع الشركات التي تقرر بقاؤها في نطاق الملكية العامة.

وسوف تهتم الشركة الجديدة بتقييم أداء شركاتها التابعة لها بشكل مستمر، وبمعايير تقييم الأداء عالميًّا، ويتم محاسبة الإدارة بها على أساس النتائج المتحققة في ضوء نتائج الأداء وتقييم قدرات الشركات على المنافسة والتطور ومواجهة متغيرات التقنية وتطوير الأسواق، وتتخذ الشركة القابضة قرارات استراتيجية بالإبقاء على الشركات الناجحة ومعالجة أوضاع الشركات الأقل كفاءة، سواء ببيعها أو تصفيتها أو إعادة هيكلتها بحسب الأحوال.

---

(١) انظر كتاب الحقيقة والوهم في الواقع المصري صـ٤٤، ٤٥ مرجع سابق.

ولعلي أختم بدعوة أشدد فيها أن تطرح الدولة سياساتها نحو قطاع الأعمال بشفافية كافية للنقاش العام وأن يتم استفتاء الشعب في أسلوب التصرف في تلك الشركات حيث إنه هو المالك الوحيد وصاحب الحق في اتخاذ القرار بشأنها»[١].

هذا الكلام الذي قدمه الدكتور علي السلمي/ عن الوضع الراهن للنظام المالي والإداري في مصر، أعتقد أنه لا يحتاج إلى تعليق، لا؛ لأنه صدر عن رجل علم متخصص في مجال الاقتصاد والرقابة الإدارية والتنمية وشغل منصب وزير في حكومة السيد/ ممدوح سالم سنة ١٩٧٧م، وفي حكومة الدكتور/ مصطفى خليل سنة ١٩٧٨م[٢]، ولكن ـ زيادة على ذلك ـ الأسئلة التي قدمها الدكتور علي السلمي المتعلقة بالفساد المالي والإداري والتي كررها ـ كما يقول ـ في أكثر من مناسبة ولم يجد لها إجابات شافية[٣].

من هذه الأسئلة ما يتعلق بسندات دولارية تسببت في خسائر كبيرة، وقد تم تبرير الخسائر بما نتج عن الفرق في سعر الفائدة المدفوعة والعائد المتحصل!! ومنها ما تسبب في اضطراب وتقلبات السوق لاسيما السلع الاستراتيجية، كالحديد المسلح وغيره.

والعجيب أن هذا الفساد يحرسه القانون ويوجد له المبررات والأعزار، والحق أن القوانين الوضعية لا تخلوا من نقص أو قصور أو جور أو مجاملات، اللهم إلا من انضبط منها بضوابط الشرع الإسلامي الخلقية منها والاجتماعية والفقهية، ومنها:

(الابتعاد عن الاحتكار)؛ لأن الإسلام يريد مجتمعًا متعاونًا يسوده الحب والتكافل ولا يعرف الأنانية ولا الأثرة، ولا حب الذات، ولا الإضرار بالغير... ولذلك حرم الاحتكار[٤]، ومصر الآن مليئة بالممارسات الاحتكارية التي طالما أضرت بالبلاد والعباد، والتى تتم بمباركة رسمية، وحماية قانونية، وحصانة لا تطالها التحقيقات....

يقول الأستاذ السلمي: «أين نتائج التحقيق في ملف الممارسات الاحتكارية في سوق الحديد؟والغريب أن في مصر قانونًا صدر بعد معاناة طويلة باسم «حماية المنافسة ومنع الممارسات الاحتكارية»، المفترض أن يكون القانون إيجابيًّا في رصد تقييد المنافسة وممارسة الاحتكار»[٥].

---

(١) مصر المحروسة، مرجع سابق صـ٧١، ٧٢، ٧٣، بتصرف.

(٢) المرجع السابق صـ٤٩٤.

(٣) المرجع السابق صـ٦٢، ٦٣، وما بعدهما.

(٤) انظر الضوابط الشرعية للاستثمار، صـ ٢٦٥، مرجع سابق.

(٥) مصر المحروسة صـ٦٤، ٦٥ بتصرف يسير.

وإذا كانت هذه الملاحظات وهذا النقد وهذا التقييم والاقتراح والرغبة في تصحيح الوضع... صادرًا من أهل العلم والاختصاص، فماذا يقول الرجل البسيط وهو يرى عجب العجاب في الفساد وغياب الرقابة(١).

ماذا يقول الرجل العادي وهو يرى أملاك الدولة تباع ولا ينوبه منها منزل صغير أو مقبرة تواري سوأته!!؟

ماذا يقول مَن يرى الميزانيات الهائلة التي ترصد لبناء المدن الحديثة، والفلل، والقصور، وهو يعيش مع الأموات بين القبور؟(٢).

ماذا يقول مَن يرى الآلات العملاقة التي تردم الترع ومشاريع المياه لتبوير الأراضي الزراعية بقصد بيعها بأضعاف أضعاف سعرها رغبة في إقامة الأبراج العالية ذات الشقق الغالية لفئة خاصة وبتيسيرات خاصة(٣).

(وقائع رشاوى الشركات العالمية في مصر عديدة، وحكاياتها متنوعة، وآثارها مدمرة اقتصاديًّا وسياسيًّا، لقد أصبح منطق الدفع غير الرسمى هو القاعدة، والتعامل القانوني هو الاستثناء في سوق الصناعات الثقيلة خاصة وسائل النقل، ولم يكن غريبًا أن يتم تصنيف مصر في موقع متأخر في معظم التقارير الدولية الخاصة بالفساد) (٤).

يقول السيد شفاء عبد الغني: «إن الأمانة والضمير وحب الوطن والتضحية، وإنكار الذات مفردات غابت وتغيب في هذا الزمان، ولابد من إعادتها لأهميتها في تنمية المجتمع وتحقيق التقدم والازدهار»(٥).

---

(١) انظر كتاب جذور الفساد المالي والإداري في مصر صـ٤٠، وصـ١٨٩ مرجع سابق.

(٢) انظر ما نشر في صحيفة الجمهورية عن أموال الدولة المنهوبة صـ ١ - ٢ بتاريخ ٢٨/ ٣/ ٢٠١١م، وصحيفة الأخبار المصرية بنفس التاريخ السابق صـ ١ - ٧- ٤ عن الأجهزة الرقابية وما كشفته من ثروات منهوبة وفساد .....لم يسبق له مثيل في مصر.

(٣) انظر كتاب الحقيقة والوهم في المجتمع المصري صـ٢٢ وما بعدها مرجع سابق.

(٤) مصطفى عبيد / خبايا وأسرار زواج البيزنيس للسلطة، مليارديرات حول الرئيس، صـ ١٥٥، ط كنوز للنشر والتوزيع سنة ٢٠١١م.

(٥) راجع كتاب مصر دولة عظمى صـ١٣، ٢٣، مرجع سابق.

الفصل الرابع

علاقة الفقر بالقيم والأخلاق:

وفيه تمهيد وسبعة مباحث:

التمهيد: وفيه مناقشة مسائل ثلاث تتعلق بعلاقة الفقر بالقيم.

المبحث الأول: أثر مشكلة الفقر على العقيدة الإيمانية.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: سوء الظن ـ بالله تعالى ـ والشك في عدله والاعتماد على غيره.

المطلب الثاني: الاستعداد لقبول الأفكار الهدامة والمذاهب الإلحادية التي تصدر لمصر.

المبحث الثانى : أثر مشكلة الفقر على العبادة وإقامة الشعائر.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التقاعس في التزام الفرائض بدعوى (العمل عبادة).

المطلب الثاني: تقلص الوقف الإسلامي.

المطلب الثالث: البخل وعدم إخراج الزكاة بالقدر الذي يسد حاجة المجتمع.

المطلب الرابع: رفع الأصوات في المساجد، ومزاحمة الشعائر بالمشاريع الإنتاجية.

المطلب الخامس : كثرة عدد المتسولين والشحاذين أمام المساجد.

المبحث الثالث: أثر مشكلة الفقر على الأخلاق والسلوك:

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: ظاهرة السب والمجاهرة بالألفاظ غير اللائقة.

المطلب الثاني: الاعتداء على الوالدين والأولاد والمحارم.

المطلب الثالث: قبول العمل في المهن اللاأخلاقية، والكسب اللامشروع.

المطلب الرابع: الحقد والحسد من الفقراء على الأغنياء.

المبحث الرابع: أثر مشكلة الفقر على العلم والفكر والإبداع.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الرغبة عن التعليم الديني إلى المدارس الأجنبية .

المطلب الثاني: التفكير المستمر في الحصول على مقومات الحياة .

المطلب الثالث: ضعف الإرادة وفقد الثقة في النفس والقدرة على التفكير والإبداع.

المطلب الرابع: إهمال الأبحاث العلمية، وعدم الاستفادة منها.

المبحث الخامس: أثر مشكلة الفقر على الترابط الأسري:

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التفكك الأسري وزيادة معدلات الطلاق.

المطلب الثاني: ضعف دور الوالدين في تربية الأولاد بسبب الخروج للكسب ومضاعفة ساعات العمل.

المطلب الثالث: الهروب من المسئولية بدعوى عدم القدرة على النفقة.

المطلب الرابع: العزوف عن الزواج والإحساس بالعجز عن تكوين الأسرة.

المطلب الخامس: كثرة العداوات والخلافات بين الأقارب.

المبحث السادس: أثر مشكلة الفقر على أمن المجتمع واستقراره:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: زيادة معدلات الجريمة.

المطلب الثاني: تبلد الحس وترك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الثالث: زيادة عدد اللقطاء وأطفال الشوارع.

المبحث السابع: أثر مشكلة الفقر على الكيان السياسى للدولة:

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: فتور العلاقة بين عامة الشعب والسلطة الحاكمة.

المطلب الثاني: السخرية والاستهزاء وكتمان العداء للسلطة.

المطلب الثالث: قيام الاحتجاجات للمطالبة بتوفير ضرورات الحياة.

المطلب الرابع: ظهور التيارات المناوئة لنظام الحكم سياسية كانت أو اجتماعية.

المطلب الخامس: ظهور الثورات المطالبة بالحرية، والعدالة الاجتماعية.

تمهيد

مناقشة مسائل ثلاث تتعلق بعلاقة الفقر بالقيم والأخلاق

قبل الحديث عن علاقة الفقر بالقيم .. أود أن أناقش ـ باختصار ـ ثلاث مسائل مهمة لها صلة وثيقة بموضوع هذا البحث، وهنا يجدر بحثها، وهذه المسائل الثلاث هي:ـ

١ ـ الأحاديث التي يفهم البعض أنها تمدح الفقر وتنوه بشأنه.

٢ـ ثبات بعض الفقراء على دينهم وقيمهم رغم استمرار الفقر.

٣ـ خطورة الترف الزائد على القيم لا تقل عن خطورة الفقر.

مناقشة المسألة الأولى:

أولًا: لا توجد أحاديث (صحيحة) تشيد بالفقر وتبين فضله، وما ورد من نصوص فهمها (بعض العلماء)[1] أنها تمدح الفقر كلها لا تصح، ولا تنهض للاحتجاج، «فليس في مدح الفقر آية واحدة من كتاب الله، ولا حديث واحد يصح عن رسول الله ﷺ »[2].

ثانيًا: ما صح من روايات تمدح الفقراء الصابرين على الفقر ليس فيها دلالة قاطعة على مدح الفقر (لذات الفقر) ولا مدح الفقير (لمجرد أنه فقير)، وإنما المدح لاعتبارات وقرائن أخرى كـ(التعفف أوالصبر أو الزهد)، إذ قد يكون النص قطعي الثبوت ولا دلالة له في الحكم.

ولقد أنكر كثير من العلماء على مَن فهم من هذه الرايات أن الإسلام يمدح الفقر (لذات الفقر)، بل واعتبروا هذا الفهم دخيلًا، ووافدًا على المسلمين «من المانوية الفارسية، والصوفية الهندية، والرهبانية النصرانية، وما شابهم من النحل المتطرفة، وما ورد في مدح الزهد لا يعني مدح الفقر، فإن الزهد يقتضي ملك شيء يزهد المرء فيه»[3].

---

(١) كالإمام أبي حامد الغزالي / في الإحياء ج٣ صـ٧٦ : ٧٧ وصـ٢٤٨ تحت عنوان: (فضل الجوع، وذم الغنى، ومدح الفقير) ط دار القلم بيروت، بدون ، كذلك ماورد في الرسالة القشيرية صـ٣٠٣ طـ دار جوامع الكلم سنة ٢٠٠٧م ، من أن (الفقر شعار الأولياء وحلية الأصفياء واختيار الحق سبحانه وتعالى لخواصه من الأتقياء والأنبياء ..... إلخ) ، وكذلك الإمام النووي في رياض الصالحين صـ١٥٦ وما بعدها، طـ دار خالد بن الوليد سنة ٢٠٠٤م عن الفقر والفقراء.

(٢) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام / د. القرضاوي صـ١٢ ، مكتبة وهبة طـ٢٠٠٣م.

(٣) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ١٢ وما بعدها ، مرجع سابق .

ولقد رد الإمام ابن الجوزي رحمه الله، على الإمام أبي حامد الغزالي والمتصوفة فيما أوردوه عن فضل الفقر على الغني ... فقال: «وهذا خلاف الشرع والعقل، وسوء فهم المراد بالمال وقد شرفه الله وعظم قدره وأمر بحفظه إذ جعله قوامًا للآدمي الشريف ... قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء : ٥] .

ونهى النبي ﷺ عن إضاعة المال، وقال لسعد رضي الله عنه: «إنك إن تدع ورثتك أغنياء خيرًا من أن تدعهم فقراء عالة يتكففون الناس»[١]، وقال لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[٢]، ثم سرد الإمام ابن الجوزي عددًا من الأحاديث الدالة على فضل المال الحلال ثم قال: «وهذه الأحاديث مخرجة في الصحاح وهي على خلاف ما تعتقده الصوفية من أن إكثار المال حجاب وعقوبة»[٣].

وللشيخ محمد الغزالي رحمه الله كلام كثير في خطورة مدح الفقر، معتبرًا أن هذا خطأً كبيرًا، ينافي حقيقة ما جاء في الإسلام عن الفقر من أنه مصيبة يعمل الإسلام على تخليص الناس منها، وأن النبي ﷺ قرن الكفر بالفقر وأنه استعاذ بالله منهما معًا في قوله: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»[٤]، وأن الفقر خيره في غيره كالدواء المر أو كمصائب الحياة.

---

(١) متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو جزء من حديث طويل، رواه البخاري برقم (١٢٣٣)، باب رثي النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن خولة، (١ / ٤٣٥) دار ابن كثير مرجع سابق ، ومسلم (٣/ ١٢٥١) باب الوصية بالثلث (١٦٢٨).

(٢)صححه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء، وقال رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، وعند الإمام أحمد في المسند برقم (١٨٢٣٦)، (٤/ ٢٠٢)، وقال الهيثمي: (٩/ ٣٥٢،٣٥٣)، وصححه ابن حبان (الموارد / ٢٢٧٧)، ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم: (٢/ ٢٣٦).

(٣) انظر كتاب دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، د/ القرضاوي صـ ٩٤ وما بعدها ، طـ مكتبة وهبة سنة ٢٠٠١، إذ فيه ردود للعلماء على الإمام الغزالي في قوله : «ترك المال الحلال أفضل من جمعه» ، قال ابن الجوزي ليس كذلك فمتى صح القصد فجمعه أفضل بلا خلاف بين العلماء ... وقال : هذا مذهب السلف ، وذكر سعيد بن المسيب والثوري ... ثم ذكر القرطبي ، وقد ساقوا الأدلة على ذلك، كما خرج الحافظ العراقي الأحاديث التي أوردها أبو حامد في الإحياء وحكم عليها بالضعف والوضع، انظر الإحياء ج٣ صـ ٧٦ - ٧٧ وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار، ط دار القلم ببيروت، بدون تاريخ .

(٤) رواه الحاكم والبيهقي في الدعاء، عن أنس «صحيح الجامع (١٢٥٨)، ورواه أبو داود في الأدب عن أبي بكرة برقم (٥٠٩٠)، تحقيق/ محي الدين عبد الحميد/ (٤/ ٣٢٤)، ط دار الفكر، عن أبي هريرة في سنن البيهقي الكبرى برقم =

ثم يقول الشيخ : «لا تُفسّر نصوص الدين تفسيرًا سقيمًا يجعل الناس يظنون أن الفقر في الدنيا سبيلاً للغنى في الآخرة»[١].

ثالثًا: «إن هذه الأحاديث للمواساة والبشرى ولا تعني أبدًا أن الغنى عيب، وأن الثراء يؤخر المنزلة، بيد أن جهلة المحدثين أرادوا إقامة مجتمع من الصعاليك ورووا آثارًا تجعل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يدخل الجنة حبوًا، وهذه بلاهة منكورة، فإن المال قوام الحياة، وأساس الدولة، وكافل المؤسسات المدنية والعسكرية، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه هو بنص القرآن الكريم من السابقين الأولين الذي حازوا الرضوان الأعلى وبشروا قبل غيرهم بالجنة، وتحبيب الفقر للناس كما يفعل هؤلاء المحدثون القاصرون جريمة، فإذا انضم إلى ذلك أن العرب يحتقرون الحرف ـ تمشيًا مع جاهليتهم الأولى ـ ويفضلون عليها الفقر، عرفت أي مجتمع تصنعه هذه التعاليم»[٢].

وما ورد من أن كثيرًا من الصحابة كان غنيًّا كسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي جهز جيش العسرة، وسيدنا أبي بكر رضي الله عنه وقد قال ﷺ : «ما نفعني الله في الإسلام بمال كمال أبي بكر»[٣]، والسيدة خديجة رضي الله عنها ودورها في مناصرة الإسلام والمسلمين بالمال والنفس معروف ومشهور.

ولا ينكر أحد أن هؤلاء وإخوانهم من الصحابة الأغنياء كانوا أتقياء وأولياء وأصفياء، وأن الله عز وجل مدحهم بما هم أهله، وما يطول ذكره[٤].

=
(١٢٩٢٩)، (٧/ ١٢)، باب ما يستدل به على أن الفقير أمس بالحاجة من المسكين، ط دار الباز، مكة المكرمة ١٩٩٤م/ ١٤١٤هـ، تحقيق محمد عبد القادر عطا.

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ ١٦٠ وما بعدها ، طـ دار القلم دمشق سنة ٢٠٠٥م .

(٢) هموم داعية للشيخ / محمد الغزالي ص ٤٩ ط دار البشير سنة ١٤٠٥ هـ .

(٣)رواه أبو هريرة صحيح ابن حبان برقم ٦٨٥٨ (١٥ / ٢٧٣) مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٣ / ١٤١٤ ط الثانية تحقيق شعيب الأرنؤوط.

(٤) للمزيد ارجع إلى كتاب الجهاد الاقتصادي فريضة شرعية د / حسين شحاتة ، صـ ١٤ ، ١٥ ، طـ دار الطباعة والنشر سنة ٢٠٠٢م .

مناقشة المسألة الثانية، وهي: ثبات بعض الفقراء على قيمهم رغم استمرار الفقر

كثير من الفقراء ثبتوا على مبادئهم وما تخلوا عن قيمهم بسبب الفقر وقد مدحهم الله ﷻ إذ قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة٢٧٣]، وقوله ﷺ: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ... إنما المسكين الذي يتعفف»[1]، فهذه شهادة من رسول الله ﷺ أنه يستعفف وفي رواية: «لا يقوم فيسأل الناس ولا يفطن الناس إليه فيتصدقوا عليه»[2].

وما ورد في أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء، وأن الجنة تفخر على النار بأن أهلها من الفقراء .... ألا يدل ذلك على فضل الفقر والفقراء؟!

الجواب: كلا ، وإليك بعضًا من الأدلة:

أولًا: الآية الكريمة: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا........﴾، والحديث الشريف: «ليس الفقير الذي ترده اللقمة .....إلخ»، ليس فيهما دلالة على فضل الفقر، وأنه الخيار المقدم على الغنى، وغاية ما يفهم من الآية والحديث ـ في هذا السياق ـ هو وجود فئة من الفقراء غلب عليها الحياء، تفضل الصبر على الفقر، والتعفف عن السؤال، لابد من النظر إليهم وإدراجهم ضمن الفقراء، «فالمدح ليس لذات الفقر وإنما لصبر وزهد وتعفف هذه الفئة، فإذا تحملت هذه الفئة شقاء الجوع والبؤس والحرمان فليس ذلك دليلًا على خير نظام ارتضوه لأنفسهم وإنما هو الواقع المر الذي فرض عليهم»[3].

ولا أُنكر أن هناك فقراء أوفياء لدينهم وقيمهم لايزالون بخير، مهما عضهم الفقر بنابه فهم ثابتون شامخون ، لا يذلون أنفسهم ولا يضيعون كرامتهم، وهذا لا يعني أن كل الفقراء كذلك، ولا يمنع أن غيرهم ـ وقد يكون الأكثر ـ قد ذلوا أنفسهم وفرطوا في دينهم وكرامتهم وقيمهم بسبب الفقر[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة برقم (٤٢٦٥) باب لا يسألون الناس إلحافا ، (٤ / ١٦٥١) دار ابن كثير مرجع سابق.

(٢) موطأ مالك عن أبي هريرة برقم ١٦٤٥ (٢/ ٩٢٣) دار إحياء التراث العربي تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) انظر كتاب «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي» صـ ٩٢ ، ١٠٠ ، مرجع سابق ، وكتاب الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ١٤٠ وما بعدها، مرجع سابق .

(٤) وهذا سأعرض له بالتفصيل ـ إن شاء الله ـ في هذا الفصل .

ثانيًا: ما ورد من أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء ... فهذا ليس فيه دليل على أن الفقر طريق إلى الجنة، فقد يعيش المرء طوال حياته فقيرًا مدقعًا، ومصيره إلى النار، والعكس صحيح، ويوم القيامة يمر على الغني التقي كساعة، ويمر على الفقير الشقي كخمسين ألف سنة.

ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وكم من غني تقي، وكم من فقير شقي.

ثالثًا: لقد تكلم كثير من العلماء عن خطر الفقر على منظومة القيم، وأنه عدو لدود للإنسان وأنه سبب التناحر والعداء والخصومة والشقاء ... وأن هناك آيات كثيرة وأحاديث صحيحة حذرت من ضياع أعظم القيم بسبب الفقر الواقع أو المحتمل.

ـ أما الآيات فمنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الانعام ١٥١].

ـ ومثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء ٣١].

ـ وأما الأحاديث فمنها قوله ﷺ: « اللهم إني إعوذ بك من الفقر والقلة والذلة » (١).

ـ وقوله ﷺ «ادرءوا الحدود بالشبهات»(٢)، حتى صارت قاعدة (٣) معمول بها، فقد تثبت السرقة على السارق ومع ذلك لا تقطع يده إن ثبت أنه جائع أو محروم كما فعل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام الرماة « فقد منع قطع يد السارق؛ لأنه اعتبر أخذه للمال أخذًا لحقه الذي يحق له بمقتضى التضامن ووجوب المساواة»(٤).

---

(١) حديث حسن رواه النسائي عن أبي هريرة برقم٥٤٦١ باب الإستعاذة من الذلة (٨ / ٢٦١) دار المطبوعات الإسلامية بحلب ١٩٨٦ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة الطبعة الثانية.

(٢) سنن البيهقي الكبرى (٨ / ٣١) لأحمد بن الحسين البيهقي/ ٤٥٨هـ/ ط سنة ١٤١٤هـ/ تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الباز مكة المكرمة.

(٣) انظر فقه السنة للشيخ / سيد سابق، ج٢ صـ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، طـ الفتح للإعلام العربي سنة ١٩٩٢م / ١٤١٢هـ.

(٤) انظر كتاب الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ ٦٤ ، ٦٥، مرجع سابق، وانظر كتاب نظرات في فقه الفاروق عمر صـ١٩٠، الشيخ محمد المدني طـ المجلس الأعلى لشئون الإسلامية سنة ٢٠٠٢م .

الإسلام الذي يحرك الجيوش لقتال مانعي الزكاة يسقط حد السرقة لمجرد شبهة الجوع والحرمان ويعفي السارق من قطع يده، وكأنه يلتمس له عذرًا، ويعترف الاعتراف الكامل بدور الغرائز في الحياة، وضغوطها، وأن الفقر يؤثر على الإرادة الحرة للإنسان.

وتأمل ما ورد في الكتاب العزيز من مدح للأنصار (الأوس والخزرج) أهل المدينة من أنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، ومع ذلك وجدوا في أنفسهم ـ على رسول الله ﷺ ـ عندما قسم غنائم حنين على المهاجرين دون الأنصار[١]. كل ذلك يؤكد أن الفقر يؤثر على القيم الفاضلة من قريب أو بعيد ويقتلها أو يمرضها أو يعطلها.

رابعًا: «الإسلام يجعل الغنى نعمة يمن الله بها، ويطالب بشكرها فلقد مَنّ الله على رسوله ﷺ فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى ٨]، وجعل إيتاء المال من عاجلة مثوبته لعباده المؤمنين، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠، ١٢] »[٢]، وإذا أراد الله أن يعاقب أمة طغت وفسدت ... سلب عنها النعمة، تأمل قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥:٢٩].

مناقشة المسألة الثالثة: خطورة الترف على القيم:

قد يكون الترف والغنى ـ البعيد عن هدى الإسلام ـ أشد على القيم الإيمانية، والإنسانية من الفقر، وهذا صحيح ولا ينكر، فالترف الزائد أخطر على القيم من الفقر المدقع أو مثله؛ (لأنه ليس من العدل ولا من الإنصاف ربط كل مصيبة أخلاقية بالفقر والاحتياج، سواء كان سوء الأخلاق في الجانب المادى كالسرقة والرشوة، فهذه الجرائم اتضح أن أشدها وأكبرها كان من أناس لا يعرفون كلمة فقر واحتياج،فوزراء ووجهاء ونواب في البرلمان ورجال أعمال وغير ذلك من أصحاب المهن المحترمة في دنيا الناس اتهموا بالرشوة والفساد وبعضهم ثبتت عليه التهمة وعوقبوا بالسجن، وكذلك سوء الأخلاق في جانب غريزة الجنس ليس الدافع له الفقر والاحتياج بقدر ما يكون الدافع تطلعات مادية ووفرة اقتصادية وامتلاك الأموال، والعرب يقولون تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها، وكثير من القصص المأسوية لم يكن باعث الفقر هو الدافع،بل كانت هناك دوافع أخرى ورآءها)[٣].

---

(١) للمزيد انظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٤١٣ وما بعدها مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ١٢ ، مرجع سابق.

(٣) أ.د/ أحمد ربيع يوسف،حولية كلية الدعوة الإسلامية،الجزء الثانى صـ٣٩ ، الثقافة الإسلامية، الإصدار الثانى، العدد الحادي والعشرون سنة١٤٢٧/١٤٢٨هـ،٢٠٠٧/٢٠٠٨م.

فالأغنياء والأقوياء ليسوا مبرئين من الاعتداء على القيم، وهذا موضوع آخر يحتاج إلى بحث مستقل، ليس هنا مجاله.

المجال هنا والحديث عن علاقة الفقر بالقيم، فالفقير الذي لا يجد ـ مثلًا ـ سكنًا مناسبًا لا شك أن ذلك يؤثر ـ سلبًا ـ على أخلاقه وقيمه؛ (لأن عدم توافر المسكن الملائم للأسرة ـ وهو أحد المشاكل الاقتصادية- قد يكون سبباً في ارتكاب الجرائم، فالأسرة التي تسكن في غرفة واحدة يصير الكل فيها مكشوفاً أمام الآخر ،اختلاط في المضجع قد يرى الأولاد ما يحدث بين أبويهم فيهيج سعارهم)[1] وكذلك الحال إذا احتاج الأولاد إلى الطعام والدواء .... وكانوا في حرمان، فكما أن تنغيص النوم مغضبة، فحرارة الجوع ملهبة، وعدم وجود الدواء بلاء، قَلّ مَن يصبر عليه.

وإذا كانت القيم مهددة من بعض الأغنياء فهي مهددة ـ أيضًا ـ من بعض الفقراء، والحكم بأن الغني ـ البعيد عن منهج الله ـ ينتهك القيم الإيمانية، والإنسانية، لا يمنع ان يكون الفقير ـ البعيد عن منهج الله أيضًا كذلك، لأن الحكم على الشيء لا يمنع الحكم على غيره.

خلاصة ما تقدم:

١ـ ما ورد من نصوص تمدح الفقر، كلها مردودة ولا تصح.

٢ـ لا يمدح الفقر لذات الفقر ولا الفقير لمجرد أنه فقير، وإنما المدح لاعتبارات وقرائن أخرى كالزهد والورع والصبر والتعفف.

٣ـ نعم هناك فقراء أوفياء لدينهم وقيمهم، ثبتوا على مبادئهم، ولم يتغيروا بسبب الفقر، وهذا لا يمنع أن هناك آخرين ليسوا كذلك.

٤ـ الترف الزائد قد يكون خطرًا على القيم من الفقر المتقع ـ وهذا صحيح ويحتاج إلى بحث مستقل ـ إذ إن الفقر سبب خطير من أسباب ضياع القيم، وليس هو السبب الوحيد.

والعلماء يؤكدون أن للفقر آثارًا خطيرة على العقيدة والعبادات والأخلاق والسلوك، والمعاملات، والفكر والأسرة والدولة والمجتمع ...... وهذا ما سأذكره بالتفصيل في الصفحات التالية، إن شاء الله تعالى.

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

المبحث الأول

أثر الفقر على العقيدة

وفيه مطلبان هما

١ـ سوء الظن بالله تعالى والشك في عدله والاعتماد على غيره.

٢ـ الاستعداد لقبول الأفكار الهدامة والمذاهب الإلحادية.

المطلب الأول: سوء الظن بالله تعالى والشك في عدله والاعتماد على غيره:

المرء الذي لا يستطيع أن يوفر لنفسه وولده ضروريات الحياة من طعام ودواء وسكن.... لا شك أنه مهموم بفقره، فالعجز والبؤس والجوع والحرمان آفات خطيرة على العقيدة «وبخاصة الفقر الذي بجانبه ثراء فاحش، وبالأخص إذا كان الفقير هو الساعي الكادح والمترف هو المتبطل القاعد ، الفقر حينئذ مدعاة للشك في حكمة التنظيم الإلهي للكون، والارتياب في عدالة التوزيع الإلهي للرزق ..... هذا الانحراف العقدي الذي نشأ من الفقر هو الذي جعل بعض السلف يقول: إذا ذهب الفقر إلى بلد، قال له الكفر: خذني معك !! وقال ذو النون المصري: أكفر الناس ذو فاقة لا صبر له، وقل في الناس الصابر»[1].

إن الفقير يبصر الغني وهو غارق في النعمة وقد يزداد الشك إذا كان الغني كافرًا أو فاسقًا قد جمع المال من حرام ويبعثره في غير ما خلق له، وله مَن يعينه على ذلك، والفقير بجواره لا يملك ما يسد به رمقه ومن يعول. لا شك أن ذلك يحمله على التفكير في عدل الله، وفي الطرق التي اغتنى بها جاره، وفي الأشخاص الذين أعانوه على ذلك الغنى، ويفكر في اتباعهم، والاقتداء بهم، والاعتماد عليهم، وقد تُوَجّه له النصائح، ويسمع المواعظ، فيقع في حيرة وارتباك، بين ما يعتقد ويسمع من جهة، وبين ما يجد ويشاهد من جهة أخرى

(إنه من العسير جدًّا أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عريانًا، إن حاجة هؤلاء التعساء إلى من يعرفهم أركان الحياة أمس من حاجتهم إلى من يعرفهم أركان الإسلام»[2]،(والإسلام يحارب الفقر لأنه خطر على العقيدة والأخلاق وسلامة التفكير والأسرة والمجتمع المحلي والأمة الإسلامية بوجه عام والفقر هو أساس المشكلات الاقتصادية المدمرة)[3].

إن صوت المعدة أقوى من صوت الضمير، وضغوط الحياة وهمومها المتكررة، والحاجة الملحة للصغار والمرضى أمام عائلهم ـ لا شك ـ أنها من أخطر البلايا والآفات على العقيدة الإيمانية.

---

(١) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ١٣، بتصرف يسير ، مرجع سابق.

(٢) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ٦١ ، ٦٢، مرجع سابق

(٣) مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى السنة الثالثة عشر، العدد التاسع والثلاثون ،سنة١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م صـ٨٧.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

وتأمل معي وقع هذا القول من الأغنياء لمن يحثهم على الإنفاق على الفقراء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٤٧].

لقد وعد الشيوعيون سكان روسيا في سنة ١٩١٧م بالسلام والطعام وامتلاك الأرض .... نظير تركهم لدينهم والتخلي عن عقائدهم، ورفعوا شعار ـ لا دين والحياة مادة ـ وروجوا فكرة أن الدين أفيون الشعوب[١].

«وإن المرء ليعجب، كيف تطابق ألوف من الخلائق على أن الحياة مادة بحتة، وأنه لا إلـه، ولا شرائع، ولا حساب، وكيف قامت للإلحاد هذه الدولة الشامخة تستمسك به وتدعوا إليه؟»[٢].

والأعجب من ذلك أن هذا الوهم الزائف وجد آذانًا مصغية في بلادنا، وربما لا يزال مَن يتمسك به ويدعوا إليه، ألا يدل ذلك كله على أن للفقر تأثيرًا سيئًا على العقيدة الإيمانية؟ صحيح أن كثيراً من الفقراء مهما عضه الفقر لن يتزحزح عن دينه، ولن يفرط في عقيدته، ولا يمنع ذلك أن المنصرين اهتموا بجانب الفقر واستخدموه كسلاح لاخراج المسلم عن دينه وهذا ما سأعرض له في الصفحات التالية.

* * *

(١) انظر كتاب أساليب الغزو الفكري د / على محمد جريشة ، ومحمد شريف الزيبق صـ ١٢٠ طـ دار الاعتصام ، بدون تاريخ.

(٢) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ١٣١ ، مرجع سابق.

المطلب الثاني: الاستعداد لقبول الأفكار الهدامة والمذاهب الإلحادية:

لقد فطن المُنَصِّرون لهذه المسألة، واستغلوها أسوأ استغلال، ولا يخفى أن البلاد التي ينشط فيها ما يسمى بالتبشير هي البلاد الفقيرة التي يحتاج أبناؤها إلى الطعام والدواء، ولم يقف التنصير ونشر المبادئ الهدامة في بلاد المسلمين، وبالأخص (مصر) عند حد حاجة الفرد الفقير إلى قارورة الدواء ورغيف العيش ... بل تعدى ذلك إلى استغلال حاجة الدول الفقيرة إلى المال والمساعدات والمنح(١)، فأدخلوا مفاهيم وأفكارًا لم يعرفها المسلمون من قبل، «أثاروا النعرات العرقية كمصر الفرعونية، وفصل الدين عن الدولة وهو ما يعرف بالعلمانية (اللادينية) وروجوا للديمقراطية بدلاً من الشورى والمواطنة بدلاً من عقد الذمة ..... والعولمة بدلاً من عالمية الإسلام، وهم الآن ـ بمثل هذه الأمور ـ يحاولون تشويه الإسلام وإضعاف قيمه»(٢).

إن هذه الأفكار مع ـ الأسف ـ وجدت طريقها إلى المجتمع المصري، وأصبح لها من يرعاها ويدافع عنها، فظهرت في المجتمع أحزاب تقوم على مثل هذه المفاهيم، بل وتوالى وتعادى على أساسها لا على أساس تعاليم الإسلام في الولاء والبراء(٣).

«إنه لا شيء ينال من مناعة البلاد وينتقص من قدرتها على المقاومة كفساد النفوس والأوضاع، وضياع مظاهر العدالة واختلال موازين الاقتصاد وانقسام الشعوب إلى طوائف، أكثرها مُضَيَّع منهوك، وأقلها في نعيم الملوك، ومثل هذه البلاد تكاد لا تنهال على أبوابها مطارق الفتح الخارجي والعدوان الأجنبي حتى تنهار الأبواب وتذل الرقاب»(٤).

والنشاط التنصيري واضح للعيان (والمؤسسات التي تشتغل بالتنصير لا تخفي أغراضها، ولا تلتزم النزاهة في وسائلها، ويسكت عنها في أغلب الأحوال مهما أسفت في سلوكها، وقد قرأت في صحيفة الجمهورية المصرية غضبة للرأي العام في بريطانيا على هيئة(وورلد فيجن) التي تقوم بالتنصير في أقطار أفريقيا تحت عنوان : (معونات اقتصادية للضغط الديني) قالت الجريدة : إن من بين

---

(١) انظر صـ ٧٤ فلقد سبق الكلام عن المنح المشروطة في المطلب الرابع من الفصل الثالث.

(٢) انظر كتاب «أساليب الغزو الفكري» صـ ٣٠،٣١ مرجع سابق، وكتاب محاضرات في مفهوم الاستشراق والتبشير، د/ محمد زين العابدين محمد الطشو صـ١١٠ وما بعدها، طـ١٩٨٨، بدون ذكر الناشر.

(٣) انظر كتاب «أساليب الغزو الفكري» صـ٨٣ ، مرجع سابق.

(٤) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ١١٣، مرجع سابق.

الاتهامات الموجهة للهيئة المذكورة لجوئها المتكرر إلى التهديد بقطع المعونات الغذائية لإرغام الفقراء الذين يتلقونها على حضور الأنشطة الدينية، وأرى أن هذه التهم يتضاءل كل ما فيها من شر إذا وزنت بما وقع أو يقع للمسلمين الذين يتعرضون للحملات التنصيرية ويذوبون في صمت تحت وهج حقد لا يفتر) [١] على الإسلام والمسلمين.

ولقد انتشرت في بلادنا أفكار ما أنزل الله بها من سلطان، وما كانت تذكر من قبل، كالقديانية، والبهائية، والبابية وكل صار له أنصار يطالبون الحكومات بالاعتراف بها كدين رسمي يقوم بجانب الإسلام والمسيحية (النصرانية)[٢]، بدعوى حرية الاعتقاد والمواطنة...ناهيك «عن الإيمان بالخرافات كالشعوذة والسحر ورقة العين والوسواس وتأخر النضوج والوعي، فالملاحظ في شبابنا في مصر أن نضوجهم يجيء متأخرًا أو مؤجلًا !! لقد تأخر النضوج إلى سن الثلاثين، ومنذ خمسين سنة كان الشاب في سن العشرين متزوجًا، يزاول عملًا ويرعى أطفاله، ويدير إدارات ويقود جيوشًا، ولكن في عصرنا هذا لا يحدث ذلك، تأجل الزواج وتأجل العمل والمسئولية، واعتمد الأبناء على الآباء، ثم نتسائل عن مشكلتين الإدمان، والتطرف ..... كيف تصح نفوس شبابنا؟ بينما من حوله يقنعونه صباح مساء ـ عمدًا أو بحسن نية ـ أن (الفهلوة والشطارة) هما الرأسمال الجديد؟»[٣].

وإذا كان المرء ـ بسبب الفقر ـ يسيء الظن بالله ويشك في عدله ، ويعتمد ـ في طلب الرزق ـ على غيره ـ كما أسلفت من قبل ـ فمن السهل واليسير وقوع مثل هذا في براثن الدعاوى المناوئة لقيم الإسلام، والقبول بأي عمل ولو كان على حساب دينه وأمته.

ولقد حذر النبي ﷺ من كل ما يضر بإيمان المسلم فقال: «بادروا بالأعمال سبعًا... فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[٤]، ولا شك أن الفقر المدقع يساعد على هذا التحول السريع.

---

(١) الشيخ محمد الغزالي كتاب علل وأدوية، صـ ١٩٤، ط دار الكتب الإسلامية الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤م.

(٢) انظر كتاب البهائية في المنظور الإسلامي الشيخ / محمد الخضر حسين، طـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية صـ ٥٩، عدد (١٦١) سنة ٢٠٠٨م.

(٣) كتاب تقوب في الضمير صـ١١٧ ، ١٥٥ ، ١٥٦ بتصرف، مرجع سابق.

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم ١١٨(١/ ١١٠)، (الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن)، إحياء التراث العربي مرجع سابق.

المبحث الثانى: أثر مشكلة الفقر على العبادة

وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول: التقاعس في التزام الفرائض بدعوى (العمل عبادة).

المطلب الثانى: تقلص الوقف الإسلامي.

المطلب الثالث: البخل وعدم إخراج الزكاة .

المطلب الرابع: مزاحمة الشعائر الدينية بالمشاريع الإنتاجية.

المطلب الأول: التقاعس في أداء الفرائض بدعوى (العمل عبادة):

هذه الجملة (العمل عبادة) كلمة حق ـ أحيانًا ـ يراد بها باطل، مثل أن يتذرع المرء بها في ساعة الجمعة وهو مكلف وقادر، وقد قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، [الجمعة: ٩]، فإذا قضيت الصلاة وانتشر الناس في الأرض لطلب الرزق الحلال بالعمل المشروع كما قال الحق سبحانه ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، [الجمعة:١٠]، يكون في هذه الحالة ذكرها في محله.

والمرء حتى يعرف متى تقال هذه الكلمة (العمل عبادة) ومتى لا تقال يجب عليه ـ على الأقل ـ أن يعرف أن العبادات لا يعارض بعضها بعضًا، وإنما يقدم الفرض العيني على فرض الكفاية، والفرائض المقيدة بالزمان أو المكان أو الكيفية [(١)] إذا حضرت لا تزاحم بأيٍ من العبادات الأخرى، قال ﷺ: «إن لربك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، وإن لضيفك عليك حقًّا، فأعطى كل ذي حق حقه»[(٢)].

والحق أن قليلًا من الناس من يعرف هذه الحقوق، ومن عرفها من ـ هذا القليل ـ قلما يحسن التعامل معها بحيث يقدم منها ما يجب أن يقدم ويؤخر ما يجب أن يؤخر.

(العمل عبادة) طالما ترددت على ألسنة الناس، لاسيما الفقراء الذين يبحثون عن الأرزاق بالأعمال الحلال[(٣)]، ناهيك عن الجهد والإعياء الذي يصنعه الفقر بأمثال هؤلاء مما يجعلهم يفترون أو يتكاسلون، إن لم يكن في أداء الفرائض، ففي النوافل والسنن والمستحبات، يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «كثيرًا ما وجدتُني أعالج وعظ الناس في بيئات صرعها الفقر والجهل والمرض، فكنت أحار .. ماذا أقول لهم؟ هل أُقَبّح لهم الدنيا، كما يظن أنه مفروض على علماء الدين؟

---

(١) كالصلوات الخمس ، وصيام رمضان ، ومناسك الحج والعمرة ، وجهاد الدفع لرد العدو المهاجم ...... إلخ

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن عون بن أبي جحيفة باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع (٢/ ٦٩٤) برقم (١٨٦٧)، دار ابن كثير مرجع سابق.

(٣) (العمل عبادة) كانت هذه الكلمة – ولا زالت– كثيرًا ما يحتج بها التاجر المتجول ، والبائع على الرصيف ، والفلاح في الأرض ، ومعظم هؤلاء من الفقراء.

إن الدنيا لن تكون أقبح مما عليه في أعين هؤلاء التعساء، وحاجتهم إلى من يعرفهم أركان الحياة أمس من حاجتهم إلى من يعرفهم أركان الإسلام، وجمهورهم لا يرى الأساليب الصحيحة للزراعة والصناعة والتجارة، فضلًا عن أن يعرف كيف يعامل ربه وإخوانه ... وحكامه.

إن معرفة الله تعالى لا سبيل إليها إلا بَعد معرفة النفس وهؤلاء التعساء مذهولون عن أنفسهم، تائهون عن حاضرهم ، إن الشعوب بالهوان والحرمان قد شل تفكيرهم، فأنى يعرفون ربهم أو يشعرون بما قدموا له؟! إنهم أعجز من أن يقدموا الحساب عن يومهم، فهيهات أن يأخذوا الأُهبة الحقة للدار الآخرة»[1].

وكم من آيات في الكتاب العزيز ذكرت عداوة الشيطان للإنسان، وأنه يتربص به، فإن عجز عن إيقاعه في المعصية أبعده عن الطاعة.

قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨]، وإذا كان الشيطان «يخوف الأغنياء من الفقر ليمسكوا ما بأيديهم فلا ينفقوه في مرضاة الله»[2]، فكيف به مع الفقراء؟

إنه لا يخوفهم الفقر، فهو واقع بهم، وإنما يعدهم الغنى ويمنّيهم، قال تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء :١١٧: ١٢٠].

إنها هي الطريقة التي اتبعها الشيطان لإخراج أبينا آدم عليه السلام وزوجه من الجنة، ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[طه: ١٢٠]، (الملك والخلد) وهما من مظاهر الغنى وليسا من مظاهر الفقر، ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف :٢١: ٢٢]، ونجح ـ الملعون ـ في صرفهما عن الطاعة وإيقاعهما في المعصية.

حقًّا، إن للفقر تأثيرًا على العبادة بمعناها الواسع، من طاعة وفرائض وشعائر، وأعمال برٍّ وخير.

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ٦١ ، ٦٢ ، مرجع سابق .

(٢) تفسير ابن كثير ج١ صـ ٣٠٤ ، مرجع سابق .

المطلب الثاني: تقلص الوقف الإسلامي:

عرفنا كيف أن الإنسان قد يجرؤ على المعصية بسبب الفقر، والذي يقدم على المعصية يحجم عن الطاعة ـ كما وضح في المطلب السابق ـ فإذا كان ذلك كذلك، في ميدان الواجبات والفرائض، فكيف يكون الحال في ميدان الإحسان وأعمال البر، كالوقف مثلًا، ولنقارن باختصار بين الوقف في الزمن الماضي والوقف الإسلامي الآن.

الوقف في اللغة هو: الحبس.

وفي الشرع: حبس العين على ملك الواقف والتصدق بالمنفعة، وعند أبي حنيفة: الوقف: «حبس العين عن التملك مع التصدق بمنفعتها،فتكون العين زائلة إلى ملك الله تعالى من وجه»[١]، أي: تبقى العين سواء أكانت أرضًا زراعية أم عقارات ومباني محبوسة لما وقفت له من خيره وبره.

هذا الوقف كان معروفًا وموجودًا بكثرة في بلاد المسلمين ومنها مصر «ولنظام الوقف وتاريخه في الإسلام دلالته الجلية على العناية بالضعيف في المجتمعات الإسلامية، فرصدت الأوقاف لتمويل المساجد، والمدارس، ومكتباتها، والمستشفيات، والملاجئ، وموارد المياه، وسائر المؤسسات التي تحارب الجهالة والعوز والمرض، وجاء في سجل وقف البيمارستان (المستشفى) المنصوري الذي أنشئ سنة ٦٨٢ هـ بمصر بأنه قد أقيم لعلاج، الكبير والصغير، الحر والعبد ، كذلك رصدت الأوقاف لإقامة الحمامات العامة، وسبل الماء والأطعمة والكسوة.

ونقرأ في حجج الأوقاف من ألوان من الخدمات التي كفلها الواقفون تنبئ عن حساسية مشاعرهم المؤمنة، »[٢] ، هذه قيم أصيلة كادت أن تندثر.

هل يوجد الآن من يوقف أملاكه لمثل هذه الأغراض؟ لقد تقلص الوقف الآن بمصر وصار لا ذكر له، وصارت الأوقاف عالة على وقف السابقين، وهذا ما أكدت عليه الدراسات:

تحت عناوين(إحياء مشروعات الأوقاف ... الحل لمشكلة الفقر)، لماذا انحسر الوقف في مصر؟ ولماذا تراجع الوقف الخيري والأسباب كثيرة ومنها الفقر وعدم الثقة في القائمين على الوقف الخيري وتوزيعه على مستحقيه»[٣].

---

(١) التعريفات للجرجاني صـ ٢٨٢ ، مرجع سابق، بتصرف يسير.

(٢) القيم الحضارية في رسالة الإسلام صـ ١٣٢ ، ١٣٣ ، مرجع سابق ، بتصرف واختصار شديد.

(٣) صحيفة الجمهورية بتاريخ ٢٩/١/٢٠١٠م، صفحة ٥/عدد ٢٠٤٨٦، وصحيفة الجمهورية بتاريخ ١٣/٢/٢٠١٠م، صفحة ١١، عدد (٢٠٥٠١).

وتحت عنوان (كيف نعيد ثقافة الوقف للمجتمع)، كتب عمر عبد الجواد ما يلي:

أكد د. يوسف إبراهيم مدير مركز صالح كامل الاقتصادي بجامعة الأزهر أن عودة الوقف مرة ثانية أمر ممكن، إلا أنها تحتاج إلى جهود شاقة حتى نبث الثقة في نفوس أصحاب رءوس الأموال الذين يرون أن أموالهم الموجهة لفعل الخير مهددة بالضياع بعد ما ألغت الثورة الوقف بإصدار قانون الإصلاح الزراعي مسايرة للموجة الاشتراكية التي كانت سائدة في تلك الفترة باعتبار أن المال من حق الشعب وبالتالي تم توزيع أموال الوقف على ملكيات صغيرة أفقدت الأجيال التالية الرغبة في وقف أموالهم على أعمال الخير مخافة أن تلقى نفس المصير ويحرمون من أجرها وفق ما يعتقدون[١].

المطلب الثالث: البخل وعدم إخراج الزكاة:

الأغنياء قد يدفعهم الخوف من الفقر أن يبخلوا بإخراج الزكاة، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

في عهد الخليفة الراشد أبي كر الصديق ﵁ تحركت الجيوش لقتال مانعي الزكاة، وعرفت هذه الحروب ، بحروب الردة، وكان للصديق موقفًا حازمًا تجاه هؤلاء حتى قال قولته المشهورة : «والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»[٢].

لقد علم الصِدّيق ﵁ أن الزكاة عبادة لا تقل في القيمة عن الصلاة، وأن من أنكرها فقد أنكر قيمة من أخطر وأهم قيم الإسلام التي لا يستقر المجتمع الإسلامي بدونها.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل يوجد في الأمة من يقوم بربع ١/٤ معشار ما قام به الصديق ـ وبدون قتال ـ لجمع أموال الزكاة من الأغنياء لسد حاجة الفقراء؟

إذا كان نصاب الزكاة من الفضة مائتي درهم أي ما يساوي ٦٢٤ جرامًا ومن الذهب عشرين دينارًا أي ما يساوي ٨٥ جرامًا من الذهب عيار ٢١ ،

فهل كل من ملك هذا النصاب وحال عليه الحول يخرج الزكاة بدافع الإيمان أو حتى خوفًا من السلطان؟

---

(١) صحيفة الجمهورية عدد (٢٠٤٨٦)، صفحة (٥) يوم ٢٩/ ١/ ٢٠١٠م.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير صـ٢٣٣ ج ٥ ،٦ المجلد الثالث ، مرجع سابق.

والجواب: بالطبع لا، ولم يكن السبب فقط هو غيبة السلطان وضعف الإيمان، وإنما هناك سبب آخر ـ لا يقل في الخطورة إن لم يزد ـ عن الأسباب الأخرى، ألا وهو الفقر الواقع أو المحتمل.

كثيرٌ من الناس يخشى الفقر ويعمل له ألف حساب وحساب، لقد كان ـ في الزمن الماضي ـ من يملك نصاب الفضة، يُعَدّ غنيًّا بإجماع العلماء، أما هو الآن ليس كذلك، لدرجة أن كثيرًا من العلماء يقدر النصاب بسعر الذهب لا بسعر الفضة؛ لأن نصاب الفضة لا قيمة له اليوم[1]، ويعزز هذا الرأي ما استجد من نفقات لم تكن معروفة من قبل، كنفقات التعليم، والصحة، والمرافق، والآلات الحديثة التي لا غنى عنها، والمواصلات، والسكن، كل ذلك شجع على البخل وعدم إخراج الزكاة، ولقد مرّ بنا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨].

لا سيما والناس يرون الأغنياء أهل الدثور والخير الكثير وهم يبخلون على الفقراء، ولا يعطونهم حقهم المعلوم، الذي ثبت لهم بالكتاب والسنة والإجماع، ولا يوجد من يحاسب أو يعاتب أو يعاقب.

لا شك أن هذا الجو، في هذه الأيام، وبهذه الظروف يشجع على زيادة معدلات الفقر وضياع قيم التكافل، فضلًا عن الفتاوى التي تصدر من بعض العلماء، والتي لا تصب في مصلحة الفقراء «ففي فقه الزكاة الذي يشيع بيننا الآن قصورًا لا يليق أن تبقى، هناك أحكام ينقصها السداد، وصور استجدت تضطرب فيها الفتيا، ويشعر جمهور كبير من المسلمين أنهم لا يعرفون رأي دينهم فيها، مثلًا: الأوراق النقدية؛ لأنها لا تخرج ذهبًا ولا فضة، لا زكاة فيها وكذلك العسل، وعروض التجارة، وأخطر من ذلك الرأي الحنفي الذي يأبى الجمع بين الزكاة والضريبة في الآراضي المزروعة ....»[2].

«هذه الفتاوى وغيرها، كانت سببًا في تعطيل الزكاة، أو التردد في إخراجها .... مما دعا كثيرًا من العلماء للتحذير من مثل هذه الفتاوى حتى لا تكون متكئًا للأغنياء في إخراج الزكاة، وبيان دور الدولة المسلمة تجاه هذه الفريضة المتروكة للاختيار الحر والإرادة المطلقة ومضار ذلك على الفقراء»[3].

---

(١) نصاب الفضة بسعر اليوم ١٥/ ٦/ ٢٠١٠م ، يساوي (٢٠٠٠) ألفين جنيهًا مصريًّا لا غير ، هل يعد مَن ملك ألفين جنيهًا مصريًّا غنيًّا بمقاييس الغنى والفقر اليوم؟ والجواب: لا،؛ لأن متطلبات الحياة اليوم أكثر بكثير من الماضي.

(٢) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ١٦٥ وما بعدها ، مرجع سابق .

(٣) الدكتور يوسف القرضاوي صـ٤١٥ وما بعدها ، كتاب (دور القيم والأخلاق من الاقتصاد الإسلامي) ، مرجع سابق ، وكتاب (فقه الزكاة) ، وكتاب (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) صـ١٦٥ وما بعدها، مرجع سابق.

المطلب الرابع: مزاحمة الشعائر الدينية بالمشاريع الإنتاجية:

كانت المساجد ـ عبر تاريخ الإسلام في مصر ـ تؤدي رسالتها التي بنيت من أجلها كما ينبغي، فما تعطلت الشعائر أو شُوش عليها، وما توقفت الكتاتيب، أو تحولت إلى دور للحضانة الاستثمارية، أو الدروس الخصوصية (مجموعة التقوية) كما هو الحال الآن[١] .

وما كان يخطر ببال أحد ـ عند بناء المسجد ـ أ ن يبني معه، أو فوقه محال تجارية وأماكن مهيئة لإقامة الأفراح وسرادقات العزاء، وكل ما يبنى مع المسجد يخطط له سلفًا لخدمة الدعوة، وطلبة العلم، ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة أن تقارن بين الأروقة التي بنيت مع الجامع الأزهر والقاعات التي بنيت بمسجد النور بالعباسية، ومسجد الفتح بميدان رمسيس وغيرهما كثير.

أليست المساجد بنيت للعبادة التي روحها الخشوع والتعقل والسكينة والوقار؟ كيف تكون العبادة في مساجد تضرب حولها الأسواق؟ أليست الأسواق شر بقاع الأرض، والمساجد خير بقاع الأرض؟ كيف يجتمعان؟

إن ما يبنى لصالح الدعوة والعلم والفقراء لا غبار عليه، أما ما يبنى لمزاحمة الشعائر، ورفع الأصوات بالبيع والشراء فهذا ما يرفضه الإسلام، قال ﷺ : «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا له : لا أربح الله تجارتك»[٢].

وإن شئت فانظر إلى المحال التجارية والورش الصناعية التابعة للمساجد في القاهرة فقط، أمام مسجد الإمام الحسين رضي الله عنه، وما حوله من مساجد، وفي ميدان العتبة، ومسجد السيدة زينب رضي الله عنها، والمساجد الواقعة في حي الجماليّة بالكامل، والمساجد الكائنة بالميادين العامة، والقريبة من الأسواق التجارية، والمرفق بها دور مناسبات فضلًا عن تجار الأرصفة الذين تطاردهم شرطة المرافق (البلدية)، فيندفعون بقوة إلى المساجد بصرف النظر عن الشعائر المقامة أو طهارة المسجد الذي تدوسه أقدامهم، وترتفع الأصوات في المساجد بالإنكار عليهم من قبل المصلين، وبدفاعهم عن أنفسهم بحجة الفقر، وظروف المعيشة، والكسب الحلال.

---

(١) معظم المساجد الحديثة تقريبًا، تبنى ويبنى معها أو فوقها أو بجوارها مشاريع تجارية بقصد الإنتاج ، وتوجد الآن إدارة كاملة بالأوقاف لإدارة مثل هذه المشاريع تسمى الإدارة العليا للخدمات الاجتماعية، وكذلك الحال بالنسبة للمساجد الأهلية ، والجمعيات الخيرية .... ومع أن هناك شروطًا وضوابط ، من أبرزها ـ عدم مزاحمة الشعائر ـ ولكن للأسف قلّ مَن يلتزم بها بدعوى حاجة الفقراء إلى المال الذي توفره هذه المشاريع، هذا ما تأكد للباحث في الدراسة الميدانية عن طريق القائمين على هذه المشاريع.

(٢)صحيح ابن حبان عن أبي هريرة برقم ١٦٥٠ مؤسسة الرسالة (٤/ ٥٢٨) مرجع سابق.

المبحث الثالث: أثر مشكلة الفقر على الأخلاق والسلوك:

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: ظاهرة السب والمجاهرة بالألفاظ غير اللائقة.

المطلب الثاني: الاعتداء على الوالدين والأولاد والمحارم.

المطلب الثالث: قبول العمل في المهن اللاأخلاقية، والكسب اللامشروع.

المطلب الرابع: الحقد والحسد من الفقراء على الأغنياء.

المطلب الخامس: إهمال قيمة التسامح في المعاملات بين الناس.

المطلب الأول: ظاهرة السب والمجاهرة بالألفاظ غير اللائقة:

بينت أن للفقر آثارًا خطيرة على العقيدة الإيمانية التي هي المحرك والدافع للسلوك الإنساني، فإذا كانت عقيدة الإنسان تهتز وتطرب ويصيبها الفتور والمرض ـ بسبب الفقر والحاجة ـ فكيف يكون حال هذا الفقير البائس مع الناس، لاسيما مَن يتصل بهم ويتعامل معهم؟ كالأطفال في ورش الحدادة، وأعمال البناء وغيرها من الأعمال الشاقة لأن الفقر والظروف المعيشية تجعل كثيرًا من الفقراء يجاهرون بألفاظ غير لائقة، لاسيما الصغار الذين ينشأون في مساكن رديئة وظروف صعبة لأن(الحى السكنى الذي يعيش ويشب فيه الحدث له تأثير مباشر على سلوكه في منسوب الإنحراف في مناطق معينة عنه في أخرين كما أن نوعية السكن الذي يعيش فيه الحدث له دور في سلوكه فإن كان ضيقًا مقتظًا خاليًا من النوافذ فإن ذلك من شأنه أن ينزع عن السكان صفة البيئة الصالحة لنمو الحدث وهذه المناطق عادة ما تكون موطنًا للعائلات الدنيا معيشيًّا)[1].

يقول حيدر قفة: «خلق الله الناس طبقات ومستويات ... وهذا الاختلاف منشأه اقتصادي، انعكس بشكل أو بآخر على حياة الناس من حيث السكن والبيئة والوسط الاجتماعي والمستوى التعليمي والأخلاقي .... وهي مناح مهمة في مسيرة حياة الفرد، ومَن عاش في بيئة ما وتغلغلت فيه هذه البيئة تطبع بطباعها، ولا يجد غضاضة في أي سلبية مستشرية في بيئته وبين الناس، وإن بعض البيئات قد تأثرت بالوضع الاقتصادي مما انعكس على أهلها سلبًا، وذلك يجب ألّا يصل إلى الأخلاق بحال؛ لأنها آخر حصون الإنسان السوي.

وسأكتفي بذكر سلبية واحدة قاتلة (سب الدين) والتطاول على الذات الإلهية ... رأيت هذا وسمعته من عمال البناء، ومن عمال في مجالات أخرى، ومن بعض الموظفين، وبعض طلاب المدارس، والأطفال دون سن المدرسة، دون أن يشعر الساب للدين بأدنى حرج أو إثم»[2].

---

(١) إبراهيم عبده الشرفاوي كتاب انحراف الأطفال المسمى بجرائم الصغار، صـ ٢٧، ط مكتبة العفاني، ط أولى سنة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(٢) حيدر قفة كتاب من أجل الإسلام صـ٤٣،٤٤ وما بعدها، ج١ الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، المكتبة الوطنية عمان.

يرى كثير من العلماء «أن من أسباب الجريمة عوامل اجتماعية منها الاقتصادية كالفقر الذي يعد عاملًا أساسيًا في تكوين السلوك الإجرامي والبيئة التي تهيأ فيها الفرص لارتكاب الجريمة، ومنها انعدام الاستقرار الاقتصادي الذي يكون بين رخاء تقل فيه جرائم الأموال وهبوط تكثر فيه تلك الجرائم وغيره، ومنها تطور البناء الاجتماعي وازدياد نموه الذي يزداد بسببه نظامه تعقيدًا ينتج عنه عدم التجانس والتوافق، بسبب زيادة القيود والأنظمة، فتنطلق شهوات الأفراد ضد تلك القيود والأنظمة [١]، ومن هنا تكون الجريمة ناشئة عن عوامل اجتماعية، ومنها أن الفرد في المجتمع يقلد غيره بحيث يقلد الصغير مَن هو أكبر منه نتيجة اختلاط أفراد المجتمع الواحد في العائلة والحي والرفقة والوظيفة والزمالة وغيرها»[٢].

ويشتد الخطر إذا كان التقليد في مراحل العمر الأولى وتحت وطأة الحاجة، فالمرء الذي يعاني من مشاكل اجتماعية واقتصادية استعصت على الحل، قلما يحتفظ بأخلاقه وقيمه الدينية والإنسانية، نعم إن «الفقير المحروم كثيرًا ما يدفعه بؤسه وحرمانه ـ وخاصة إذا بجوره الطامعون الناعمون ـ إلى سلوك ما لا ترضاه الفضيلة والخلق الكريم، وشر من ذلك أن يؤدي هذا الحرمان إلى التشكك في القيم الأخلاقية نفسها، وعدالة مقايسها كما أدى إلى التشكك في القيم الدينية، فتراه يسب الأيام والليالي والمعيشة والأقدار، يقول الله تعالى في الحديث القدسي:«يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»[٣]

وفي بيان أثر الدَين على المستدين قال ﷺ: «إن الرجل إذا غرم استدان ـ حدث فكذب ووعد فأخلف»[٤].

---

(١) هذا المناخ يساعد على انتشار الجرائم ، وسب الدين من أخطر الجرائم التي يعاقب عليها الشرع وقد يصل الحكم فيها إلى القتل إن لم يتب باعتباره مرتد عن الإسلام / انظر كتاب (فقه السنة) صـ٤٣٨ ج٢ طـ الفتح للإعلام العربي سنة ١٩٩٢م.

(٢) كتاب «سبب الجريمة » الدكتور عبد الله بن أحمد قادري صـ ١٦، ١٧، طـ الثانية، دار المجتمع للنشر والتوزيع سنة ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة برقم(٤٥٤٩) باب تفسير سورة حم الجاثية (٤/ ١٨٢٥) دار ابن كثير مرجع سابق.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، باب من استعاذ من الدين في كتاب الاقتراض والحجر والتفليس (١/ ٢٨٦).

«والملاحظ أن الجوانب السلبية تنتشر في المجتمع النامي بشكل أسرع كثيرًا من الجوانب الإيجابية، وهذه مشكلتنا في البلاد النامية وهناك من لديه استعداد لقبول كل شيء بلا تحفظ»[1].

انظر إلى أفراد المجتمع أمام أفران الخبز المدعم، وانظر إليهم أمام الجمعيات التعاونية، وأمام المستشفيات العامة، وعند قطع التذاكر للسفر، أو العلاج، وفي الجمعيات الخيرية، ولجان الزكاة، فإن حالهم يغني عن سؤالهم، وكثيرٌ منهم عندما سألتهم في ـ البحث الميداني ـ وجدته يتألم ولا يجيب على أسئلة الاستبيان إلا بمرارة.

المطلب الثاني: الاعتداء على الوالدين والأرحام:

إذا كان النبي ﷺ يعلن أن «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[2]، فكيف إذا كان هذا المسلم المعتدى عليه هو أحد الوالدين أو الأقربين؟ قد يكون ذلك لسوء التربية، وقد يكون بسبب الفقر، أو بسببهما معًا.

«كان المصريون قبل هذه الأيام يحترمون السن احترامًا كبيرًا، فالصغير يحترم الكبير، والأولاد يحترمون الآباء فلا يدخنون أمامهم، ولا يرفعون صوتهم أمامهم، وأكبر الأخوة عادة يقوم مقام الأب ... ويظهر أيضًا هذا الاحترام في المخاطبات، فمن كتب لمن هو أكبر منه سنًّا افتتح خطابه بقوله: أبي أو سيدي أو والدي ... وإن كان نظيره قال له أخي ...»[3].

كل هذا الاحترام قد طرأ عليه شيء من التغيير والتحول، وقد يقول قائل: وما دخل الفقر في هذه المسألة؟ والجواب: أن الفقر له دخل كبير في تغيير السلوك الحميدة والعقائد الثابتة، فالحرمان يؤثر على التربية السليمة ويشغل الآباء عن الأبناء للبحث عن الرزق ومضاعفة ساعات العمل فلا يجد الفقير الرعاية الكاملة من أبويه، ويفقد الوالد القوامة وقد عجز عن الإنفاق ولقد سمعت مرارًا من يلعن والديه؛ لأنهما لم يوفرا له أبسط متطلبات الحياة، وكم أكد العلماء بل وحذروا من هذه الظاهرة

---

(١) مجلة منبر الإسلام سنة ٦٨، عدد (١) المحرم سنة ١٤٣٠هـ سنة ٢٠٠٩م / صـ٥،٤ بتصرف.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله باب ما ينهى من السباب واللعن برقم (٥٦٩٧) (٥/ ٢٢٤٧) دار ابن كثير، مرجع سابق.

(٣) قاموس العادات والتقاليد المصرية صـ٢٠٠ ، مرجع سابق .

واعتبروها ناقوس خطر[١]، يجب أن توضع له التدابير اللازمة لمواجهته، ومنها التوعية الدينية ورفع مستوى المعيشة، والقدوة من الآباء والرفقاء والمجتمع .... ولا يخلو يوم - تقريبًا - إلا وتطالعنا بعض الصحف عمن قتل أمه أو أباه أو أحد أقاربه أو اعتدى عليهم بالضرب أو السب أو الأذى[٢].

إن البؤس والحرمان وضغوط الحياة لا شكّ أن ذلك إذا اجتمع يؤثر على قيم وأخلاق الناس، لاسيما في المناطق الشعبية المزدحمة بالسكان والتي بها حمامات مشتركة، وكم كان ذلك سببًا في نشر الرذيلة وانتشار الأوبئة والعداوات والخصام، وإليك مثالًا واحدًا على ذلك نشرت جريدة الحوادث: «إن عماد قتل شقيقه؛ لأنه لم يخرج له من الحمام، حيث لا يوجد إلا حمامٌ واحدٌ وكان أخوه بداخله وطلب منه عماد أن يخرج بسرعة؛ لأنه لا يستطيع الانتظار ... وانتهى الأمر بقتله لأخيه»[٣].

ناهيك بقطيعة الرحم والظلم في الميراث والجور على الأقارب والأهل ... وهذا سأذكره في مطلب لاحق - إن شاء الله تعالى -.

---

(١) ولا يمنع أن يكون هناك فقراء لا يزدهم الفقر إلا برًّا بوالديهم، كما لا يمنع أن يكون الفقر سببًا من أسباب العقوق، انظر (أبناؤنا مشكلات وحلول)صـ٦٧، صـ١٤٥ط دار الكتب المصرية سنة ٢٠٠٧م، وكتاب/ منهج التربية في الإسلام/ محمد قطب ط دار الشروق ج١ سنة ١٩٨٩م.

(٢) وعلى سبيل المثال ما نشر في صحيفة الجمهورية عدد (٢٠٣٨١) صـ١٤ بتاريخ ١٦ / ١٠ / ٢٠٠٩، عمن طرد أمه وأباه من المنزل، وفرض الوصاية بالقوة على والديه وأخوته ... كما تقول الصحيفة، وصحيفة الحوادث المصرية صـ٨ العدد (١٤٦) ١٨ / ١٠ سنة ٢٠٠٩م عن مَن ذبح أمه بسبب الضغوط الحياتية التي يعاني منها المواطن المصري، كما تقول الصحيفة ......

(٣) صحيفة الحوادث العدد (٦٣)، بتاريخ ١٧/ ١٠/ ٢٠١٠م.

المطلب الثالث: قبول العمل في المهن اللاأخلاقية والكسب اللامشروع:

خلق الله ﷻ الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]؛ لأن الإنسان ـ لاسيما المؤمن ـ يختلف عن سائر المخلوقات فهو إنسان له خصائصه التي تميزه «وهو الكائن الوحيد ـ في هذا الكون ـ الذي لا يستطيع أن يعيش بدون قيم تحكم سلوكه، وتضبط تصرفاته، فالقيم معايير للسلوك الإنساني لا يمكن الاستغناء عنها، وهي التي تميز الإنسان عن الحيوان، والفرق بين من يلتزم بالقيم ويحافظ عليها، ومن لا يعيرها اهتمامًا كالفرق بين من يتنفس هواءً نقيًّا وهواءً فاسدًا»[1].

والإنسان بدون القيم الإيمانية والقيم الإنسانية، إما شيطان رجيم وإما حيوان بهيم، وحتى يحافظ الإنسان على هذه القيم لابد له من مقومات حياة كريمة في حدود استطاعته وشريعة ربه.

والله ﷻ هيأ سُبُل العيش الكريم للإنسان في كل مراحل حياته.

تأمل قوله سبحانه لأبينا آدم عليه السلام وهو في السماء يوجهه الحق لدخول الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ـ ١١٩].

وعندما نزل آدم عليه السلام إلى الأرض قال الله له : ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه ١٢٣ـ ١٢٤].

وقوله سبحانه : ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر ١٩ـ٢٠ـ٢١].

وما أكثر الآيات التي تكلمت عن خيرات الله وما سخره في هذا الكون للإنسان ليعيش هذا الإنسان على منهج الله وما جاء به المرسلون، قال ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2]، ومع هذا كله فكثير من الناس ـ لأسباب كثيرة ـ ومنها الفقر قد يقبل العمل في المهن اللاأخلاقية، ويبحث عن الكسب اللامشروع .

---

(١) مجلة منبر الإسلام صـ ٤١، سنة ٦٨ عدد (١) المحرم سنة ١٤٣٠هـ صـ٥،٤ بتصرف.

(٢) رواه البيهقي في السنن عن أبي هريرة باب مكارم الأخلاق (١٠/ ١٩١) دار الباز مرجع سابق والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٥).

وفي إشارة إلى علاقة الفقر والغنى بالفضائل والرذائل[١]، ذكر ﷺ: «حديث الرجل تصدق بالليل على رجل فصادفت صدقته سارقًا، فتحدث الناس بذلك قالوا: تصدق على سارق ثم تصدق مرة أخرى على امرأة فصادفت صدقته زانية، فأصبح الناس يتحدثون بذلك، تصدق الليلة على زانية، فجاءه في المنام من قال له: أما صدقتك على سارق فلعله يستعفف عن سرقته، وأما صدقتك على زانية فلعلها أن تستعفف عن زناها»[٢].

«ففي الحديث المتفق على صحته من رواية ابن عمر رضي الله عنهما عن الثلاثة الذين [٣] آواهم المبيت إلى الغار فسقط صخرة وسدت عليهم باب الغار، وأخذ كل منهم يتوسل إلى الله بأرجى عمل عمله فقال أحدهم: «اللهم كانت لي ابنة عم وكنت أحبها كأعظم ما يحب الرجال النساء فأردتها عن نفسها فامتنعت حتى ألمت بها سنة من السنين ففعلت .... الحديث، ما الذي جعل المرأة العفيفة تقبل بالرزيلة وهي كارهة أن تخلي بينها وبين ابن عمها؟ إنها الحاجة والفقر (ألمت بها سنة من السنين)، وهذا هو الشاهد.

والفقير معرض ـ أكثر من غيره ـ للوقوع في شباك وشراك هذه المصائب التي تلاحقه وتلح عليه، وتلوح بين ناظريه، ويزداد البلاء إذا رأى من حوله ينظرون إلى أرباب هذه المهن على أنهم نجومٌ ورجال أعمال لهم مكانة وتقدير واحترام، وهو ـ أي الفقير ـ لا شيء بجانب هؤلاء، وقد لا يسلم من العداء والازدراء ، وذلك يجعل الفقير ينقاد للرذائل أكثر من غيره، ويضعف أمام الإغراءات.

يقول الشيخ محمد الغزالي: «أن للرذائل أسبابًا اقتصادية، وأن الطبقات البائسة لن تجد الجو الملائم للأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة ..... فقد توجد أحوال شديدة تقف بالإنسان على شفا جرف هار، وتطلق فيه غرائز الدنيا، ويتضافر الحرمان والإغراء معًا على سوق المرء إلى الجريمة سوقًا عنيفًا، وخير لنا أن نتعرف الأمور من وقائع الدنيا نقرر أن النسبة الكبرى من الرذائل تعود إلى واحد من الثالوث المستوطن في أرجاء أمتنا، الجهل والفقر والمرض»[٤].

---

(١) مشكلة الفقر وكيف عالجها اللإسلام صـ ١٤ ، مرجع سابق.

(٢) مجلة منبر الإسلام سنة ٦٨، عدد (١) المحرم سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م صـ ٤ ،٥ بتصرف .

(٣) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر برقم (٢١٥٢) باب من استأجر أجيرا فترك أجره (٢/ ٧٩٣) دار ابن كثير مرجع سابق.

(٤) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ٦١ : ٦٣ بتصرف .

التكسب عن طريق الزنا وبيع الأطفال:

يقول الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الزنا جريمة خلقية واجتماعية بالغة الفحش، ولعل الاختلال الاقتصادي بما يخلق من بؤس وترف ـ أهم الأسباب المؤدية إلى هذه الجريمة»[1].

وتقول زينات إبراهيم : «وصف تقرير حقوق القاهرة بأنها عاصمة بيع الأطفال، وهي ليست القضية الوحيدة التي تجسد هنا التوحش الآدمي الذي يدفع بالآباء والأمهات لبيع أبنائهم للحصول على المال وهروبًا من الفقر وقسوة الحياة.

ثم ذكرت الكاتبة تفاصيل مطولة عن شبكات وعصابات بيع الأطفال من الأطباء والآباء والدايات وسماسرة السوء .... فضلًا عن ممارسة الرذيلة والفحشاء .... وتعجبت الكاتبة أن يتم ذلك على أرض الكنانة مصر !!»[2].

إن الفقر إذا اقترن بالجهل وضعف الإيمان، فإنه يأتي بالعجائب التي تجعل المرء لا يعبأ بقيم ولا أخلاق، ولا دين ولا عُرف، اللهم إلا ما رحم ربي.

التكسب عن طرق التسول:

لقد تأكد أن الفقر يدفع ـ أحيانًا ـ إلى التسول ، والتسول لا يجد مناخًا ملائمًا أفضل من المساجد، ورواد المساجد مع أن «الشحاذين ينتشرون في مصر انتشارًا كبيرًا على أشكال وأنواع[3]، فمنهم من يتجول في الشوارع والحارات.

ومنهم من يقف على أبواب الأولياء والمساجد، ومنهم من يترقب غفلة الناس فيأخذ النذور وليس عملهم إلا نوعًا من الشحاذة، فيدعون دعوات دينية تدعو إلى الكرم والإحسان وقد يستخدمون وسائل موسيقية كالضرب بالدف، والتغني بمدح النبي ﷺ ، ومنهم في العصر الحديث من يتخذ حرفًا شكلية لا قيمة لها كالوقوف أمام السيارات وعند الخروج من الملاهي ونحو ذلك. وكان مقتضى جو مصر وإمكان الاكتفاء بقليل من المأكولات ومقتضى ثروة البلاد أن يكون الشحاذون أقل من هذا، ولكن كثيرًا منهم اتخذها حرفة، وهم يكثرون عادة عندما يستطيعون أن

---

(١) المرجع السابق صـ٦٦.

(٢) صحيفة الجمهورية يوم ٤ / ٢ / ٢٠١٠ العدد (٢٠٤٩٢) صفحة ٢٩ .

(٣) ذكرت هذه المسألة في المطلب الثالث من هذا الفصل تحت عنوان (قبول العمل في المهن اللاأخلاقية واللامشروعة).

يستفزوا عواطف المسلمين للإحسان كأوقاف زكاة الفطر ورمضان والعيد الكبير وغير ذلك، ومنهم من يدخل المساكن ويستجدي ويتصنع الفقر، والبؤس، إما بالعرج، أو بالعمى، أو بآفة نزلت به كالجرب، والبرص، أو بحادث نزل به كقطع يده، ورجله، ونحو ذلك. وكلما جهدت الحكومة أن تمنعهم بالتقنين بمنع الشحاذة وجمعهم في الملاجئ ذهبت أعمالها في هذا السبيل أدراج الرياح وعاد الشحاذون كما كانوا.

واشتهر شحاذو السيدة زينب والسيد البدوي بالإلحاح في الطلب فيقولون إذا أرادوا ملحا (زي شحاتين السيدة، أو شحاتين السيد)، وبعض الشحاذين يظهرون الفقر ويلبسون الأخلاق البالية»[1].

مع أن بعض هؤلاء ليس فقيرًا بالدرجة التي تسمح له بالسؤال واستجداء العطف وطلب المساعدة .... إلا إن كثيرًا منهم فقير بالفعل، أو على الأقل كان فقيرًا، فالفقر سبب دافع إلى التسول.

يقول الدكتور جلال أمين: «أفظع ما في الأمر، أنني بين حين وآخر أصادف بعض الظواهر التي أصبحت تعيد إليّ ذكرى الأربعينيات ومطلع الخمسينات، ليس أسوء هذه الظواهر عودة المتسولين بكثرة إلى الشوارع، والتضاعف السريع في عدد من يبيعون على قارعة الطريق كميات تافهة من سلع أكثر تفاهة وهم شباب قويوا البنية على الرغم مما يبدوا عليهم من مظاهر سوء التغذية، الأسوأ من هذا ما يبدو من عودة الانقسام الحديدي بين طبقات المجتمع، وانتشار روح اليأس من إمكانية العبور من طبقة إلى طبقة أخرى، والمذلة التي أصبحت تطبع سلوك عدد متزايد من أفراد الطبقة الدنيا»[2].

إن مسألة العبور من الطبقة الدنيا، إلى طبقة أخرى بالطرق المشروعة، يظن كثيرٌ من هؤلاء الذين استمرءوا الشحاذة أنها مستحيلة في ظل الظروف الاقتصادية القائمة، ويرون أن أقصر الطرق لسد حاجاتهم والوصول إلى درجة الغنى هي التسول في المساجد وفي الطرقات.

ومع أن الحكومات تكافح التسول ولا ترضاه لشعوبها، وتضع القوانين لمنعه والحد منه ... إلا إن الظاهرة موجودة، وفي ازدياد، والواقع يؤكد ذلك فضلًا عن ما ذكره العلماء[3].

---

(١) قاموس العادات والتقاليد صـ٢٠٥ ، مرجع سابق .

(٢) كتاب ماذا حدث للمصريين صـ ٨١ ، مرجع سابق .

(٣) للمزيد من المعلومات حول انتشار ظاهرة التسول في مصر ، انظر كتاب «احترس مصر ترجع إلى الخلف» صـ ٤٩: ١١٥، مرجع سابق.

يقول الدكتور القرضاوي عن التسول والشحاذة: «ومما ينبغي ذكره أن التسول والشحاذة لها صور وأساليب شتى، قد تروج عند بعض الناس ويحسبونها ضربًا من العمل والسعي للمعيشة مع أنها ـ عند التأمل ـ ليست إلا تسولًا رخيصًا مطليًا بطلاء كاذب ... ولا أجد أفضل ولا أصدق مما قاله الإمام الغزالي في (الإحياء) عن هذه الحرف اللئيبة التي أسماها (الكدية) أي: الشحاذة.

- ذكر أن بعض هذه الحِرف لا يمكن مباشرته إلا بعد تعلم وتعب في الابتداء.
- وأن التسول كاللصوصية إذ يجمعها أنهما يأكلان من سعي غيرهما.
- وأن كلًّا من اللصوص والشحاذين ينتهز الفرص ويبتكر الحيل التي تزيد في صورها وأنواعها عن الألف والألفين»[1].

والمتأمل فيما ذكره الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ يرى كيف يعمل هؤلاء على محاربة القيم الأخلاقية كالحياء، والمروءة، والتعفف،والزهد، والصبر الجميل، والعمل المنتج ... إذ يعملون على قتل هذه القيم في مهدها وتربية ضحاياهم على البرود وفقدان الحياء الحس الإنساني الذي فطر الله الناس عليه.

«وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة، والشعوذة والأفعال المضحكة، وقد يكون بالأشعار الغريبة، والكلام المسجع مع حسن الصوت .. الذي يحرك داعية العشق من أهل المجانة، كصنعة الطبال في الأسواق، وبيع التعويذات، وخداع الصبيان والجهال، وأصحاب القرع والفأل والمنجمين»[2]، وإيهام البسطاء في الريف أن أجسامهم بها جان وديدان، وأن بيوتهم بها حيات وعفاريت، وأن ذلك يجب أن يخرج مقابل أموالًا ..... إلخ.

والحق أن معظم هؤلاء المتسولين من الأغنياء، إلا أنهم بدأوا يتعلمون التسول وهم فقراء، ثم استمرؤا الأمر واستحسنوه، والأعداد الغفيرة التي رآها الباحث أمام لجان الزكاة، والجمعيات الخيرية والشئون الاجتماعية تؤكد ذلك[3].

---

(١) راجع مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ ٤٨ ، ٤٩ ، مرجع سابق، وكتاب إحياء علوم الدين ج٣ صفحة ١٩٧ وما بعدها ، مرجع سابق .

(٢) إحياء علوم الدين صـ١٩٧، ١٨٩، مرجع سابق .

(٣) انظر البحث الميدانى ص..........

الكسب عن طريق المخدرات:

وعن المخدرات والعمل بها لأسباب، منها: ـ انخفاض مستوى المعيشة،أذكر هنا ما أعلنه/ مدير الإدارة العامة لمكافحة المخدرات في مؤتمر صحفي عقد بمقر الإدارة: «أنه تم ضبط (٥٠) ألف متهم في (٤٦) ألف قضية مخدرات في العام الماضي فقط»[١].

ومعلوم أن تجار المخدرات من الأغنياء، والأقوياء، وربما الأمراء وليسوا من الفقراء ،بيد أن هؤلاء وهؤلاء معلوم أيضًا أنهم لا يوزعون هذه البضاعة على الضحايا بأنفسهم، وإنما وراء كل واحد من هؤلاء التجار جيش من الأتباع والأنصار والعمال الذين يحرسون وينقلون ويوزعون ويروجون، ولا يخفى أن كثيرًا من الفقراء بدافع الحاجة وقلة ذات اليد يقعون في براثن هذه النسور القشاعم.

إذن الفقر يدفع بصاحبه إلى العمل في المهن اللاأخلاقية، والأعمال اللامشروعة، وإن كان ذلك ليس مبررًا أو عذرًا يعفى به الجاني من المؤاخذة الشرعية والقانونية، إلا أنه واقع ملموس طالما ركنت إليه النفوس المريضة ووجدت فيه الشبهة التي تدرأ الحد أو تخفف الحكم.

والواقع يتحدث في اعترافات الواقعين في مستنقع الرذيلة وفي مذكراتهم ما يدل على أن الفقر والحاجة إلى المال كان سببًا في سقوطهم وامتهانهم وأولادهم للسرقة والدعارة والرشوة والغلول .... وأمور تدمي القلوب وتحزن النفوس بسبب الفقر»[٢].

---

(١) صحيفة الجمهورية يوم ١٥/ ٢/ ٢٠١٠م،العدد(٢٠٥٠٣)ص -١٥- .

(٢) مجلة البيان السنة الخامسة عشر عدد (١٤٩) المحرم سنة ١٤٢١ هـ أبريل / مايو سنة٢٠٠٠م صـ١٢٨ صـ١٢٩.

المطلب الرابع: الحقد والحسد من الفقراء على الأغنياء:

من القيم المهمة التي حرص الإسلام عليها ـ الحب ـ والإخاء، والقلوب جُبِلت على حب من أحسن إليها، وبُغض من أساء إليها.

أحســـن إلى النـــاس تســـتعبد قلوبهمـــوا طالمـــا اســـتخدم الإنســـان إحســـانًا[١]

والإنسان ليس كائنًا بيولوجيًا يأكل ويشرب وحسب، إنما هو كائن سيكولوجي له مشاعر، يحب ويكره، ويتمنى ويرغب، ويفرح، ويغضب، وعندما يعيش الإنسان في بيئة ظالمة، لا تعرف له قدرًا ولا مقدارًا تسيء إليه لا تحسن إليه، يحلم هو عليهم، ويجهلون عليه، يتودد إليهم وينفرون منه ... ترى ماذا يكون حاله معهم؟

« ويزيد االطين بلة، أن الكثيرين في هذا المجتمع لا يكفون عن استفزاز هذا الإنسان، ترف إلى حد التخمة، وهو في بطالة وفقر....»[٢].

والعين تنظر، والنفس تشتهي، والجوارح تصدق ذلك أو تكذبه، لا شك أن ذلك يوقع في الحقد والحسد. وإذا كان الفقر يغير السلوك، ويدفع للرذيلة .. ألا يدفع الفقير إلى تمني زوال نعمة هذا الغني بالدعاء الصريح عليه، وبإضمار ذلك في النفس، أو بهما معًا.

«إن العوامل الخبيثة التي تتدخل في توزيع الثروة، تخلق التفاوت الهائل، وتقسم المجتمع الواحد إلى عدة طبقات متحاسدة متصارعة تجعل الناس كالسمك، يأكل الكبير الصغير، فتجد الثراء الفاحش بجانب الفقر المدقع، وترجمة هذا أن النعيم والترف في جانب، والبؤس والحرمان في جانب، وكثير ما يكون الغنى والنعيم حظ العاطلين، والعوذ والحرمان نصيب العاملين، مما يثير الضغائن ويورث الفتن، ويعرض المجتمع لأخطر القلاقل والاضطرابات»[٣].

والإسلام عندما فرض الزكاة في مال الأغنياء، واعتبر ذلك ركن من أركان الدين .. وأنه حق معلوم للسائل والمحروم .. وأن الغني مستخلف في هذا المال وليس المالك الحقيقي له .. إنما أراد أن

---

(١) للشاعر أبى الفتح البستي ٤٠٠هـ قصيدة عنوان الحكم ١/ ٣١ مكتب المطبوعات حلب ط الأولى ١٤٠٤هـ.

(٢) ثقوب في الضمير صـ١٢٦ ، مرجع سابق .

(٣) دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي صـ ٤٠٩ ، مرجع سابق .

يقرب الشقة بين الأغنياء والفقراء، ويقضي على هذا الداء(الحسد)، تأمل قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد: ٧]، وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

فالإسلام لا يعترف بالطبقية البغيضة «كالتي عرفت عند الغرب من طبقة الملوك والحكام، وطبقة الأشراف والنبلاء، وطبقة الفرسان وطبقة رجال الدين و .... إلخ.

فالغنى والفقر في المجتمع الإسلامي ليس ثابتًا مؤبدًا، بل كلاهما أمر دائم التغيير بتغير ظروف الحياة وفرص الكسب، وقوانين الميراث، وكم من غني افتقر، وكم من فقير اغتنى»[(١)].

والإسلام حتى يحاصر هذا الشر في نفس الفقير ويقضي عليه حدَّ من طغيان الغني ورفع مستوى الفقير حرم الربا، والكسب الحرام بكل أشكاله، والإسراف والتبذير ...بل - وحدَّ من حرية الغني - في الحلال - احترامًا لمشاعر الفقير.

وكان من أول ما فعله رسول الله ﷺ في المدينة بعدما هاجر إليها أن آخى بين المهاجرين والأنصار «فلم يحقد فقير على غني، ولم يبغ غني على فقير، ورأينا بلال بن رباح وعمار بن ياسر وأبا هريرة وأهل الصفة، جنبًا إلى جنب، مع عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، لا يشعرون إلا بالإخاء والمحبة والتعاون لم نر الفقراء يحسدون الأغنياء»[(٢)].

هذا المجتمع (مجتمع المدينة) في عهد رسول الله ﷺ خلا تمامًا من مظاهر الحقد والحسد، وصار الناس كما أراد الله لهم، عباد الله إخوانًا.

«أما هنا فالحرمان ملأ النفوس بالبغضاء، والتفاوت البالغ بين الثقافات، والمشارب، والمنافع، جعل الناس يتنفسون في جو من الشراسة والتناكر، في البيت وفي الشارع وفي القرية وفي المدينة يكون من أيسر الأمور أن تتحول المناقشات التافهة إلى معارك حامية»[(٣)].

والله ﷻ هو الذي خلق الإنسان، وهو سبحانه أعلم بما يصلحه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وفي تقسيم الفيء على الفقراء وذوي الحاجة، وذوي القربى من رسول الله ﷺ دون الأغنياء ... دليل على أن الإسلام يتخذ الوسائل المناسبة - عن علم وجدارة - لمحو التفاوت الظالم وما ينتج عنه من حقد وحسد.

---

(١) المرجع السابق، صـ ٤١٠، ٤١١.

(٢) المرجع السابق، صـ ٤١٤.

(٣) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ٨٨، ٨٩، مرجع سابق.

قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾، «أي:جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كي لا يبقى مأكله يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون فيها شيئًا إلى الفقراء»[1].

وإذا كان الفقير في الزمن الماضي يحسد الغني أو يحقد عليه لما يرى عنده من نعمة تتمثل في بيت من حجر، أو ما يملكه الغني من زرع أو شجر، أو ناقة أو جمل .... فكيف بالفقير الآن وهو يرى أنواع النعم وقد تطورت وتضاعفت وتنوعت «فيلات وقصور فخمة في تجمعات سكانية مغلقة لا يقدر على ثمنها والعيش فيها إلا نسبة لا تزيد عن ٣٪، ناهيك عن الطيارات الخاصة، والسيارات الفارهة والمصانع العملاقة، والمدارس والجامعات الخاصة، والبنوك والأرصدة، وهؤلاء الفقراء وعدد ليس بالقليل، من نسائهم وأطفالهم يعملون كخدم وعمال نظافة وعمال إنتاج عند الأغنياء.

هذا المناخ العام لا يساعد على إطلاق طاقات الشرفاء .... هذا هو واقع المجتمع المصري دون خداع أو إغراق في الوهم، ناهيك عما تعانيه هذه الأسر الفقيرة من صنوف المعاناة والمرض والجهل»[2].

هذا التفاوت الكبير، نرى أناس في عليين، وهم قلة قليلة، وغيرهم وهم ـ الكثرة الكثيرة ـ في ذل وهوان، ألا يدعوا ذلك إلى الحقد والحسد والعدوان؟!

***

(١) تفسير ابن كثير ج٤ صـ٣٣٦ ، مرجع سابق .

(٢) انظر الحقيقة والوهم في المجتمع المصري صـ ١٢ وما بعدها، مرجع سابق .

المطلب الخامس: إهمال قيم التسامح في المعاملات بين الناس:

قال رسول الله ﷺ: «رحم الله امرأ سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى»[(١)].

هذه السماحة التي حث عليها الرسول الكريم ﷺ تربى عليها المجتمع المصري، فكان المسلم يعرف ما له وما عليه، فلا يطمع في مال غيره؛ لأنه يعرف الملكية العامة والخاصة والأحكام المنظمة لكل منهما، بل ويعلم المسلم الحقوق العامة في ملكيته الخاصة، كالزكاة ونفقة الجهاد، والتعاون في دفع الديات، وبناء دور العبادة، ومدارس العلم .... وكان ذلك يسير في جو من الحب والرضا والتسامح، وظل ذلك كذلك حتى زاحمتنا القوانين الوضعية والأفكار المستوردة وكان الباعث على وضعها الفقر[(٢)] ... والتقليد الأعمى للغير .... فكانت الأنانية وحب الذات، وكان العداء والتقاضي والقطيعة، ونسي الناس أو تناسوا ـ إلا ما رحم ربي ـ «أن المالك الأصلي للمال هو الله تعالى، وأنه أذن للناس أن يتملكوا حسبما يحدد الشرع، فالملكية الخاصة والملكية العامة هي بإذن من الشارع، وأن لكل منهما حدودًا واضحة مبينة، وأن الناس شركاء في أشياء»[(٣)]، وأن الكسب لابد وأن يكون بالحلال من عمل مشروع أو ميراث أو هبة ... كل هذه القيم الأصيلة ثم التشويش عليها، والترويج لغيرها فاستطال الناس على أموال بعضهم ـ بغير حق ـ فضعفت قيم التسامح في المعاملات، من بيع وشراء وإجارة، وحتى الزواج صارت هناك شروط وتعقيدات، كقائمة المنقولات التي غالبا ما تكون أكثر من الحقيقة، ومؤخر الصداق، وربما البعض يشترط التوقيع على إيصالات أمانة أو التنازل عن الشقة للزوجة .... بدعوى ضمان حقوق الزوجة، إذ خربت الذمم، وضاعت القيم، وانتشر الفقر، وصعبت المعيشة، وتغير الزمن ولابد من هذه الإجراءات ـ ومع الأسف ـ كان ذلك ولايزال على حساب قيم التسامح التي حث عليها الإسلام والذي عمل على تيسير الزواج ولو بخاتم من حديد أو بما يحفظ المرء من القرآن الكريم[(٤)].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن جابربن عبدالله بن حرام برقم (١٩٧٠) باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع (٢/ ٧٣٠) دار ابن كثير مرجع سابق.

(٢) ومن هذه الأفكار المستوردة (الشيوعية) وتسمى بثورة الجياع والعمال، وقد طبقت في البلاد وزرعت العداء بين إبناء المجتمع بنزع الملكية من زيد وتسليمها لـعمرو، والتي لاتزال آثارها السلبية قائمة حتى الآن، وكذلك الرأسمالية والعولمة .... إلخ.

(٣) الناس شركاء في الأموال العامة صـ ٦ د/ عبد العزيز الخياط، استاذ الفقه المقارن بالجامعة الأردنية، وعميد كلية الشريعة طـ دار السلام سنة ١٩٨٥م .

(٤) انظر كتاب تعدد الزوجات في الشريعة الإسلامية ، د/ عبد القاصر العطار ، عميد كلية الحقوق بأسيوط صـ ٨٠، ٨١، ٨٢ مؤسسة البستاني للطباعة صـ الخامسة سنة ١٩٨٨.

تحول الكثيرون عن قيم الإسلام الأصيلة إلى الأنانية وحب الذات، وعدم الطمأنينة، والجري وراء المادة ، والإيمان «بالنظم التي تجعل الخبز هدفها، والبطن محورها، والاقتصاد مشكلاتها، والدنيا أكبر همها ومبلغ علمها، والمادة دعامة حياتها، بل عماد حضارتها ومدار فلسفتها وتفكيرها»(١).

إنها فتنة أغرت البسطاء والفقراء إلى التطلع إلى الغنى، بل والأغنياء - إلا ما رحم ربي - دفعتهم إلى حب المال وجمعه والحرص عليه، والبخل به عن حقه، واكتنازه واحتكاره وعدم صرفه في أوجه الخير دون التقيد غالباً بضوابط الشرع أو القبول عند الناس، مع أن «المصداقية العلمية تؤكد أن قيمة الحب والتسامح والرحمة والتضحية وخدمة الآخرين - وهي قيم في كل الأديان والروحانيات - لها تأثيرها الواقي من الاكتئاب والقلق وأمراض القلب.

نحن في حاجة شديدة إلى العودة إلى الحب والرحمة التي قد تساعدنا على البقاء والتعايش في عالم مملوء بسفك الدماء، والحروب والقمع»(٢).

حقًّا لقد ضعفت قيم الرحمة والتسامح في المعاملات وكثر التقاضي والتنازع ورفع الدعاوى - بحق أو بباطل - وتغيرت الطريقة السمحة في البيع والشراء، فصار هناك بيع بالإكراه وشراء بالإكراه بدلًا من التراضي الذي هو شرط أساسي لصحة البيع، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

* سر يومًا في شوارع القاهرة، في الشوارع التجارية كشارع الموسكي مثلًا، وانظر حال الباعة فوق الأرصفة وطريقة تعاملهم مع الجمهور(٣).

* واذهب يومًا إلى الريف وسل النساء عن الطريقة التي تم بها بيع ميراثهن لإخوانهن، لترى

(١) دور القيم والخلاق في الاقتصاد الإسلامي صـ ٣٥ ، مرجع سابق.

(٢) ثقوب في الضمير صـ٢٨ ، مرجع سابق.

(٣) كنت في منشأة ناصر يوم ١٠/ ١١/ ٢٠٠٩م ، أجمع معلومات ميدانية خاصة بالبحث فوجدت، رجلًا اسمه/ عبيد محمد محمود، يحكي عن أخلاق هؤلاء الباعة ويقول بالحرف : «أغروني بشراء بدلة فذهبت إلى المسجد لألبسها وانظر إليها، فوجدتها ضيقة، فرجعت بها فسمعت منهم ما لا أجرؤ بالنطق به، ما كنت أظن أن القيم والأخلاق قد هبطت إلى هذا الحد».

كيف تغيرت قيم التسامح بين الأقارب والجيران، في البيع والشراء والتقاضي وسائر المعاملات لدرجة وصلت إلى الخصام والهجر والقتل وسفك الدماء، ولولا خشية الإطالة لذكرت ما تطالعنا به الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية عن الحوادث التي تنشأ على أبسط الأسباب(١)، مما يؤكد أن التسامح بين الناس قد صار عملة نادرة البحث عنها في دنيا الناس، كالبحث عن الذهب والفضة والماس.

❊ ❊ ❊

(١) على سبيل المثال، صحيفة الجمهورية ٦/ ٢/ ٢٠١٠م صفحة : ١٦ عدد ٢٠٤٩٤، دراسة عن زواج القاصرات من الأجانب هروبًا من الفقر كما تقول الدراسة. وعن المواجهات الساخنة انظر صحيفة (المصري اليوم) للصفحة الأولى ٢١/ ٣/ ٢٠١٠م، وصحيفة الحوادث المصرية ١٨ / ١٠ / ٢٠٠٩م صـ ١٠، المؤبد لمن قتل شقيقته لخلاف على ستين جنيهًا ..... تأمل.

المبحث الرابع: أثر مشكلة الفقر على العلم والفكر والإبداع

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: الرغبة عن التعليم الديني إلى المدارس الأجنبية خشية الفقر.

المطلب الثانى: التفكير المستمر في الحصول على مقومات الحياة.

المطلب الثالث: ضعف الإرادة وفقد الثقة في النفس، والقدرة على التفكير والإبداع.

المطلب الأول: الرغبة عن التعليم الديني إلى المدارس الأجنبية خشية الفقر:

كان التعليم في مصر يهدف إلى المحافظة على القيم، والجمع بين الأصالة والتجديد وكان التعليم في الأزهر الشريف الرائد في هذا المجال، وذلك عن علم بقيمة التعليم الديني في الدنيا والآخرة ... إلى أن ظهرت المدارس الأخرى، لاسيما المدارس الأجنبية التي أنشئت خصيصًا لمنافسة الأزهر وبإيعاذ، وترتيب، وتمويل وإشراف الاحتلال وأذنابه وأنصاره[1].

والإنسان ـ كما سبقت الإشارة ـ يخشى الفقر ويأمل الغنى، ولقد انشأت هذه المدارس التي تعد خريجيها بالرواتب المجزية، ورصدت لها الأموال اللازمة، والامتيازات المغرية، والمناصب المرموقة ... وكان كل ذلك على حساب التعليم الأزهري المعروف والمحبوب في مصر والعالم الإسلامي.

ومع مرور الزمن وتعاقب الأجيال، وخروج الاحتلال، بقيت الأفكار والآثار وأصبح لهذه المدارس أنصارٌ يُرَوّجون لها، ويعملون على نشرها وتطويرها ... كل ذلك كان سببًا في التحول الفكري في مصر.

«فأصبح هناك ميل متزايد إلى ما هو أجنبي عن ما هو وطني، لم يكن هناك بد من أن ينعكس كل هذا على المناخ الثقافي، أي على نتاج الفكر من آداب وفنون سواء من حيث مضمون الفكر نفسه أو وسائل التعبير عنه.

ففي الكتابات الاقتصادية والاجتماعية زاد الكم المطروح في الصحف والكتب والإذاعة والتلفزيون على نحو لم يكن مألوفًا قبل الثورة، ولكن اتسم كثيرًا منها بالتسرع في الكتابة، وانخفاض مستوى الدقة في التعبير، وضعف اللغة العربية المستعملة،مع شيوع اقحام اللغة الإنجليزية بغير مبرر على تعبيرات عربية واضحة بذاتها كما زاد الاهتمام باستخدام المصطلحات الفخمة التي توحي باتساع العلم دون أن تساهم هذه المصطلحات في توضيح القضية محل البحث، بل وحتى لو زادت الأمر غموضًا، وزاد الميل إلى إطلاق الأحكام المطلقة والتغاضي عن الاستثناءات والتحفظات، وكلها ظواهر قد تكون شديدة الصلة بما نحن بصدده من صعود أفراد تلقوا تعليمًا متعجلًا لم يتشربوه كافيًا، لا لغة صحيحة، ولا أسلوب تفكير منطقي، ولا تعبير علمي، ومن نافلة القول أن نذكر بالقوى الخارجية، وأن نضيف على الفور الإشارة إلى (الأعوان) و (الأذناب)...»[2].

---

(١) للمزيد انظر كتاب أساليب الغزو الفكري صـ٦٢ : ٦٣، مرجع سابق ، وكتاب محاضرات في الاستشراق والتبشير صـ ١٠ وما بعدها ، مرجع سابق .

(٢) ماذا حدث للمصريين صـ ٣٧ ، ٣٨ ،٣٩ بتصرف، مرجع سابق .

أليس ذلك كله يدل على أثر الفقر على القيم؟ ومنها القيم العلمية التي هى أساس الفكر والإبداع.

إن الرغبة في التعليم الأجنبي دون مراعاة الثوابت والهوية، كان له الأثر البالغ على الفكر واللغة، فإذا عجز المرء عن التعبير السليم عجز بالطبع عن الابتكار والإبداع، وهذا يجعله يعيش في حالة من التخبط والسلبية والاتكالية وربما التبعية والافتتان.

«إن فوضى اللغة التي نعيشها في مصر الآن جعلت الشخصية المصرية تتأثر تأثرًا سلبيًا في عملية التعبير عن الفكر، ويتضح ذلك في النتاج الفني من أفلام ومسلسلات ومسرحيات، فكثير من المصريين يستعمل لغة تعكس الاستهتار والتسيب الاجتماعي والانفلات النفسي وعدم تحمل المسئولية، والسخرية من القدوة والرمز والقيم.

إن ثبات وصدق اللغة هما بعض من الأسس المهمة للثقافة الحية والتقدم العلمي، فلا يمكن أن يكون للمنزل لغة وللجرائد لغة وللأغاني لغة وللشارع، وللقرآن لغة أخرى.

وإذا لاحظنا ما حدث في مصر في العشرين سنة الأخيرة لوجدنا أن الطبقات الميسرة تزج بأبنائها في المدارس الأمريكية والفرنسية والبريطانية والألمانية، ويصبح الطفل في تشتت فكري، يجعله ينجح في الامتحانات لكنه غير قادر على الابتكار.

جاء الاستعمار البريطاني واستغنى عن الأساتذة المصريين واستبدلهم بالأساتذة الإنجليز واستمر التدريس ـ في الطب ـ باللغة الإنجليزية من وقتها وحتى اليوم»[١].

والطب كما هو معروف أعلى ما يتمناه المرء لأولاده، فهي مهنة مربحة ومرموقة، وكلية الطب هي إحدى كليات القمة كما يقولون، وقل مثل ذلك في كليات[٢] القمة الأخرى. والأعمال التي تجلب الأموال، والغني يحرص على دوام الغنى له ولأولاده ، والفقير يتطلع إلى الغني، فإن حرمه هو تمناه لولده، ولا مانع عنده من أن يضحي بكل ما يملك أو يضغط نفقاته للوصول إلى هذا الهدف.

كل ذلك كان له الأثر البالغ على الفكر، والعلم، والإبداع.

---

(١) ثقوب في الضمير صـ٤٨ : ٥٠ بتصرف ، مرجع سابق.

(٢) كان التعليم الأزهري هو القمة، لاشتماله على علوم الدين والدنيا معًا، وبمعايير ومقادير متوازنة ومتساوية ومناسبة لمقتضى الحال والزمان..ثم ظهرت المدارس الأجنبية وأشاعت أن قمة التعليم هو الطب والهندسة والشرطة.. وبها يحصل المرء على الوظائف السيادية والرواتب المجزية .

المطلب الثاني: التفكير المستمر في الحصول على مقومات الحياة:

الفقر يربك الفكر، ويجعل صاحبه في تفكير مستمر، لتوفير الحاجات الضرورية التي يفتقر إليها الجسم، والنبي ﷺ وهو يحث أمته على المبادرة بالأعمال الصالحة يقول: «هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا...»[١].

فالفقر ينسي ويلهي «والمسلم المعاصر همومه كثيرة، ومشاغله متعددة، ومعقدة وفكره مشحون بعشرات القضايا التي تشغل باله، وتشتت فكره، وتدور كلها حول كيفية الحفاظ على دينه ودنياه، وفي نفس الوقت، على نحو يجعل كل منهما سندًا للآخر، ودعامة له، وإلغاء أي تناقض مفتعل بينهما»[٢].

وإذا كان العقل وعاء المعرفة، ما لم تملؤه بالمعرفة الحقة عن الدين والكون والحياة، امتلأ بالمعرفة الباطلة. حدثني بربك كيف يتعلم دينه ودنياه، من ملأ عقله بهموم معيشته، وشغل باله وفكره ـ على الدوام ـ بحاجة أولاده ومن يعول؟

يقول الدكتور القرضاوي: «وليس بلاء الفقر وخطره مقصورًا على الجانب الروحي والخلقي للإنسان، وإنما يشمل أيضًا الجانب الفكري منه، فالفقير الذي لا يجد ضرورات الحياة وحاجاتها لنفسه وأهله وولده، كيف يستطيع أن يفكر تفكيرًا دقيقًا، ولاسيما إذا كان هناك بجواره من تغص داره بالخيرات وتموج خزائنه بالذهب.

وقد رووا عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة أن الجارية أخبرته يومًا في مجلسه، أن الدقيق نفذ، فقال لها: «قاتلك الله لقد أضعت من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه»، ويروى عن الإمام الأعظم أبي حنيفة أنه قال: «لا تستشر من ليس في بيته دقيق» أي: لأنه مشتت الفكر مشغول البال فلا يكون حكمه سديدًا، وذلك أن الانفعال الحاد يؤثر على سلامة الإدراك وصحة الرأي كما يقرر علم النفس، وكما جاء به الحديث الصحيح: «لا يقض القاض وهو غضبان»، وقاس الفقهاء على الغضب شدة الجوع، وشدة العطش، وغيرهما من الانفعالات المؤثرة، وفي نحو هذا قال الشاعر:[٣]

إذا قل مال المرء قل بهاؤه ... وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح لا يدري وإن كان داريًا ... أقدامه خير له أم وراؤه[٤]

---

(١) رواه الترمذي في السنن عن أبي هريرة برقم (٢٣٠٦) باب ما جاء في المبادرة/ طـ إحياء التراث العربي (٤/ ٥٥٢)، والحديث صححه السيوطى فى الجامع الصغير برقم (٣١٢١).

(٢) كتاب فكر المسلم المعاصر ما الذي يشغله، صـ٧ طـ مركز الأهرام للترجمة والنشر سنة ١٩٩٤م، الكتاب الثاني د/ محمد سيد طنطاوي ومجموعة من العلماء.

(٣) البيتان لمنصور الكريزى روضة العقلاء (١/ ٢٢٥) دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٧.

(٤) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ ١٥، مرجع سابق.

المطلب الثالث: ضعف الإرادة وقلة الثقة في النفس.

وكما أن الفقر يؤثر على مروءة الإنسان، وعلى عقيدته،وعبادته، وسلوكه وآدميته يؤثر أيضًا على نفسية الإنسان وأعصابه، وعقله، واتزانه؛ لأن الشعور بالذل والهوان قد يشل تفكيره ويربك عقله، إلا ما رحم ربي وقليل ما هم، ولقد ربط الأطباء بين سوء التغذية وبين الأمراض النفسية، واعتبروا أن الأول سبب رئيس لوجود الثاني، لاسيما إذا كان مصاحبًا له منذ نشأته الأولى التي يحتاج المرء فيها للغذاءاللازم لنموه نموًّا سليمًا.

«ففي المجاعات وحالات التضور لن يتصور المرء غير النقص الشامل للغذاء، فالجوع قبل أن يكون إحساسًا عضويًا فهو حالة افتقار فسيولوجي لابد من إشباعها، وهذا ما يعانيه سكان البلاد الفقيرة، وأنه على حد قول الباحثين أزمة غير مرئية ومأساة يومية تحرم مئات الملايين من تحقيق حقوقهم منذ الولادة.

إن المأساة تنعكس كتآكل للثروة البشرية، بما يعني تدهور الكائنات البشرية، وتآكل الثروة البشرية ليس تعبيرًا إنشائيًا ... إنه حقيقة علمية أكدتها الأبحاث، ففي البلدان النامية يمثل سوء التغذية المشكلة الصحية الأولى يكمن سببها الرئيس في عدم القدرة على الحصول على الغذاء الملائم.

حقًا هناك الكثير من الأسباب التي تؤدي إلى سوء التغذية، كالجهل والمرض ... لكن مجمل تلك الحالات لا يعد شيئًا مذكورًا بجانب الفقر»[1].

نعم فسوء التغذية له تأثير مباشر على الصحة النفسية والمزاج العام للإنسان، ولعل ما ذكره الأطباء في هذه المسألة يؤكد ما يقال من أن العقل السليم في الجسم السليم، ولا يسلم الجسم من الأمراض العضوية والنفسية إلا بالدواء والغذاء، والفقير الذي لا يملك القوت مجردًا أنّى له بذلك؟

«إن الفقر والفاقة، والمجاعة، وعجز الإنسان عن مواجهة الكوارث الطبيعية، والحروب، والازدحام، والمساكن الغير صحية تجعل الأمراض أكثر انتشارًا، كذلك الريف ينتشر فيه المرض أكثر من المدن، والأحياء الفقيرة أكثر من الأحياء الغنية؛ لأن من يدرك خصائص البيئة الفقيرة حيث تدني مستوى المعيشة والتكدس السكاني، وغياب المرافق الصحية وظروف الإسكان التعسة والبيئة

---

(١) أمراض الفقر والمشكلات الصحية في العالم الثالث، تأليف: د/ فليب عطية صـ ٤٥ ، ٤٦ طـ دار المعرفة رقم ١٦١ سنة ١٩٩٢م.

الملائمة لتكاثر الحشرات والقوارض، والعلاقات الحميمة بين الأجساد البشرية وبين البشر والحيوانات، لابد أن يستنتج أن القاع هو مهد الأوبئة»[١].

ويؤكد هذه الحقائق/ الدكتور أحمد عكاشة «من أن الشرود والقلق والاكتئاب والتمركز حول الذات، وعدم المثابرة، وسلوك رد الفعل، والغضب والإحباط والعدوان كلها أمراض تخلقها غالبًا البيئات الفقيرة وأن هناك علاقة واضحة بين الازدحام والصحة النفسية، وأن الإنسان عندما يحيى في بيئة مضطربة خالية من النظام والانسجام والتوافق، تمتلئ نفسه بالكآبة، وعندما يتحول مسكنه إلى مجرد مأوى يصبح ذئبًا وليس إنسانًا، وتفيض نفسه بالقلق والتوتر وأحيانًا بالهلع .... وأن هذه الأمراض قد تؤثر على الجنين وهو في بطن أمه، بسبب الظروف التي تمر بها الأم، فيؤثر ذلك في تكوين الطفل قبل ولادته، فما بال الأثر الذي تؤديه المؤثرات ذاتها بعد أن يولد الطفل ويصبح شابًا وبالغًا.

تقول الدراسات: إن الأعراض الاكتئابية قد انتشرت في الريف بمعدل ٣٤٪ من مجموع السكان والمدينة ٢٨٪ ففي مصر وحدها مليونا مكتئب حيث إن من ٥ ـ٧ من أي شعب يعاني الاكتئاب تشير كل المؤشرات العالمية أن القرن القادم سيشهد مزيدًا من الاكتئاب ،وذلك لأسباب منها ضيق فرص العمل والمعيشة»[٢].

إن معظم الأمراض التي تصيب العقل بأي لون من ألوان الخلل، لا أتصور أن الفقر بريء منها أو بعيدًا عنها.

فإن لم يكن الفقر سببًا في تكوينها في مرحلة من مراحل العمر، فله على الأقل صلة بها؛ «لأن النقص في تغذية الحامل .... يترك أثره على الجهاز العصبي للجنين والذي يبدأ في التكوين والنمو خلال الأسبوع السادس من الحمل»[٣].

وإذا لم يكن الفقر سببًا في تكوين المرض فهو سبب في عدم علاجه بعد اكتشافه، إذ إن الفقير غالبًا ما يعجز عن مكافحة المرض، إما لفقره وإما لجهله وإما بهما معًا.

---

(١) أمراض الفقر صـ ١٢٧ وما بعدها ، بتصرف ، مرجع سابق.

(٢) تشريح الشخصية المصرية صـ ١٢ ، صـ ٢٠٧ وما بعدها بتصرف مرجع سابق ، والدكتور أحمد عكاشة / أستاذ الطب النفسي بكلية الطب جامعة عين شمس ، وهو رئيس الجمعية المصرية للطب النفسي، ورئيس اتحاد الأطباء النفسيين العرب، وله أبحاث مطولة للمزيد من الفائدة يمكن الرجوع إليها في الصفحات المذكورة .

(٣) أبناؤنا مشكلات وحلول صـ ٩١ ، مرجع سابق .

«فمن العوامل المساعدة أو المباشرة لظهور الأمراض النفسية المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، بالاضافة إلى انتشار البطالة والعنوسة، وهناك مشاكل اجتماعية داخل الأسرة، كضغوط الخلافات الزوجية، والفقر، وعدم القدرة على تحمل المسئولية، والصدمات الاقتصادية، كضياع التجارة والأموال أو نقصها بفقد الصدقات أو الخسارة»[١]، إذا أحس المرء بالإعياء، وعدم القدرة على مواجهة مشكلات الحياة شعر بالإحباط وعدم الرضا عن النفس، بل وشك في قيمته الذاتية في نظر نفسه ونظر من حوله، وعلى الأخص الضعفاء وذوي الاحتياجات الخاصة، وإنصاف المتعلمين ممن قل حظهم في التدين الصحيح الذي يبعث في النفس الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه.

يقول الدكتور حمادة محمود أحمد:«والفقر يجر من ورائه العجز عن الكسب واعتلال الأجسام وانتشارالأمراض، وبذلك تقل المقدرة على إنجاب النسل الجيد القادر على العمل والكفاح وتنشأ أجيال هزيلة، لا يعتمد عليها لا في حياتها الشخصية ولا في حياتها القومية، ولا في المعترك الدولي، بل تكون في الغالب عالة على المجتمع» [٢].

إن كثيرًا من الفقراء كانوا يتطلعون إلى مستقبل أفضل بكثير مما تحقق لهم، في حين أن غيرهم قد جلس على قمة الهرم الاجتماعي وصار في واقع فاق أحلامه وأمانيه.

هذا بجانب غياب التوعية اللازمة، والتوجيه السديد، والتعليم الهادف والرشيد، والقدوة الصالحة ... هذه الظروف ولدت لدى الفقراء حالة من الضعف وفقدان الثقة وعدم القدرة على النقد والتحليل والتأمل والاستنتاج «ذلك الذي هيأ للفكر الغربي والمادي فرصة قبول المثقفين له، دون أن يجدوا في ثقافتهم التي يحملونها وفي أنفسهم ما يناقش هذا الفكر، حتى يكون قبولهم إياه نتيجة عن اقتناع وتأمل، وجد فراغ آخر في الحياة التوجيهية العامة، وهي حياة الجماهير من العمال والفلاحين، لقد أصبحت حياتهم خالية من أي توجيه صالح يعالج لهم مشاكلهم اليومية والمشاكل الأخرى التي تأتي بها الحضارة الحديثة، فاضطرب رأي الفلاح والعامل في التعاون، والتعامل،

---

(١) د/ محمد عبد المولى قاسم، ذوو الاحتياجات الخاصة وموقف الاسلام منهم صـ ١٢٥، رسالة دكتوراه غير منشورة،قسم الثقافة الإسلامية/ كلية الدعوة الإسلامية/ جامعة الأزهر بالقاهرةسنة ٢٠٠٧م، بتصرف يسير.

(٢) كتاب مصر النهضة صناعة تاريخ مصر الحديث،ص-١٧٠- ط الهيئة المصرية للكتابة سنة ١٩٨٧م. (٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار صـ ٤٠٤ ، ٤٠٥.

والاقتصاد، والإنتاج»[١]، إن الإرادة لا تكون صادقة إلا عن اقتناع مستمد من المشاعر والرغبات والغايات التي يسعى الإنسان لتحقيقها.

ويكتسب الإنسان الثقة في النفس بالتدريب المبكر، وإعمال العقل فيما يجوز إعماله فيه، وبالأخذ بوسائل العلم اللازم لحراسة الدين وإعمار الحياة ... والفقير المهموم الذي يمضي ليله ونهاره يفكر في سداد ديونه وشراء القوت الضروري لأولاده، هل تراه يعطيك رأيًا، أو يبدع فكرًا، أو يرد كيدًا، أو يقرع حجة بحجة وبرهانًا ببرهان، أنى له ذلك؟!!

«حيث يوجد الهوان المادي والأدبي لا يرجى خير، ولا يؤمن شر، فالإنسان المغلق الخامل المحطم لا ينتفع بالدين ولا ينتفع به الدين، ما الذي يفيده الإسلام من رجل طمست حياته، وشاهت ملكاته وعاش على ظهر الأرض حفنة من ترابها، أو قطعة من صخورها؟!

إن الإسلام لا يستفيد شيئًا من هذا الشخص، بل إنه يضار به ويهون فيه، والإناء الملوث يزري بأطهر الوسائل ويبخس قيمته، كذلك الشعوب العاجزة الكسول، تحط من مكانة الأديان التي تعتنقها وتهبط بمستوى العقائد التي تنتمي إليها!!

والمرء يستحيل دابة يوم يموت فيه عقله المفكر وترتكس فيه مشاعره اليقظة فيصبح غير مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده؛ لأن ليس له من ذلك إلا ما للحيوان السائم؛ حواس مسخرة في أغراض الحياة الدنيا فقط.

وأمثال هؤلاء هم ـ مع الأسف العميق ـ قوام الجماهير الغفيرة التي أعماها الجهل وأوهاها المرض وأهانها الفقر، قوام الكتل الضخمة من البشر الذين يزخر بهم الشرق ولا يتقدم بهم إلى الأمام خطوة بل يتأخر بهم خطوات أو هم التراب الذي تبرد فيه حرارة الإسلام وتتبدد قواه كدين موجه فعال.

هذا الهوان المادي والأدبي لا ينبغي حسبانه دينًا أو ظلًا لدين، فهو عار ولدته بيئات آثمة لا تتصل بالدين إلا ادعاء ولا يتصل بها الدين إلا مشوهًا مظلومًا مفترى عليه، إن حدة الذكاء ويقظة الفكر واستنارة الرأي عناصر لابد منها في تكوين الإيمان الصحيح فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين وانتفت معها الريبة، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح والفهم الناضج يصبح اليقين غير ذي موضوع!!»[٢].

---

(١) المرجع سابق، صـ١٧٠، ١٧١.

(٢) كتاب الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥، بتصرف، مرجع سابق.

المبحث الخامس: أثر مشكلة الفقر على الترابط الأسري

وفيه خمسة مطالب هي:

المطلب الأول: التفكك الأسري وزيادة معدلات الطلاق.

المطلب الثاني: ضعف دور الوالدين في تربية الأولاد بسبب الخروج للكسب ومضاعفة ساعات العمل.

المطلب الثالث: الهروب من المسئولية بدعوى عدم القدرة على النفقة.

المطلب الرابع: العزوف عن الزواج والإحساس بالعجز عن تكوين الأسرة.

المطلب الخامس: كثرة العداوات والخلافات بين الأقارب .

المطلب الأول: التفكك الأسري وزيادة معدلات الطلاق:

الفقر له آثار سيئة على الأسرة، والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، فإن صلحت الأسرة صلح المجتمع وإن فسدت الأسرة فسد المجتمع، والإسلام يحرص على بناء الأسرة على أسس سليمة ومتينة(١)، فإذا قامت الأسرة حرص الإسلام على بقائها ونقائها وعدم هدمها أو إهمالها(٢).

فكما أن الإسلام رغّب في الزواج وحسن الاختيار، فإنه في ذات الوقت يكره الطلاق والشقاق، ولا يفتح الباب على مصراعيه في مسألة الطلاق، وإن قَبِلَه، قَبِلَه على مضض، وحاصره في أضيق نطاق.

فقبوله من باب أخف الضررين وأهون الشرين، قال ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة ـ أي لا يطلقها ـ إن كره منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر»(٣)، وقال: «إن أبغض الحلال عند الله الطلاق»(٤).

والفقر– مع الأسف – قد يغلب ذلك كله، ولقد علم ﷺ بهذه الحقيقة وحذر منها فقال: «لا يحل لامرأة أن تسأل طلاق أختها لتستفرغ صحفتها فإنما لها ما قدر»(٥).

وتأمل ما حدث من زوجات رسول الله ﷺ بسبب الفقر وضيق الحال وقد اجتمعن حوله يسألنه النفقة «فأمره الله تبارك وتعالى بين أن يخيرهن أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال»(٦).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨ـ٢٩].

---

(١) كاختيار أهل التدين السليم، والنظر إلى الزوجة قبل إتمام الخطبة حتى تدوم العشرة ... وبيان ما للزواج من فضل في الدنيا، وأجر وثواب في الآخرة ..... إلخ.

(٢) كبيان الحقوق والواجبات المتبادلة بين أفراد الأسرة، وثواب القيام بها، وخطورة التخلي عنها.

(٣) رواه مسلم في صحيحه عن أنس ابن مالك رضي الله عنه، (٢/ ١٠٩١) باب الوصاية بالنساء برقم (١٤٦٩) إحياء التراث العربي مرجع سابق.

(٤) رواه أبو داود في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما، باب كراهية الطلاق برقم (٢١٧٨).

(٥) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم (٤٨٥٧) باب الشروط التي لا تحل في النكاح (٥ / ١٩٧٨) دار ابن كثير مرجع سابق.

(٦) تفسير ابن كثير ج٣ صـ٤٦٢، مرجع سابق.

وقد يقال: طلب الطلاق له أسباب ومسببات كثيرة، وهذا صحيح ولكن، لا يمنع أن يكون الفقر على رأس هذه الأسباب، أو واحدًا منها: «فإن مشاكل المجتمع تنعكس على الحياة الزوجية؛ لأن الإنسان يعيش في حالة تفاعل مستمر مع المجتمع، وبما أن الحياة الزوجية هي المجتمع، فإن كل المسائل غالبًا ما تكون مادية، واجتماعية، واقتصادية، وإسكانية، وتؤثر على الحياة الزوجية بالقطع، لماذا يزيد الطلاق في المجتمعات المأزومة؟ الطلاق تفشى في كل المجتمعات، والمشاكل الاقتصادية أحد العوامل»[1].

إنَّ تخلي الرجل عن النفقة، وتأزم الحياة المعيشية، أمور لا يستهان بها في طبيعة الحياة بين أفراد الأسرة، لاسيما الزوجة التي نشأت في النعمة، وتنظر إلى مثيلاتها المنعمات وأخواتها المرفهات، وقد تكون هي أوفر منهن علمًا وجمالًا، لكنها رزقت بزوج فقير أو كسول أو بخيل.

يقول الدكتور القرضاوي: «والفقر خطر على الأسرة من نواحي عديدة على تكوينها، وعلى استمرارها، وعلى تماسكها، ففي استمرار الأسرة نرى ضغط الفقر ربما غلب الدوافع الأخلاقية ففرق بين المرء وزوجه على كره منه، وربما على كره منها، وهذا أمر اعتبره القانون الإسلامي فأجاز القاضي تطليق المرأة من زوجها لإعساره وعجزه عن النفقة عليها، رفعًا للضرر عنها، وفقًا لقاعدة : (لا ضرر ولا ضرار)»[2]، وهذا يدل على أن الإسلام يعترف أن الفقر ضررٌ يجيز للمرأة بسببه أن تطلب الطلاق ويعرض الأسرة إلى التفكك والانهيار.

« إن الأسباب الاقتصادية لها دورها في ظهور التفكك الأسري في المجتمع، ولا تكاد تخلو ظاهرة اجتماعية من وجود سبب اقتصادى... وأخص من بين العوامل الاقتصادية عاملين اثنين:

١ - الفقر والبطالة. ٢- عمل المرأة»[3].

---

(١) ثقوب في الضمير صـ ١٤١ ، بتصرف ، مرجع سابق .

(٢) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام صـ١٦ ، مرجع سابق .

(٣) د/ محروس محمد محروس، التفكك الأسري في المجتمع المصري المعاصر صـ ١٩٨ بتصرف يسير، رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة الأزهر المكتبة العامة برقم ٢١٩١/ ١١٣٤٧.

« فقر الأسرة مع قلة إيمان الزوجين ورضاهما بما قسم الله لهما، شر مستطير، يدعو إلى النزاع، والشجار، والهموم، والغموم، وأشد من ذلك وأنكى هو ارتكاب جرائم قتل وسلب للحصول على المال، ولذلك الأولاد الذين ينشأون في اسر فقيرة تراهم ينعون حظهم، وينفرون من أسرهم، لأنهم يسكنون القبور وغيرهم يسكنون القصور، وقد يتركون عائلاتهم إلى الشوارع طالبين المال، ومنهم من ينقم على والديه لفقرهما»[١].

ناهيك عما يسمى بالطلاق الصامت بين الزوجين، والهجر الخفي بين أفراد الأسرة الواحدة، فكم من أسر تعيش مجتمعة أجسامًا، متفرقة قلوبًا تراهم جميعًا في منزل واحد ولكن لا قوام للرجل على زوجته، ولا سلطان له على أولاده، والأولاد كل على حده لا يضمهم ولا يجمعهم سوى المبيت في البيت وقد لا يكون، وهذه قيم أصيلة يهددها الفقر، وهذا ما سأذكره ـ إن شاء الله ـ بالتفصيل في الصفحات التالية.

***

(١) المرجع السابق صـ ٢٠٦-٢٠٧.

المطلب الثاني: ضعف دور الوالدين في تربية الأولاد بسبب العمل:

لا شك أن الإنسان يحب أولاده، ويتمنى لهم كل خير، وقد يضاعف ساعات العمل بقصد تحسين معيشة أولاده، وتوفير ما يحتاجونه من طعام وشراب ونفقات، وهذا في حد ذاته جيد طالما لا يؤثر سلبًا على تربية الأولاد.

والعاقل من يقدر الضرورة بقدرها، فالعمل ضرورة، وتربية الأولاد ضرورة، وكلاهما واجب لا يقل في الأهمية عن الآخر، لذا لابد من العدل والإنصاف في توزيع ساعات اليوم، حتى لا يحدث ما لايحمد عقباه، من التفسخ الأسري، وعدم

السيطرة على الأولاد، وضعف الوازع الديني، وذهاب هيبة الآباء، وسلطان القيم والاحترام، من الصغير للكبير والرحمة والحنان من الكبير للصغير.

«إن التفسخ الأسري والمشاكل الأسرية الناجمة عن بعد الأبوين، وغياب الرقابة على الأبناء، يؤدي إلى فساد الأولاد والبنات، وتفشي المنكرات بسبب قلة الرعاية والمتابعة الرقيقة حتى إن إحدى الفتيات تقول: إن آباءنا لا تهمهم أمورنا ما دمنا لا نصل إلى البيت ونحن نحمل أجنة في أحشائنا، وهذا القول يعبر عن مدى التسيب والانحلال، وأن ما يتخوف منه هؤلاء الآباء وهو حمل بناتهم وقد وقع بالفعل وصارت رائحته تزكم الأنوف في المدارس والجامعات، فالزواج العرفي، وحمل الفتيات سفاحًا، وكثرة الأطفال اللقطاء، كل هذا نتيجة طبيعية لهذا التفسخ الأسري، وإن إهمال أولياء الأمور وسلبيتهم لهو من أكبر الدوافع التي أدت إلى انتشار الحرية الزائفة التي يتمسك بها بعض الشباب دون الرجوع إلى الأبوين»[(١)].

وكثير من الآباء يظن أنه أدى كل ما عليه من واجب نحو أولاده، طالما يعمل (من أجلهم) ليل نهار فيوفر لهم المال والمتاع، ولا يخطر بباله أن الأيام تمضي وفرص التربية تضيع، وسرعان ما يتحول الأولاد إلى شيء آخر لم يكن في الحسبان «والغالب أن يكون أمام الأولاد فرص جديدة لم تكن متاحة للأب بسبب تفوقهم عليه في مستوى التعليم، واتصالهم ببيئات جديدة لم تتح للأب أو الأم أية فرصة للاتصال بها، فيكتسب الأولاد ثقة بقدرتهم على الكسب، والترقي الاجتماعي تفقدهم ما كان

---

(١) الولاية والشهادة في النكاح وحكم الزواج العرفي صـ ٢٢٤، رسالة ماجستير مقدمة من الباحث/ جمال الضمراني المحامي بالنقض طـ دار النهضة المصرية سنة ٢٠٠٧م .

لديهم من احترام للبيت الذي نشئوا فيه، ولا يرون في خبرة آبائهم ما يدعو للتبجيل لاتصالها بأعمال أو بيئة منبتة الصلة بأعمالهم أو بيئتهم الجديدة.

ويحاول الأب أو الأم ممارسة سلطتهما القديمة دون جدوى، وتتمرد البنت محاولة تزويجها بقريب لها لإدراكها أن بإمكانها الآن ـ عن طريق الزواج ـ تحقيق الصعود في السلم الاجتماعي، أو أن لديها من التعليم أو الخبرة أو المال المكتسب من الهجرة ما يؤهلها لذلك، فتطالب البنت بمزيد من التحرر لا تستسيغه عقلية الأب أو الأم التقليدية، ويزداد الطين بلة إذا كان الأب يتعرض لتآكل دخله الحقيقي مع التضخم حيث تضع من ثقته بنفسه أمام مطالب الأولاد المتزايدة تحت ضغط مظاهر التحول المحيطة بهم، ويشعر بعجزه عن فرض سلطانه مع فقدانه للقدرة على تلبية مطالبهم حتى المشروع منها»[١].

إن غياب الوالدين عن البيت طويلًا، وبعدهما عن مراقبة الأولاد، كان سببًا فاعلًا في التأثير على جودة الحياة من حب وحنان وتواصل وسعادة وبر ووفاء.

فليس بالمال وحده تسعد الأسر، وإنما بالتربية والإيمان والقناعة والتفاعل مع كروب الحياة، والآباء هم القدوة التي لابد منها لتعليم الأولاد ما يجب أن يكونوا عليه من تعاون وتواصل فيما بينهم من جهة، وفيما بينهم وبين الوالدين والمجتمع من جهة أخرى.

«لعلنا نلاحظ جميعًا أن البيت المصري حاليًا قد داهمته ظروف عديدة بفعل تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وهو أمر لا يمكن لأحد منا أن يتجاهله أو يدفعه عن بيته، فالتطور قد شمل المجتمع كله، وقديمًا كان البيت المصري في الريف أكثر ترابطًا بحكم أن (البيت الكبير) يأوي أفراد الأسرة جميعًا، حتى بعد أن يتزوج الأبناء الذكور. وكانت علاقات الإنتاج والعمل تسمح بأن تكون عيون جميع أفراد الأسرة مفتوحة ويقظة لأي تغيير يطرأ على واحد ممن يؤويه البيت، وفي المدن كان هذا الترابط والاقتراب تعرفه البيوت، ربما بدرجة أقل من بيوت الريف، وكان هناك وقت لدى رب الأسرة لرعاية أولاده فيما يخص دوره الذي يختلف بالطبع عن دور الأم المتفرغة بالكامل لشئون البيت والزوج والأولاد، ونحن الآن أمام صيغة اجتماعية جديدة استحدثتها حاجة الآباء والأمهات

---

(١) ماذا حدث للمصريين صـ ٣١، مرجع سابق.

معًا للعمل والبقاء فترات طويلة خارج البيت، وقد صاحب هذا اضطرار بعض الآباء ـ بل والأمهات أحيانًا ـ إلى الاغتراب الكامل ـ ليس بعيدًا عن البيت فقط ـ بل عن الوطن ذاته، فانحسرت سلطة الآباء والأمهات على الأولاد شيئًا فشيئًا، حتى أن بعض الأسر لا تكاد تعرف عن أولادها أحوالهم في مدارسهم وجامعاتهم، وتحول أفراد الأسرة الواحدة إلى جزر متباعدة، حتى أننا نرى في بعض الأسر توقف الحوار والحديث تمامًا بين أفرادها أيامًا متتالية، وفي بعض البيوت لا تكاد الأم تجد وقتًا للاطمئنان على أحوال الأبناء، وقد تطمئن عليهم من خلال الشغالات والمربيات، أما أصدقاء الأولاد فلم يعد للأسرة حاليًا أي علاقة باختيارهم، أو التعرف على خطورة بعضهم على الأبناء»[1].

***

(١) ثقوب في الضمير صـ ١٧٧ : ١٧٨ ، مرجع سابق .

المطلب الثالث: الهروب من المسئولية، بدعوى عدم القدرة على النفقة:

كثير من الناس لا يستطيع أن يصل رحمه بسبب الفقر، سألت خمسين رجلًا ممن يعيشون في القاهرة ولهم أهل وأقارب خارجها، هل تزورون أقاربكم بانتظام، ولو في العام مرة؟ (١٧) منهم قالوا: نعم، و(٣٣) قالوا: لا!!

سألت الـ(٣٣) عن سبب تخلفهم عن زيارة الأهل والأرحام؟ كان الجواب:

ظروف الحياة، وصعوبة المواصلات، والنفقة اللازمة للسفر، والهدايا اللازمة للأهل، والبعض قال لي: أنا لي أولاد في مراحل التعليم كادوا أن ينسوا أعمامهم وبني عمومتهم لطول الفراق، وندرة الزيارات.

هذا مع الأقارب والأرحام، أما في المنزل مع الزوجة والأولاد، فقد ذكرت ضعف دور الوالدين في تربية الأولاد بسبب العمل، والأخطر منه هو: تخلي الرجل عن قوامته في بيته.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: آية ٣٤].

«هذه الآية الجليلة تظهر لنا بوضوح أن القيادة والرياسة في البيت هي للرجل، ولكن كثيرًا من الرجال في هذا الزمان تخلَّو عن قوامتهم، وأصبحت المرأة في بعض البيوت هي الآمر الناهي حتى صار الرجل خاضعًا خانعًا ذليلًا لامرأته، فينشأ هؤلاء الأولاد والبنات في مثل هذه الصورة وهم يشاهدون خنوع أبيهم وضعف شخصيته أمام زوجته فلا يقيمون له وزنًا، فيكثر الانحلال في الأسرة وتشيع الفاحشة في البيت دون أن يستطيع الرجل أن يحرك ساكنًا فيصبح ديوثًا مثل التيس المستعار مع أن رسول الله ﷺ يقول: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[(١)]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسئول عن ريته والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها....[(٢)]».

(١) صحيح ابن حبان عن أبي هريرة برقم (٤١٦٢)، باب معاشرة الزوجين (٩ / ٤٧٠) مؤسسة الرسالة مرجع سابق .

(٢) الولاية والشهادة في النكاح وحكم الزواج العرفي صـ ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، مرجع سابق ، والحديث رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما برقم (٨٥٣)، باب الجمعة في القرى والمدن (١/ ٣٠٤) دار ابن كثير مرجع سابق.

إن الله عزوجل يقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، فالزواج السعيد هو الذي يفيض على الزوجين والأولاد، بالمودة والرحمة والسكن وراحة البال، فإذا عكر صفوه الجوع والفقر انقلبت هذه الأشياء إلي ضدها فكان التنازع والتدافع وتبادل التهم والتراشق بالكلمات، والهروب من المسئوليات، «ولا يخلو الأمر دائمًا من معايرة الابن بالفشل والتنبؤ له بعدم النجاح ـ أما عند حدوث النزاع بين الوالدين، وهروب كل منهما من تحمل المسئولية فإن لذلك تأثيره الواضح على الأولاد، ومثل هذا الجو يمكن أن يدفع الابن إلى إدمان ما.

وعندما يجد الابن النزاع الدائم في البيت، فإنه يهرب غالبًا إلى الشارع، وليس غريبًا أن ينحرف مع أصدقاء السوء إلى طريق الإدمان.

كذلك قد تهتم الأم بعملها أكثر من اللازم وتنصرف بذلك تمامًا عن البيت والأولاد.

ونفس الشيء يمكن أن يحدث عندما يهاجر الأب للعمل في مكان بعيد عن بيته، ويترك بذلك أولاده بلا رعاية كافية، وتزداد خطورة ذلك عندما يكون الأولاد في سن البلوغ، فالابن في هذه المرحلة يحتاج إلى القدوة، كما يحتاج إلى التواجد العاطفي من الوالدين»[١].

إن المرء إذا أحس بالعجز وعدم القدرة على توفير ما يحتاج إليه البيت والزوجة والأولاد ... أحس بالذل والهوان .. وربما غرم فاستدان فعجز عن سداد الديون ... كلها عوامل تبعث على الهروب من المنزل والفرار من المواجهة، أو عدم التفكير الجاد في السداد والقيام بالواجبات.

ولقد كان ﷺ يتعوذ من الفقر والقلة والذلة[٢]، وكان ﷺ يقول: «إن الرجل إذا استدان حدث فكذب ووعد فأخلف»[٣].

وسأذكر ـ إن شاء الله ـ في الصفحات التالية العزوف عن الزواج والإحساس بالعجز عن تكوين أسرة، بسبب الظروف المعيشية، والحالة الاقتصادية التي تعاني منها البلاد والعباد.

---

(١) ثقوب في الضمير صـ ١٨٠ ، مرجع سابق .

(٢) قد سبق تخريجه صـ

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٩٨)، عن عائشة رضي الله عنها، باب الدعاء قبل السلام (١/ ٢٨٦) دار ابن كثير مرجع سابق.

المطلب الرابع: العزوف عن الزواج والإحساس بالعجز عن تكوين أسرة:

أولًا: غلاء المهور:

إن الإنسان لا يستغني عن الزواج، ولا تستقيم الحياة، ولا تستقر بدون زواج، فكما أن الإنسان يحتاج إلى الطعام والشراب والإخراج، يحتاج أيضًا إلى الزواج، وإن صبر عدد من أقوياء الإيمان عامًا أو أعوام لا أظنهم يصبرون على الدوام، «إن إتاحة الزواج للراغبين مسألة لا تقل عن ضمان الأقوات للشعوب، وعندي أن وزارة التموين لا تمثل إلا نصف المشكلة المادية، وأن شئون الزواج والأسرة تحتاج إلى وزارة أخرى، والطبقات الفقيرة والمتوسطة تواجه مع الزواج ثلاث مشكلات، فالمهر عقبة، وقد يسهل اجتيازها، فتبقى مشكلة الدخل الذي يصون البيت الجديد والأسرة الناشئة، ثم تبقى مشكلة الدخل الواسع، الذي يكفل حياة أولاد يجب تغذيتهم وتربيتهم على خير وجه .. هذه كلها عوائق اقتصادية، لا يقوى الدين بالكلام على حلها»[1].

الميل إلى الزواج أمر فطري، فالإنسان ـ رجل كان أو امرأة ـ بمجرد بلوغه سن الاحتلام يجد رغبة شديدة في الجنس الآخر... يبدأ يفكر في هذا الأمر، ويسعى لتحقيقه والوصول إليه، وقد يخطو خطوات إلى الأمام في طريق الزواج، فيفاجئ بأمور لم تكن في الحسبان كغلاء المهور ... ونفقات الزواج الأخرى ... وعدم وجود فرصة عمل تفتح له باب الأمل .... وتمر السنون .... ويتقدم العمر مما يجعل البعض يحس بالعجز وعدم القدرة على إتمام مشروع الزواج.

ثانيًا: اللجوء إلى الزواج العرفي:

«إن من أهم أسباب إنتشار ظاهرة الزواج العرفي، هو ما يحدث في الكثير من الأسر في هذا الزمان بل أكاد أجزم أنه في غالبية البيوت والأسر المصرية تحدث مغالاة هائلة في المهور، ونفقات وتكاليف الزواج، حتى أصبحنا نرى الكثير من الآباء عندما يتقدم شاب للزواج من إحدى بناته فإنه يرهق كاهله بالطلبات الكثيرة والمهر الكبير المغالى فيه، مما يجعل الشباب يعزفون عن الزواج حتى وصل بنا الأمر أن بلغ متوسط سن الزواج للرجل خمسة وثلاثون عامًا، ومتوسط سن الزواج بالنسبة للمرأة أصبح ثلاثين عامًا في حين أن المغالاة في المهور وكثرة المطالبة بنفقات الزواج أمر غير مرغوب في

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ ٦٦،٦٧ مرجع سابق، بتصرف.

الدين الإسلامي الحنيف الذي يحرص كل الحرص على إتاحة فرص الزواج لجميع الشباب القادرين على القيام بأعباء الزوجية.

لقد كره الإسلام المغالاة في المهور فقال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ : «خير الصداق أيسره»[1]، ووجدنا النبي ﷺ يزوج رجلًا فقيرًا لا يملك من حطام الدنيا شيئًا سوى آيات من كتاب الله يحفظها عن ظهر قلب فكانت مهرًا لعروسه، ووجدناه ﷺ يزوج آخر بخاتم من حديد[2].

إن جهل الناس بالتعاليم الدينية السمحة قد أرداهم بالمهالك عندما حادوا عنها بالمغالاة في المهور وأبوا تزويج بناتهم إلا إذا دفع الزوج مبلغًا كبيرًا من المال يرهق كاهله ولا يستطيع الوفاء به فنشأ عن ذلك كساد سوق الزواج وأصبح الحلال صعب المنال واتجه كثير من الشباب والفتيات إلى الحرام السهل المتاح»[3].

وهذا ضياع لقيم أصيلة في المجتمع المسلم، واستبدالها بغيرها من القيم الأخرى بسبب الجهل والفقر.

ثالثًا: مبررات رفض الزوج الصالح:

قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[4].

إن الفقر وعدم القدرة على تكاليف الزواج يعطي المبرر لأولياء الأمور في رفض زواج بناتهم من

---

(١) المستدرك على الصحيحين عن عقبة بن عامر برقم٢٧٤٢تحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب بيروت (٢/١٩٨) ط الأولى١٩٩٠م، وانظر صحيح أبي داود رقم(٢١١٧)، وكتاب نيل الأوطار للشوكاني، كتاب الصداق صـ١٦٧.

(٢) هذه الروايات مخرجة في الصحيحين، صحيح البخاري ٥٠٨٧، وصحيح مسلم ١٤٢٥، والحديث ورد في كتاب (سبل السلام) للصنعاني من حديث سهل بن الساعدي حديث رقم ٩٠٧، كتاب النكاح صـ٨٠٤.

(٣) الولاية والشهادة في النكاح وحكم الزواج العرفي صـ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، بتصرف ، مرجع سابق .

(٤) المستدرك على الصحيحين عن أسامة بن زيد برقم ٢٩٤٤ (٢/ ٢٦٢) دار الكتب العلمية مرجع سابق،والحديث حسن صحيح، انظر غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام للشيخ الألباني ج١/ ط٣ رقم(٢١٩) دار النشر بيروت سنة ١٩٠٥م.

الفقراء، ضاربين بتوجيهات الشرع عرض الحائط، وكم تطالعنا الصحف اليومية بحوادث مروعة بسبب العجز عن إتمام مشروع الزواج في صحيفة الجمهورية: «بسبب فسخ خطبته لمروره بضائقة مالية أعجزته عن إتمام الزواج ... أصيب بالاكتئاب، وحاول الانتحار، أمسك السكين، وسدد لنفسه عدة طعنات في البطن إلا أن الجيران قاموا بإنقاذه في اللحظات الأخيرة وأسرعوا به إلى المستشفى وهو يصارع الموت»[١].

رابعًا: الاستخفاف بأهداف الزواج وقيمه:

يقول الله ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم:٢١] ، وقال ﷺ : «تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[٢]، فأهداف الزواج وغاياته السكنى والمودة والرحمة وإنجاب الذرية الصالحة ، والآن«معظم عقول شبابنا تسيطر عليها متطلبات الحياة المادية، فالزواج ـ عند الكثير منهم ـ مسألة إشباع الحاجات الأساسية، بصرف النظر عن قيمة الزواج وأهدافه مجتمعة، القريب منها والبعيد، من هنا يغلب على مسألة الزواج الطابع الانتهازي الجنسي الذي لا ينتهي ـ غالبًا ـ بالزواج المشروع القائم على أسس متينة والقابل للحياة، ونتج عن ذلك ضياع القيم وقبول اقتران المرأة بالرجل تحت أي وهم يسكت الضمير ويوحي لهما ولمن حولهما أن هذا زواج شرعي، مثل ما يسمى بزواج الهبة، وزواج المتعة، والزواج السري، وزواج الشغار، وغيرها من المسميات التي يطول ذكرها والحديث عن مضارها»[٣].

(١) صحيفة الجمهورية عدد (٢٠٣٧٤) يوم ٩/ ١٠/ ٢٠٠٩م صفحة ١٥، وللمزيد من هذه الأخبار انظر مجلة منبر الإسلام صـ ١٢٠، العدد (٦) السنة ٦٦ شهر جمادى الآخرة سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ومجلة التصوف الإسلامي صـ٢٥/ عدد ٣٣١ السنة ٢٨ ن شهر رجب سنة ١٤٢٧هـ / أغسطس ٢٠٠٦م، ومجلة الحوادث التي لا يخلو عدد منها من ذكر أخبار مروعة عن مشاريع الزواج الفاشلة.

(٢)مصنف عبد الرازق لأبي بكر الصنعاني (٦/ ١٧٣) المكتب الاسلامي بيروت برقم ١٠٣٩١ عن سعيد بن أبي هلال تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ط الثانية ، والحديث صحيح انظر صحيح الجامع ص ٢٩٤٠ .

(٣) للمزيد انظر كتاب الأسرة المسلمة في العالم المعاصر أ.د/ وهبة الزحيلي صـ٧٣ وما بعدها صـ دار الفكر المعاصر ، بيروت ـ لبنان سنة ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م .

المطلب الخامس: كثرة العداوات والخلافات بين الأقارب:

الخلافات بين الأقارب كثيرة، وأسبابها متنوعة، ومعظمها بسبب الأموال، وضيق الرقعة الزراعية والمساكن خصوصًا إذا كان الميراث قليلًا أو محدودًا،والكل يعلق عليه أمل البقاء والحياة والمستقبل، ففي مثل هذه الحالات يشتد الصراع ويكثر النزاع، وتنتهك الحرمات، وتصبح المسألة مسألة حياة أو موت.

إن الطمع والحاجة إلى المال تدفع المرء إلى بيع دينه بدنياه قال ﷺ: «يصبح المرء مؤمنًا ويمسي كافرًا يبيع دينه بعرض من الدينا»[1]، وإذا كان المرء يبيع دينه بعرض من الدنيا، ألا يبيع أهله، وهو يظن أو يعتقد، أنهم يهددونه في رزقه ومصدر كسبه وسكنه، حيث إن كثيرًا من الفقراء ـ وقد عضه الفقر ـ لا يثق برزق سوى الذي تحت يديه وتعود عليه، ويزعجه جدًّا، أن يفاجىء بمن يطرده منه أو يقاسمه فيه، فتقوم الخصومات، وتكثر الخلافات.

هذا للأسف هو الواقع في الريف المصري ومعظم الأماكن الفقيرة ـ إلا ما رحم ربي ـ ولا تقف هذه الخلافات عند حد الخصام أو الهجر أو السباب ... بل تصل ـ أحيانًا ـ إلى حد القتال، بل وربما قتل الأب أو الأم استعجالًا للميراث»[2].

قد يحدث هذا بدافع الفقر، وقد يحدث بدوافع أخرى، بيد أن الفقر هو أقوى الدوافع، إن لم يكن أقواها على الإطلاق، إذ إن الفقر ابتلاء، والإنسان بطبعه مفطور على حب المال، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:من ١٥ : ٣٠].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ يعني الميراث (أكلا لما) أي من أي جهة حصل لهم، من حلال، أو حرام»[3]، هذه طبيعة كثير من الناس.

---

(١) صحيح ابن حبان عن أبي هريرة برقم ٦٧٠٤ (١٥ / ٩٦) مؤسسة الرسالة مرجع سابق ،والحديث حسنه اللبانى انظر السلسلة الصحيحة ،٨١٠.

(٢) انظر كتاب ماذا حدث للمصريين صـ ٢٩ ، مرجع سابق .

(٣) تفسير ابن كثير ج٤ صـ٥١٠ ، مرجع سابق .

وإذا كان المرء مفطورًا على حب المال، وعلى حب نفسه، فهو مفطور أيضًا على حب أولاده، ومع ذلك قد يقتل ولده مخافة أن يطعم معه، قال ﷺ وقد سئل: أي الذنب أكبر: فقال«.... وأن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»[١].

إن كثرة الخلافات والعداوات بين الأقارب بسبب الميراث كثيرة ومشهورة، وعلى سبيل المثال تقول صحيفة الحوادث: «الميراث ومبلغ من المال اختلف عليه شقيقان بمدينة شبين القناطر الخيرية، بمحافظة القليوبية، كان دافعًا قويًّا لكليهما ليفكر في قتل شقيقه والتخلص منه؛ أملًا في الفوز بنصيبه بميراث والده بعد مشاجرة عنيفة بينهما......»[٢].

إذن لا نبرئ الفقر من التحريض على الشر، وقطيعة الرحم وبث العداوات بين الأقارب والعصبيات، مع التأكيد ـ مرة ثانية ـ أنه ليس ذلك ذريعة للإقدام على مثل هذه الأعمال الفظيعة.

والله أسأل أن يصلح البلاد والعباد.

* * *

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله (٤/ ١٦٢٤) باب قوله تعالى فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون برقم (٤٢٠٧) دار ابن كثير مرجع سابق.

(٢) صحيفة الحوادث ، السنة الثانية ، العدد ٦٥ ، السبت ٣١ من أكتوبر سنة ٢٠٠٩م صـ ١٥ ، تحت عنوان (ظهور قابيل وهابيل في القليوبية) ، تفاصيل الخبر أن معركة بالسلاح الأبيض دارت بين الشقيقين، تجرد فيها الشقيقان من مشاعر الإنسانية ـ كما تقول الصحيفة ـ وأخرج كل منهما مطواه قرن غزال، وحاولت شقيقتهما إنهاء حدة الخلاف بينهما فأصيبت بعدة طعنات نافذة في مناطة متفرقة من جسدها .... ، ولولا خشية الإطالة لذكرت الكثير والكثير من هذه الخلافات التي صارت ـ مع الأسف ـ هي العرف السائد الآن ، إذ قلما يقسم ميراث بهدوء ورضا وتفاهم في ظل الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي تمر بها البلاد ، والطمع الزائد وعدم الخوف من الله، ولقد مرت بي حالات كثيرة بحكم عملي في المسجد والفتوى ، ونزولي إلى الريف ونشأتي الأولى به، مما دفعني أن أسأل عددًا من رجال القانون فأكدوا لي أن قضايا النزاع على الميراث والطلاق هي أكثر القضايا في المحاكم الآن.

المبحث السادس: أثر مشكلة الفقر على أمن المجتمع واستقراره

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: زيادة معدلات الجريمة.

المطلب الثاني: تبلد الحس وترك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الثالث: زيادة عدد اللقطاء وأطفال الشوارع.

المطلب الأول: زيادة معدلات الجريمة:

ذكرت جريمة الرشوة التي تفشت بكثرة في المجتمع المصري، وأود ـ هنا ـ أن أذكر بعضًا من الجرائم التي لها صلة ـ من قريب أو بعيد ـ بمشكلة الفقر.

١ – الاعتداء على الزوجات:

يقول الدكتور عبد الهادي موسى أستاذ علم النفس، جامعة المنيا: «إن تفاقم حدة عنف الأزواج ضد الزوجات في المجتمع المصري يرجع إلى تزايد الأعباء والضغوط على الأسرة في الفترة الأخيرة خاصة مع اتجاه الدولة لسياسة الخصخصة وارتفاع الأسعار وعدم كفاية الدخل لشراء احتياجات البيت ومصروفات المدارس والدروس الخصوصية وقائمة الفواتير من كهرباء ومياه وغاز وتليفونات وغيرها مما يستنزف الإمكانيات المادية لمعظم الأسر، وأشار إلى أن هذه الضغوط تنعكس على سلوكيات الزوج أكثر من غيره لأنه هو الذي يعول الأسرة خاصة في الأسر التي لا تعمل فيها الزوجة مما يؤدي إلى اعتدائه على زوجته بالضرب الذي يصل في بعض الأحيان إلى القتل أو إلقائها من الشباك أو إشعال النار فيها أو قذفها بموقد كيروسين مشتعل ونحو ذلك مثلما نرى في الحوادث التي تنشرها الصحف موضحًا أن الزوج دائمًا يُحمّل زوجته مسئولية الأوضاع البائسة التي يعيشها»[(١)].

مع أن الفطرة السليمة تشهد أن للإنسان ميولًا طبيعيًا لأسرته، وولده وزوجته، ووطنه وأهله، يصل في ـ بعض الأحيان ـ إلى درجة التفاني والفداء، وذلك عند العقلاء والأسوياء من أهل القناعة والإيمان، أما الضعفاء الذين قضى الفقر على قيمهم، ومروءتهم، فكما أنهم يبيعون دينهم وأهليهم بعرض من الدنيا، يبيعون أوطانهم ومجتمعاتهم أيضًا.

٢– الخطف وترويع الآمنين:

لا يخلو يوم من عمليات الخطف، وترويع الناس، وانحراف السلوك، والعنف ... بدوافع كثيرة ومنها الهموم المعيشية والحالة الاقتصادية المتردية، مما جعل المحاكم تقتظ بالقضايا الإجرامية «خمسة

---

(١) مجلة التصوف الإسلامي عدد (٣٣١) سنة ٢٠٠٦م صـ ٣٢ رجب سنة ١٤٢٧ هـ تحت عنوان:١٨ ٪ من الزوجات المصريات يتعرضن للضرب على أيدي الأزواج، لأسباب منها : (الفقر) دراسة صادرة عن المجلس القومي للسكان ، ويؤكد الشيخ / فكري حسن إبراهيم عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن انتشار ضرب الزوجات يرجع إلى الظروف الاقتصادية التي غيرت المفهوم الحقيقي للزواج ..... انظر صـ ٣١ ، ٣٢.

ملايين حكم بالحبس في سنة واحدة، والعلماء يقولون: البطالة والفقر هما السبب، أصدر المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية إحصائية عن عدد الأحكام التي صدرت خلال عام ٢٠٠٩م بلغت أربعة ملايين و٩٣٥ ألف حكم بالحبس بينما بلغت أحكام الغرامة ، وثلاثة ملايين و٥٢٥ ألفًا»[1]، هذه الأعداد الهائلة التي ترصدها الصحف عن معدل ارتفاع الجريمة والتي تهدد أمن المجتمع واستقراره، وتؤكدها أيضًا الدراسات الأمنية المتخصصة في مراقبة ومكافحة الجريمة، يقول الدكتور/ عزت الشيشيني والأستاذ الدكتور/ هشام مخلوف تحت عنوان: (العوامل التي تدفع المتعطل إلى ارتكاب الجريمة):

العوامل الاقتصادية:

ترتبط البطالة غالبًا بانخفاض دخل العاطل انخفاضًا حادًّا، أو فقدان الدخل كله مما يجعل الفرد فقيرًا، سواء فقرًا مطلقًا بمعنى عدم القدرة على الحصول على ضروريات الحياة العصرية أو فقرًا نسبيًّا أي بالنسبة للمجتمع الذي يعيش فيه، فإذا ما طال أمد هذا الانخفاض الحاد في الدخل أو استحكم، فإنه قد يؤدي إلى السلوك الإجرامي والانحراف بدافع من الحاجة المادية والعوز الاقتصادي، وهذه علاقة اقتصادية مباشرة بين البطالة والجريمة.

وقد تتولد علاقة اقتصادية غير مباشرة بين البطالة والجريمة عن طريق تأثر أسرة العاطل من سوء الرعاية الصحية وسوء التغذية والانقطاع عن التعليم في سن مبكرة، أوالإخفاف فيه، الأمر الذي قد يؤدي إلى الاختلاط بالجماعات الإرهابية التي تسد إلى حد بعيد حاجة هؤلاء المعوذين، ويجدون عندهم الملاذ من حالة البطالة والفقر التي يعانيها رب الأسرة العاطل»[2]، لأن «غالب الشباب يعيش يعيش أزمات اقتصادية واجتماعية شائكة، عزلتهم عن واقع الحياة العملية والإنتاج وأخرت دخولهم عشر سنوات أو أكثر إلى عالم الكبار لصغر الاسن وعدم الخبرة، مما أدى بهم إلى الشعور بالتفاهة وعدم الأهمية وهذا ما يدفع بعضهم إلى التعبير عن رفضهم ونقدهم للمجتمع من خلال سلوكيات شاذة من العنف والتمرد والغلو» [3].

---

(١) صحيفة الجمهورية يوم ١٢/ ٢/ ٢٠١٠م عدد (٢٠٥٠٠) صفحة ٥، تقول الصحيفة: علماء الدين والاجتماع ناقشوا هذه الاحصائيات، مؤكدين أنها دليل على الإنقلاب وغياب القيم بسبب الظروق الاقتصادية الصعبة التي تحيط بالشباب وتعصف بمستقبلهم .... ومن العلماء الذي ناقشوا هذه المسألة الأستاذ الدكتور/ حذيفة المسير/ الأستاذ بكلية أصول الدين جامعة الأزهر الشريف، والشيخ يوسف البدري ... انظر تفاصيل الموضوع في الصحيفة المذكورة .

(٢) الديموجرافيا الأمنية صـ ١٢١ ، مرجع سابق .

(٣) د/ عدنان حسن باحارث وسائل المجتمع الاقتصادية لتأهيل الشباب المبكر للحياة الاجتماعية، صـ٦٤، ط دار المجتمع للنشر والتوزيع سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م الطبعة الأولى.

وفي تقرير وزارة الداخلية/ مصلحة الأمن لعام ١٩٩٤م تتصدر مشكلة الفقر والبطالة معظم الجرائم التي تم ضبطها في عام واحد، حيث هي على النحو التالي: تحت عنوان:

بلغت نسبة ضبط المتهمين في الجنايات:

الخطف	٨٨٪
هتك العرض	٩٩٪
السرقة بالإكراه	٩١٪
الرشوة	١٠٠٪
تزوير أوراق رسمية	٩٦٪
تزوير أوراق مالية	٩٤٪
تعرض وسائل النقل العام للخطر أو تعطيلها	١٠٠٪
سرقة الأسلاك	٦١٪»[١]

بالنظر إلى الجدول السابق يتبين لنا أن الجرائم تكون من الأغنياء والفقراء، ويكفى أن نتامل العبارة الأخيرة (سرقة الأسلاك) الخاصة بالكهرباء، للانتفاع بها أو بيعها للخردة، ألا يدل ذلك على أن البلاد في أزمة ومحنة بسبب الفقر، وصلت إلى درجة سرقة أسلاك الكهرباء.

«ليس هناك في مصر من لا يتكلم عن (الأزمة) أو (المحنة) فسواء أكان هو الاقتصاد أو المجتمع أو السياسة أو الثقافة ... ، ما أسرع أن تردد عبارات مثل (محنة الاقتصاد المصري) أو (تدهور الأخلاق والقيم) والاقتصاديون المصريون يشكون اختلال الهيكل الاقتصادي لصالح القطاعات غير الإنتاجية.

وعلماء الاجتماع يشكون شيوع ما يسمى بالفساد والتسيب وعدم الانضباط، ومن زيادة حوادث العنف، وظهور أنواع جديدة من الجرائم وتفكك الأسر، وانتشار قيم مادية تعلي من قيمة الكسب السريع على حساب العمل المنتج»[٢].

(١) للمزيد انظر تقرير وزارة الداخلية/ الأمن العام، مطابع الشرطة للطباعة والنشر والتوزيع سنة ١٩٩٤م، لانني اكتفيت بالعناوين والجدول، دون الدخول في التفاصيل التي تؤكد ما سبق ذكره من وجود علاقة بين الفقر والبطالة، وبين ارتكاب الجرائم .

(٢) ماذا حدث للمصريين صـ٩ ، مرجع سابق .

وهذه في حد ذاتها جريمة كبرى تهدد أمن المجتمع واستقراره، إذ كيف يستقر مجتمع فيه قلة يكسبون ويتضاعف كسبهم بسرعة، وفي مشاريع غير منتجة، في حين أن الأكثرية منه ما بين عاطل وفقير، ألا يدعو ذلك إلى ارتكاب الجرائم والآثام؟!

«ما أضخم القضايا التي تنتظرها المحاكم عندنا من: جنايات ، وجنح، ومخالفات، والعلة الأصيلة في هذا، أن الاختلال المادي والأدبي هو الذي مكن لشياطين الإجرام أن تعمل وتنجح، ولنضرب مثلًا ببعض الجرائم الشائعة لنرى مصداق ما قلناه.

يقول الدكتور عبد الرءوف الضبع أستاذ الاجتماع ووكيل كلية الآداب جامعة سوهاج: «إن الفقر مصدر كافة الأمراض الاجتماعية، فهناك ارتباط وثيق بين الفقر وارتفاع معدلات الجريمة والتطرف والإرهاب، بالإضافة إلى انتشار المخدرات، وإن الفقر ـ في الوقت نفسه ـ يعد أهم معوق للتنمية، فمحدودي الدخل أكثر إنجابًا من الأغنياء .... وإن الفقر يؤدي إلى ارتفاع الأمية، والتسرب الدراسي»[1].

٣- السرقة والسطو على ممتلكات الغير:

السرقة جريمة خلقية واجتماعية كبيرة رتب عليها الدين عقوبة دنيوية تتراوح بين قطع اليد وقطع العنق، عندما تكون السرقة في الخفاء، أو يكون صاحبها مدمن سرقة [2] واختلاس، وعقاب كهذا ليس به شائبة قسوة، مادام القصد من تنفيذه تأمين الحدود، وصيانة الجهود، وتوجيه الناس إلى العيش من كسب حلال، لا السطو على كسب غيرهم، والعيش من حرام ولكن هذه الأغراض كلها تذوب في مجتمعنا الذي يذخر بأسباب التملك الباطل، ووسائل الاستغلال المريب. والاضطراب الاجتماعي الخطير في هذا الوادي، وهو الذي يصم باللصوصية أقوامًا كانوا من الممكن أن لا يوصموا بها قط، ويبرئ من اللصوصية أقوامًا ينبغي ألا تفك عنهم أبدًا»[3].

---

(١) صحيفة الجمهورية عدد (٢٠٣٨٨)، صـ٣، بتاريخ: ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٩م.

(٢) يشير الشيخ : إلى حد الحرابة الوارد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾، وللعلماء آراء متعددة في تنفيذ إحدى العقوبتين أشهرها : أنه إن سرق فقط تقطع يده، وإن سرق وقطع الطريق أو قتل ؛ تقطع عنقه .

(٣) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ ٦٤ ، ٦٥ ، مرجع سابق .

وكما أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تكلم عن السرقة على أنها أبرز مظاهر الفقر، تكلم أيضًا عن الزنا والتعطل، وربط بين هذه الجرائم وبين الفقر، ثم بين خطرها على الأمم والشعوب .... وهذا يؤكد لنا أن هناك إجماع على أن مشكلة الفقر تؤثر سلبًا على أمن المجتمع واستقراره.[1]

لأن (هناك علاقة بين الفقر وانحراف الأحداث، فللظروف الاقتصادية دور هام في تكوين أسباب الجريمة وذلك لعدم وجود الضروريات التي تشبه حاجات الحدث كالمأكل والملبس والمسكن، فالفقر يولد الانفعالات المتدنية لدى الفرد نتيجة شعوره بذلك، وهذا الوضع يقود إلى الرزيلة بجميع صورها، والجريمة واحدة منها، والفقر عامل أساسي في تكوين السلوك الاجرامية وكثير من الجرائم وخاصة السرقة تدفع إليها الحاجة المدية)[2].

والآن أذكر نوعًا خاصًا من الجرائم، كالسرقة بالإكراه، والسطو على ممتلكات الغير، هذه جرائم لها طابع خاص، ودلالة مميزة، فالسرقة خلسة وخفية ـ وإن كانت جريمة كبرى ـ إلا أن السرقة بالإكراه والسطو على ممتلكات الغير، أخطر وأكبر وأشد جرمًا وفجورًا، وفتكًا بالقيم الإنسانية والأخلاق الإيمانية، ـ ومع الأسف ـ انتشرت بكثرة هذه الجرائم في مصر، وهي في ازدياد مستمر، ولأسباب من أهمها وأخطرها الفقر.

هذا ما أكد عليه العلماء مرارًا، بل وأثار استغراب وتساؤلات بعضهم فقال: «ماذا حدث في بر مصر؟ لقد تزايد معدل تلك الحوادث وتنوعت بين وقائع القتل والسرقة والفساد بكل ألوانه، وتصاعدت الجرأة في الاعتداء على الآمنين وترويعهم بما يصل إلى حد إغلاق مجموعة من الأشقياء مدخل التجمع الخامس بالقاهرة الجديدة واعتراض سيارة تقودها سيدة ومعها أطفالها من دون أن يبدو أثر لأفراد الأمن، ولولا العناية الإلهية التي ألهمت تلك السيدة أن تنطلق بسيارتها غير عابئة بالمعترضين لكان مصيرها وأطفالها معروفًا، وتتزايد حالات العنف والانفلات بين طوائف كثيرة من الناس، ويشتبك أعضاء مجالس إدارة النقابات بالأيدي حين يختلفون، ويستخدم المتنازعون على رئاسة الأندية الرياضية البلطجية لمنع منافسيهم من دخول النوادي، وهكذا الكل يتصرف بوحي من

---

(١) للمزيد انظر كتاب سبب الجريمة صـ١٦ ، وصـ٣٤ ، مرجع سابق .

(٢) إنحراف الأطفال المسمى جرائم الصغار، صـ ٣٢- ٣٣ ،مرجع سابق، نقلاً عن عبود السراج كتاب علم الإجرام ط ٢ الكويت صـ١٣٨ سنة ١٤٠٣هـ.

إرادته ومصالحه الذاتية غير مكترث لقانون أو متهيب لسلطة، ونقرأ عن انعدام الأمن والرقابة داخل محطات المترو، وتعدد حوادث السرقة داخل القطارات، وأمام سلالم الصعود والهبوط الكهربائية، وانتشار حالات سرقة السيارات، ناهيك عن الفوضى العارمة في الشارع المصري وفي كل الأحياء، فالسيارات تسير بدون لوحات المرور، وأصحاب السيارات يقودونها في عكس الاتجاه لاختصار بضعة أمتار بدلًا من الدوران في الأماكن المخصصة، وتجاوز السرعات وانعدام الالتزام بقواعد السير كلها أصبحت علامات مميزة للشارع المصري.

مرة أخرى ماذا حدث في بر مصر؟ نحن نرى أن تلك الحالة تعود في الأساس إلى عنصرين أساسيين:

الأول: هو الضائقة الاقتصادية التي تأخذ بخناق الناس وتجعلهم يلهثون بحثًا عما يواجهون به متطلبات الحياة بأي وسيلة حتى ولو كانت غير شرعية.

والثاني: هو التركيز على الأمن السياسي وضبط القوى السياسية والتقييد على حركة منظمات المجتمع المدني، ومن ثم الانشغال عن الأمن بمفهومه العام»[1].

إن الله ﷻ عندما ذكّر أهل مكة بنعمة الأمن، وحثهم على عبادته وحده، ربط ذلك بالإطعام من جوع، حيث قال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣،٤]، والمتأمل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] : يجد أن الإفساد درجات، أخطرها إفسا الشيء الصالح، فالأرض الصالحة للمعيشة والحياة الكريمة تساعد أهلها على احترامها والحفاظ عليها، يقول ابن كثير في تفسير الآية السابقة: «ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح، فإنه إن كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان آخر ما يكون على العباد»[2].

أما إذا كانت الأمور ـ لاسيما الأرزاق والأقوات ـ فاسدة، والفساد منذ سنين طويلة ولا أمل ـ قريب ـ في حلحلة المشكلات الاقتصادية بما يبعث الأمل، ويوقظ الضمير، ترى كيف يكون حال البلاد والعباد؟

(١) مصر المحروسة صـ ١٨٢ ، ١٨٣ ، بتصرف يسير ، مرجع سابق .

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ صـ ٢١٢ ، مرجع سابق .

الجواب في هذا التقرير: «الجريمة تتأثر بدرجة كبيرة بمشكلة البطالة حيث توجد علاقة طردية بينهما، كما تتأثر بأعمار مرتكبي هذه الجرائم وحالتهم التعليمية.

تشير بيانات دراسة بمعهد التخطيط القومي إلى أن حوالي ٤٢٪ من مرتكبي جنايات السرقة عاطلون، وذلك في عام ١٩٨٣، وأن هذه النسبة ارتفعت قليلًا لتصل إلى ٤٤٪ عام ١٩٨٨.

ومن واقع دراسة مركز بحوث الشرطة بلغ إجمالي المتهمين في جريمة السرقة بالإكراه في الفترة محل الدراسة (١٩٨٦ ـ ١٩٩٥) ٥٨٩٨ متهمًا منهم ٢٦٥٠ متهمًا عاطلًا يمثلون ٤٤.٩٪ من إجمالي المتهمين.

كما يتركز التوزيع العمري لمرتكبي تلك الجريمة في الفترة محل الدراسة،في الفئة العمرية (٢٠ ـ ٣٠) سنة، وهذه الفئة يوجد بها غالبية المتعطلين حيث أن حوالي ٦٩٪ من المتعطلين يوجدون في هذه الفئة العمرية كما أشارت بيانات دراسة المركز الديموجرافي عن البطالة المشار إليها»[١].

هذا الذي أشارت إليه الدراسات السابقة، وتطالعنا بمثله الصحف اليومية[٢]، من واقع مرّ تعاني منه المجتمعات الفقيرة على وجه الخصوص، ففي منشية ناصر ومدينة السلام ـ على سبيل المثال ـ وهما منطقتان عملت بهما إمام وخطيب سنين طويلة، كان لا يمر أسبوع دون شكوى من سرقة بالإكراه أو خطف حقائب النساء، فكثير من الشباب العاطل يحمل السلاح ، ويوقف المارة، وينتزع منهم المال تحت تهديد السلاح، وآخرون يركبون الدرجات النارية ويخطفون الحقائب من أيدي أصحابها ويهربون، وعند البحث والتحري تبين أن معظم هؤلاء شباب عاطل عن العمل ومن أسر فقيرة لا توفر له الحد الأدنى من الحياة الكريمة.

---

(١) الديموجرافيا الأمنية (المفاهيم والأساليب) صـ ١٢٥ ، مرجع سابق ، نقلًا عن مركز بحوث الشرطة، البطالة والجريمة ، المركز الديموجرافي بالقاهرة سنة ١٩٩٩م المؤتمر الثامن والعشرون لقضايا السكان ، وعن أ/ نادرة وهدان ، تأثير البطالة على معدلات الجريمة في مصر مذكرة خارجية رقم (١٥٢٦) ، معهد التخطيط القومي ، مايو ١٩٩١م.

(٢) انظر ما نشرته صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٧/ ٦/ ٢٠١٠م صـ٢٩ ، عن تفاصيل حادث الهجوم المسلح على سيارة ترحيلات الشرطة ، وأخبار اليوم في نفس اليوم ٢٧/ ٦/ ٢٠١٠م صـ ١٠ ، عن التعديات على الترع ، وتدمير أرض شباب الخريجين .

والأغرب من ذلك والأعجب، سرقة الأعضاء البشرية، أو الإغراء ببيعها لمن يدفع الثمن، وبين يدي عشرات المقالات التي نشرتها المجلات والصحف اليومية، يقول الدكتور/ صلاح عبد اللطيف: «قاومت نقابة الأطباء وغيرها من المؤسسات العلمية التجارة في الأعضاء البشرية وذكر كبار أطباء مرضى الكلى أن ٩٨٪ من عمليات نقل الكلى في مصر تتم على سبيل التجارة وأن ٢٪ فقط تتم على سبيل التبرع لدوافع إنسانية، وقد أعلن ذلك المؤتمر الدولي الثاني لجغرافية أمراض الكلى ونشرته الأهرام في ٣٠ نوفمبر ١٩٩٣م، وقاومت النقابة بيع الكلى ونشرت روزاليوسف في ٢١ أبريل ١٩٩٧م أن الدكتور حمدي السيد أبلغ النائب العام عن طبيبين يبيعان الكلى للأثرياء العرب من مصريات بعد تزويجهن صوريًا وبلاغ آخر يتهم خمسة مستشفيات متورطات في بيع الكلى (المصور في ٦ ديسمبر ١٩٩٢ م) وصحيفة الأحرار في شهر سبتمبر ١٩٩٩م.

وبناء على إبلاغات نقابة الأطباء العامة تم تحويل الأطباء المتاجرين للأعضاء البشرية (مجلة أكتوبر ٢٠/ ٤/ ١٩٩٧م)، وأبلغت النقابة العامة عن توريط مستشفيات خاصة في هذه القضية.

ونتيجة لذلك تدخل وزير الصحة وأكد خطورة هذه الظاهرة وأعلن في اجتماع مجمع البحوث الإسلامية في١٧ مايو١٩٩٧م، أن مجرد السماح بإجراء عمليات نقل الأعضاء في المستشفيات الخاصة يعني تحول هذه العمليات إلى تجارة حيث قال: «لو سمحت للمستشفيات الخاصة بنقل الأعضاء ستتحول هذه العمليات إلى أن تصبح تجارة، وكان البعض يلجأ إلى تزوير البطاقات الشخصية العائلية وإجراء زواج صوري من مصريات إلى أثرياء أجانب للتحايل بهدف الحصول على كلى المصريين لغير المصريين بادعاء وجود علاقة زوجية (كاذبة) لتحقيق قرابة من الدرجة الثانية التي تسمح بالتنازل عن كلية سليمة لزراعتها في جسم مصاب بالفشل الكلوي، وقامت النيابة بالتحقيق في بعض هذه الحالات وإلقاء القبض على بعض أصحابها»[1].

وللأستاذ الدكتور شروح وتوضيحات ـ يطول ذكرها ـ عن ما نشر في وسائل الإعلام المختلفة في صحف ومجلات وتلفزيون عن سرقة الأعضاء وانتشار هذه الظاهرة، وتأكيد العديد من الكتاب والمتحدثين عن سرقة الكلى من المواطنين الغلابة كما يقول[2].

---

(١) كتاب العودة إلى الحياة، تجربتي مع زراعة الكلى صـ ١١٤،١١٣ مطابع الأهرام رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٩٥٤، ٢٠٠٥م ، والدكتور صلاح ، صحفي وباحث إعلامي ، ونائب رئيس تحرير وكالة الشرق الأوسط.

(٢) للمزيد انظر المرجع السابق، صـ١١٠ ، ١١١.

المطلب الثاني: تبلد الحس وترك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن رسالة الإسلام، رسالة قيم وآداب وأخلاق، بالدرجة الأولى ، فلقد قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١]، فكأن رسالته ﷺ منحصرة في هذه المهمة الأخلاقية، والله ﷻ وصف هذه الأمة بأنها خير الأمم فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، «قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها ورأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ثم قال«من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها»، رواه ابن جرير[٢].

والنبي ﷺ أمر كل فرد من أمته أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٣]، وبين الحق سبحانه أن بعض الأمم السابقة لعنت من أنبيائها؛ لأنها تخلت عن هذا الواجب فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة:٧٨، ٧٩].

ويأتي تاثير الفقر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – لدى المسلم العالم بدينه– من أحد أمرين هما: الجبن أو الشغل، فالفقر إن لم يكن مجبنة، يدعوا إلى الجبن، فيخاف الفقير على نفسه وولده .... فهو مشغلة، يشغل الإنسان بهمومه فلا يجد من الوقت والفكر والحجة ما يساعده على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كما ينبغي ـ لاسيما وأنصار المنكر ـ بجميع صوره ـ أقوى وأكثر من أنصار المعروف، والقوانين التي كانت كلها أو جلها ـ من قبل ـ في جانب المعروف، صار منها الآن ما هو حارس للرذيلة وراض بالمنكر[٤].

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) تفسير ابن كثير ج١ صـ٣٧٤ ، مرجع سابق .

(٣) رواه مسلم في صحيحه عن أبي بكر ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، (١/ ٦٩) رضي الله عنه برقم (٤٩) دار إحياء التراث مرجع سابق.

(٤) كقوانين الحريات ، وتحرير المرأة، والخمر والتدخين والمعاملات الربوية والكباريهات، والأفلام .... وقانون الطوارئ، والتشريعات الاستثنائية ..... إلخ .

ترى ما عساه أن يفعل الفقير؟ (ينكر بقلبه)، وذلك أضعف الإيمان، صحيح أن هذا النوع من الإنكار مقبول شرعًا، وينجي صاحبه من العقاب، بيد أن هذا الإنكار لا يغير من الواقع شيئًا.

إن مثل هذا الإنكار لا يكف الناس عن الفساد والمعاصي؟ ولا يتحسن حال المجتمع؟ والدولة هي المسئول الأكبر عن تغيير المنكر؛ لأن الله ﷻ يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن.

«إن الإسلام في دعوته لتكوين مجتمع فاضل أمر الجميع بالتخطيط وقيام كل فرد وكل مؤسسة من مؤسسات هذا المجتمع بحمل قسط من هذا العمل، ولقد حمل الدولة القسط الأكبر من هذه العملية الاجتماعية التغييرية المستمرة، لأن أهمية الدولة في المجتمع تأتي من أنها تمثل القوة التي لا بديل عنها لإسناد الحق وسحق الباطل، وتحقيق قدر أوفى من الفضيلة والسعادة والأمن والسلام لبني الإنسان، وتأتي تلك الأهمية كذلك بإيجاد الجو المناسب الذي يمنع انتشار الفساد ويحفظ الإتزان الخلقي من الضياع.

إن ترك التمسك الكامل بالأخلاق والفضائل إلى الأفراد أنفسهم يعني أن قسمًا كبيرًا من القيم والمبادئ الإسلامية ستعطل عن التطبيق وأن المسلم نتيجة لذلك لا يجد الجو الذي يستطيع فيه تنفيذ أمر الله لأن جزءًا كبيرًا منه لا يمكن تطبيقه على الوجه الأكمل إلا عن طريق جهد جماعي، وهذا الجهد هو الذي يتيسر في الدولة لا في غيرها»[(١)].

والله ﷻ بين هذه المسألة خير بيان فقال: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة:٧١].

وقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٧١].

والفقر يشعر بقلة الحيلة، ورقة الحال، وعدم القدرة على التأثير المباشر والفعال في الموقف الحاضر لأحوال الناس، فضلًا عن شعور الفقير بالوحدة والغربة والهوان .... هذه عوامل قلما يتغلب عليها الفقراء.

---

(١) منهج التغير الاجتماعي في الإسلام صـ١١٠ ، مرجع سابق .

«إن الجميع منشغلون بمشكلات اليوم والفترة القصيرة والكل ـ عدا سلطة الحكم ـ غير قادرين على التأثير بالقدر الكافي للتغيير، ويتخذون مواقف الدفاع عن مصالح ذاتية محدودة، والحقيقة المحزنة أن مصر تفتقد رؤية مستقبلية ترسم طريق التقدم والمعيشة الكريمة لأبنائها»[1].

إن مجابهة الباطل كما أنها تحتاج إلى تخطيط، وحكمة، وتعاون تحتاج إلى وقت وعلم وصبر، وكل هذا لا يأتي من فراغ، وإنما يحتاج إلى تدريب وترتيب وقدوة واستعداد ..... والفقير الكادح تراه غير مستعد للقيام بأعباء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما ينبغي، فضلًا عن وتعاونه مع المنكر ورضاه عن أهله؛ لأن المعاصي إذا انتشرت وكثرت فإن القلب يألفها، ولا يرى غضاضة أن يتعاون أو يتعامل معها، ولاسيما لو كان في حاجة إلى الطعام أو الدواء، فالفقير هو (المرشح دائمًا) للخدمة، وإرضاء الأهواء، وتنفيذ الأوامر.

إن غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ــ كما أراده الإسلام ـ جعل كثيرًا من المنكرات يعلن عنها فاعلوها وهم آمنون من العقاب أو حتى الحساب أو العتاب[2].

إن قوى الإصلاح بكل إمكاناتها وألياتها ـ بعيدًا عن منهج الله ـ تعجز عن مواجهة المنكر الذي تفشى وانتشر بطريقة غير مسبوقة ـ مثلًا ـ ظاهرة التلوث البيئي وهي من المنكرات التي طالما تكلم عنها المصلحون وحذروا من خطورتها[3]، وهي في ازدياد فما بال الجرائم الكبرى التي أشرت إلى بعضها فيما سبق هل في مقدور الأفراد ـ لاسيما الفقراء ـ أن يواجهوها؟! أو يقللوا من خطرها على المجتمع؟!

إذن الفقر، ورقة الحال، وتفرق الناس، وانشغالهم بهمومهم اليومية....عقبات كؤد أمام الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

---

(١) مصر المحروسة صـ٤١ ، مرجع سابق .

(٢) كالزواج السري (العرفي كما يسمونه)، والإفطار علنًا في رمضان ، والتحرش الجنسي والاغتصاب وتلويث البيئة ، والسكر، والعلاقات الآثمة بين الجنسين، لاسيما في حرم الجامعة وأماكن التربية والتعليم، ويكفي أن تنظر إلى الشباب والبنات في الجامعات المصرية الخاصة منها والأميرية ، أو أن تتجول ساعة في الأماكن العامة والحدائق ، والمصايف وأمام الكباريهات ، ودور السينما ..... إلخ

(٣) انظر كتاب التلوث لعنة العصر/ مهندس سعد شعبان صـ ١٠ وما بعدها طـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩م .

المطلب الثالث: زيادة عدد اللقطاء وأطفال الشوارع:

الزنا جريمة بكل المقاييس، وجريمة أخلاقية واجتماعية، وهي فوق ذلك وقبل ذلك من أكبر الكبائر التي أجمعت على تحريمها وتجريمها قوانين الأرض والسماء، اللهم إلا من انتكست فطرتهم، وغلبت عقولهم شهوتهم، فصاروا عبيد الهوى والشهوات، وهذه الجريمة عادة ما تمارس في الخفاء، وقلما يجرؤ بإعلانها إلا شيطان رجيم أو حيوان بهيم، «الزنا جريمة خلقية واجتماعية بالغة الفحش، ولعل الاختلال الاقتصادي ـ بما يخلقه من بؤس وترف ـ أهم الأسباب المؤدية إلى انتشار هذه الجريمة، إن الشهوة الجنسية لابد وأن تتحرك مع الفقراء والأغنياء على السواء، فإذا لم تتح لها الحركة الطيبة،لم يبق أمامها غير الحركة الخبيثة.

والعصمة المؤقتة، أو الدائمة عند بعض الرجال الفضلاء، أو الرجال الهادئين، لا يصح الالتفات إليها عند وضع تشريع عام، يراد به حفظ عفاف الأمة، وصيانة قوى الشباب المادية والأدبية والفعلية.

فإذا أردنا ـ باسم الدين ـ قمع الحركات الخبيثة للشهوة الجنسية، فيجب أن نيسر وأن ننظم أسباب الاتصال الجنسي الحلال، وأن نفرغ من العمل على وضع الحلول الصحيحة لهذه المشكلة المعقدة، ولن يكون ذلك إلا بإعادة النظر في فهم حقيقة الزواج، والأساليب العسيرة التي يتم بها الآن»[1].

وقد سبقت الإشارة أن كثيرًا من الشباب في ظل الظروف الاقتصادية الحالية وقلة ذات اليد، يعزفون عن الزواج الشرعي، أو يتأخرون إلى سن العنوسة، فيندفعون إلى أمور تستحي بعض الحيوات أن تفعلها أو تمارسها إلا في الخفاء[2]، وبعض الناس ـ وقد قلّ الحياء ـ إلا من رحم ربي ـ يعلن بهذه الأفعال الذميمة حتى صارت مشكلة تقلق الكثيرين«إننا أمام مشكلة تحرش أخلاقية عميقة الجذور تتفاقم أمامنا منذ فترة طويلة وحذرت منها العديد من المنظمات النسائية ومن خطرها على السياحة؟ وهل نسينا أن الكثير من الدول الغربية حذرت رعاياها القادمين إلى مصر من التحرشات الجنسية بشوارع القاهرة؟! بل طبعت لهم كتيبات عن كيفية مواجهة هذه التحرشات التي باتت علانية .... ووضعت لهم قاموسًا لكلمات التحرش المتداولة في الشارع المصري!

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ٦٦،٦٧، مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب «الاغتصاب ، أسبابه وعلاجه» تأليف / ناصر بن محمد السليماني صـ١٩ ، طـ مكتبة الدعوة ٢٠٠٢م.

الغريب أن البعض منا بكل عاطفة ساذجة مازال يتصدى مدافعًا بأننا بلد الأمن والأمان وأن المتحرشين فئة قليلة يجب ألا نلتفت إليها وهم في زوال بإذن الله وادخلوها بسلام آمنين .....! أيها السادة: الأحكام القضائية رغم أهميتها الحيوية لا تكفي في مثل هذه القضايا الأخلاقية عميقة الجذور ولا تستطيع وقف التيار الكاسح لثقافة متسلقة تعشش فوق رءوس الكثيرين وتجد البيئة الخصبة لنموها أعزائي المبتهجين بالحكم على المتحرش ـ وأنا واحد منهم ـ بغير المواجهة الشاملة والجادة لتلك الثقافة الظلامية وتحسين الظروف البيئية المحبطة للشباب وسط طوفان الفساد»[1]

بدون ذلك لن يتحسن الوضع، ما كانت مصر تعرف هذه السلوكيات الخاطئة التي نبتت وتغذت ونمت وانتشرت في غيبة الضمير والشرع والقانون، وفي شيوع ثقافات هابطة تهتم بالجنس، وتستجيب للغرائز الدنيا، وتطلق الحريات دون قيود أخلاقية، أو حدود شرعية فكان ما لا يتوقع أن يكون.

«إن المجتمع المصري يتميز من قديم بدماثة أخلاقه وتدينه، ومحافظته على أصوله وثوابته، ومن ثم تتعالى الصيحات بالرفض لكل ما يخرج على المنظومة القيمية والآداب العامة التي درج عليها.

لذلك فجّرت حادثةالتحرش الجنسي التي شهدتها بعض شوارع وسط القاهرة في شهر أكتوبر بسنة ٢٠٠٨م العديد من التساؤلات حول هذا السعار الجنسي الذي طفا بشكل مفاجئ على سطح مجتمعاتنا ذات الطابع المحافظ والقيم الضابطة، بالطبع طرحت القضية على بساط البحث ونوقشت في مختلف وسائل الإعلام، وتناولها بالبحث علماء الدين والتشريع إلى جانب علماء التربية وعلماء النفس والاجتماع، وقد حاول الجميع ـ كل في مجال تخصصه ـ تشخيص الداء ووصف العلاج.

(١) «احترس مصر ترجع إلى الخلف» ٢٠٨ ، ٢٠٩ بتصرف يسير ، مرجع سابق .

وتضيف الدراسة أن التحرش لم يعد مقتصرًا على الألفاظ الخارجة ولا حتى الجارحة، بل بدأ يأخذ أشكالًا متعددة تشير إلى تفاقم القضية بنسبة عالية قد تصل إلى ٦٠٪، بالإضافة إلى ما تلاقيه بعض السيدات في منزلهن من مضايقات وكذا ما تواجهه من ملاحقات في الشوارع والمواصلات وعبر التليفونات والبريد الالكتروني.....إلخ.

لقد تطور التحرش الجنسي فلم يعد فرديًا بل أصبح جماعيًا وهو عودة لروح القطيع والبلطجة التي يجتمع عليها الشباب اللاهي ، والتي تدل على الاستهانة بقيم المجتمع، لأن للشباب قوة غريزية جامحة إن لم ينفث عنها في الحلال أدى به الحال إلى التحرش بالفتيات ، وتأخر سن الزواج، ويرجع ذلك إلى سببين رئيسيين:

الأول: المعوقات المادية التي تواجه الشباب.

الثاني: عدم الرغبة عند البعض في تحمل تبعات الزواج.»[1]

وفي ذلك خطر على قيم المجتمع وتهديد للأمة، لدرجة أن كثيرًا من العلماء يطالبون بتطبيق حد الحرابة على مرتكبي تلك الجرائم بعد تجريد سيدة من ملابسها في عرض الشارع[2] والمطالبة بتدريب شرطة حريمي متخصصة لمنع هذه الظاهرة بعدما كشفت دراسات حديثة للمركز المصري لحقوق المرأة أن ٦٤٪ من النساء يتعرضن للتحرش يوميًا [3].

---

(١) انظر كتاب التحرش الجنسي أسبابه وعلاجه صـ ٣ ، ١٣، ١٤، ٥ ط- وزارة الأوقاف ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩م بتصرف بسيط، وبالهامش صـ ٥/ يقول الكتاب : أثبتت الدراسة أن ٦٢٪ من الرجال اعترفوا بالتحرش أكثر من مرة ، ٦٩٪ من حالات التحرش تقع بالشارع ، ٤٢٪ من حالات التحرش تقع في وسائل المواصلات ، ٢٢٪ من حالات التحرش تقع على الشواطئ ، ٦٪ منن حالات التحرش تقع في مواقع العمل، وانظر (مجلة منبر الإسلام عدد ١١٤ السنة ٦٧ شهر ذي الحجة ١٤٢٩هـ) ، والعدد ١٢ سنة ٦٧ ، مقال تحت عنوان (التحرش الجنسي ... المشكلة والحل).

(٢) هذا ما نشرته جريدة الجمهورية حرفيًا وبالبنط العريض يوم ٥/ ١١/ ٢٠٠٩م صفحة ٢٦ عدد (٢٠٤٠١) ، تحقيق أحمد جمعة بحضور علماء دين وتربية واجتماع منهم الدكتور/ عبد الحي عزب/ أستاذ الشريعة بجامعة الأزهر، والدكتورة/ إنشاد عز الدين أستاذ علم الاجتماع، والدكتور/ محمد عبد السلام أستاذ بجامعة عين شمس .

(٣) صحيفة الجمهورية يوم ٣٠/ ١/ ٢٠١٠م عدد (٢٠٤٨٧) تحقيق صفوت عثمان، بحضور عدد من العلماء، وبشروح مطولة عن خطورة هذه الجرائم على القيم والأخلاق ، وربط ذلك بالمشكلة الاقتصادية .

والأسباب كثيرة ومنها الظروف الاقتصادية التي تعاني منها البلاد، هذه الجرائم التي أصبحت ظاهرة للعيان تمارس في الشوارع والمواصلات العامة نذير خطر على قيم المجتمع وأخلاق أبنائه، ناهيك عن الزواج العرفي وغير ذلك من المفاسد التي لا يعلم مدى خطورتها إلا الله تعالى[1]، وكما قيل: ما خَفي كان أعظم.

ظـــاهرة أطفال الشوارع:

الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، ومن أهم واجباتها وأخطر مهامها، رعاية الأبناء ـ لاسيما ـ في المرحلة الأولى من حياتهم، إذ تعد مرحلة الطفولة والمراهقة أخطر المراحل التي تتشكل فيها شخصية الفرد والتي تعكس ـ فيما بعد ـ القيم والاتجاهات والمبادئ الأخلاقية، ولقد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بالأطفال في هذه المرحلة بالذات، كما أن هناك قوانين ومنظمات دولية تهتم بالطفل «حيث أنشأت الأمم المتحدة منظمة (اليونيسيف) في عام ١٩٤٦م التي أصبحت فيما بعد عام ١٩٥٣م جزءًا دائمًا من منظومة الأمم المتحدة فمهمتها الأساسية مساعدة الأطفال الفقراء في الدول النامية،وترعى الأطفال في سنوات العمر الأولى؛ إذ إن هؤلاء الأطفال ضحايا المشكلات السكانية والاجتماعية والاقتصادية، التي تتبلور في كثرة الإنجاب والتفكك الأسري والفقر»[2].

ومع هذا الاهتمام العالمي، والقوانين المحلية، والشرائع السماوية التي أجمعت على ضرورية مراعاة الأطفال بما يكفل لهم الحياة الكريمة، إلا إن ظاهرة أطفال الشوارع، وتكليفهم بالأعمال الشاقة التي لا تتناسب مع أعمارهم لازالت في ازدياد «فقد تزايدت حدة ظاهرة أطفال الشوارع في مدن مصر خاصة القاهرة، ولا يخفى على أحد أن هؤلاء الأطفال لهم تداعياتهم الأمنية الخطيرة»[3].

---

(١) انظر كتاب الاغتصاب أسبابه وعلاجه صـ ٧ وما بعدها ، مرجع سابق ، وانظر كتاب الولاية والشهادة في النكاح صـ٢٢٨ ، طـ دار النهضة ٢٠٠٧م

(٢) كتاب الديموجرافيا الأمنية صـ١١٣ ، صـ١٥٣ ، مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق صـ١١٣ .

عدد أطفال الشوارع في مصر وما يتعرضون له:

«يقدر عدد أطفال الشوارع على مستوى الجمهورية بـ ٢ مليون طفل.

ـ تشير بيانات المجلس القومي للطفولة والأمومة بالآتي[(١)]:

* القاهرة والإسكندرية أكثر الأماكن كثافة لظاهرة أطفال الشارع.

* ٩٢٪ منهم من الذكور و٨٪ من الإناث.

* ٣٢٪ منهم يقع سنهم بين(٥ ـ ٩) سنوات، و٤٤٪ يقع سنهم بين (١٠ ـ ١٤) سنة.

* ٦٦٪ منهم متسربون من التعليم أو لم يلتحقوا بالنظام التعليمي.

* ٨٠٪ منهم معرضون لحالات عنف مختلفة.

* ١٣ ٪ اعترفوا بتعرضهم لحالات اعتداء جنسي»[(٢)].

والسؤال: هل هناك ضياع للمبادئ الأخلاقية، والقيم الإيمانية والإنسانية، مثل هذا الضياع؟

إن هذه المخاطر التي يتعرض لها أطفال الشوارع تنعكس على المجتمع بأسره، ناهيك عن «وراثة الفقر والمكانة المهنية المنخفضة، نظرًا لكون هؤلاء الأطفال ينتمون إلى أسر من فئات اقتصادية ومهنية منخفضة مما يؤدي عادة إلى أن يورث هؤلاء الأطفال الفقر والمهنة التي نشأوا عليها في أسرهم، وبذلك يصبح مجالهم في تحسين مستواهم الاقتصادي، والاجتماعي ضعيف، وينحصر طموحهم في حدود متدينة»[(٣)].

---

(١) المجلس القومي للأمومة والطفولة ، حماية وتأهيل وإدماج الأطفال بلا مأوى (أطفال الشوارع) ، القاهرة ٢٠٠٦م.

(٢) كتاب الديموجرافيا الأمنية صـ١٥٨ ، مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق صـ١٦١ .

الأوضاع المعيشية لأطفال الشوارع:

أطفال لا مأوى لهم، ولا راعٍ ولا مرعى، ولا رقيب ولا حسيب، ولهم احتياجاتهم الخاصة وربما معها احتياجات بعض أفراد الأسرة؛ ـ إن كان لبعضهم أُسَر ـ ترى ما هي الأعمال التي يمارسونها؟ وهل تتفق مع القيم التي جاء الإسلام بها، وعاش بها ولها أبناء مصر؟ أو هل تتفق ـ حتى ـ مع القانون الدولي لحقوق الطفل؟

إن أولاد الشوارع الذين يدفع بهم إلى مقار الشرطة أو الملاجئ ودور الأيتام ولم يأخذوا حظاً من التأهيل والتعليم، تقول الأستاذة/ عزة كريم تحت عنوان:

جرس إنذار يدق المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية: «إن التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في المجتمع المصري في الفترة الأخيرة ساعدت على انتشار ظاهرة أطفال الشوارع بسبب التخلف الاقتصادي والاجتماعي، وأن طريقة القبض عليهم واحتجازهم في الأقسام والدفع بهم إلى الملاجئ ودور الأيتام يعرضهم للأذى، وكشف المشاركون في ورشة عمل تابعة للمركز أن أطفال الشوارع يرتكبون (٣٠٦٩) جريمة في السنة الواحدة»[(١)].

تقول التقارير والإحصائيات أن عدد أطفال الشوارع على مستوى الجمهورية يزيد عن ٢ مليون تتراوح أعماره ما بين (٥ : ٩) سنوات معظمهم تعرض للانحراف [(٢)].

إن الحرمان والذل والهوان يجعل الكثير من هؤلاء الأطفال ـ في هذه السن الحرجة ـ يقبل بالعمل في المهن الخطرة واللاأخلاقية[(٣)]، والانضمام إلى عصابات الشر وقرناء السوء من المجموعات الإجرامية التي تستغل سذاجة وبراءة واحتاج هؤلاء الأطفال أسوأ استغلال،

(١) صحيفة الوفد ٣/ ١١/ ٢٠٠٩، العدد (٧٠٧٨)، الصفحة ١٦ ــ إلى الأخيرة،والأستاذة عزة كريم أستاذ علم الاجتماع بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.

(٢) كتاب الديموجرافيا الأمنية صـ١٥٨، مرجع سابق. وسأعرض لهذه المسألة بالتفصيل في الفصل الرابع، المطلب الرابع.

(٣) أشرت إلى العمل في المهن اللاأخلاقية بالنسبة للمرأة والطفل تحت وطأة الفقر ، وذلك صـ...... من هذا البحث .

وإليك بعضًا من الأعمال التي يمارسها أطفال الشوارع حسب تقرير الخبراء:

«١ ـ القيام ببعض الأعمال الهامشية التي تدر عليهم بعض الربح مثل تلميح الأحذية وغسل السيارات.

٢ ـ الانضمام إلى العصابات الإجرامية التي تحترف النشل والسرقة وتوزيع المخدرات وتسهيل الدعارة.

٣ ـ ممارسة التسول أمام المساجد وفي الأماكن المزدحمة.

٤ ـ جمع القمامة والمخلفات، كالورق المستعمل والقماش الممزق والزجاجات والعلب الفارغة وبيعها إلى التجار لإعادة استخدامها.

٥ ـ مسح زجاج السيارات في إشارات المرور، أو داخل مواقف السيارات»[1].

لقد تحولت براءة الأطفال إلى إجرام وعنف وصارت أدوات سهلة ورخيصة للأنشطة اللامشروعة ، سواء في الترويج أو التوزيع أو التصنيع أو النقل لكل مواد الفساد والفسق والفجور.

تقول الدكتورة/ عزة كريم: «جرس إنذار يدقه المركز القومي للبحوث الاجتماعيةوالجنائية، فالملاجئ ودور الأيتام بؤر لتفريخ الإرهابيين، وأنه من الصعب فصل ظاهرة أطفال الشوارع عن التخلف الاقتصادي والاجتماعي، وأن أطفال الشوارع يرتكبون ـ ٣٠٦٩ جريمة مختلفة في السنة الواحدة، السرقة بنسبة ٥٦٪ والتشرد بنسبة ١٦،٥٪ وأن محافظة القاهرة هي أعلى المحافظات تليها بورسعيد ثم السويس»[2].

---

(١) كتاب الديموجرافيا الأمنية معهد الإحصاء عام ٢٠٠٧م صـ١٦٣ ، مرجع سابق .

(٢) د/ عزة كريم أستاذ علم الاجتماع بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، تحت عنوان «أولاد الشوارع وحقوق الإنسان في إطار الإتجار بالبشر والزيادة المطردة في أعداد أطفال الشوارع» ، صحيفة الوفد ٣/ ١١/ ٢٠٠٩م عدد (٧٠٧٨) صـ١٦.

والعجيب أن محافظة القاهرة وهي (العاصمة) تحتل المركز الأول في عدد هؤلاء الذين ينتمون إلى هذه الفئة، وليست المحافظات النائية أو الحدودية، أي أن الخطر في القلب، وأنه يتهدد المجتمع في العمق، وليس في طرف من أطرافه... تأمل!!

والأعجب من ذلك كثرة التحذيرات من العلماء المتخصصين وتكرارها بين الحين والحين ومنذ سنين والخطر قائم وفي ازدياد[١].

* * *

(١) ولولا خشية الإطالة لذكرت الكثير والكثير من التحذيرات من خطر هذه الظاهرة، وليس آخرها ما نشر في صحيفة المساء ٢٧/ ٢/ ٢٠١٠م، الصفحة الأولى تحت عنوان: (فوضى الشوارع والباعة الجوالون والأرصفة).

المبحث السابع: أثر مشكلة الفقر على الكيان السياسي للدولة

وفيه تمهيد وخمسة مطالب

المطلب الأول: سوء العلاقة بين عامة الشعب والسلطة الحاكمة.

المطلب الثاني: السخرية والاستهزاء وكتمان العداء للسلطة.

المطلب الثالث: قيام الاحتجاجات للمطالبة بتوفير ضروريات الحياة.

المطلب الرابع: ظهور التيارات المناوءة لنظام الحكم سياسية كانت أو اجتماعية.

المطلب الخامس: ظهور الثورات المطالبة بالحرية، والعدالة الاجتماعية.

تـمـهـيـد

الفطرة الإنسانية تشهد أن للإنسان ميولًا طبيعيًّا لأسرته وعشيرته ووطنه وقومه ... الفطرة السليمة لدى الإنسان السوي تقول ذلك، والفقر ـ مع الأسف ـ يؤثر سلبًا على هذه الفطرة فلا يستطيع الإنسان مع الحاجة الملحة أن يحافظ ـ كما ينبغي ـ على فطرته وسويته واتزانه وحبه لوطنه وأهله ... كل ذلك يتلاشى ويضيع أمام ضغوط الحياة وضروريات المعيشة.

وإذا كان للفقر آثار سيئة وخطيرة على كيان الفرد والأسرة والمجتمع ـ كما ذكرت في الصفحات الماضية ـ فإن آثاره على الكيان السياسي للدولة أخطر وأكبر وأدهى وأمرّ.

فالفقير الذي لا يجد قوت يومه ولا علاج مريضه، لا مانع عنده ـ غالبًا ـ من رفع صوته والقيام بالأعمال الاحتجاجية والسخرية والاستهزاء، والتحالف مع التيارات المناوئة للسلطة الحاكمة، وربما ترك الولاء[1] وأعلن البراء، والتربص وانتظار الفرص للخروج على النظام ... والهجرة والخيانة...، وهذا خطر كبير وشر مستطير.

والأمثلة على ذلك عديدة ..... «ففي مصر تحتوي ملفات المخابرات العامة على حالات استقطاب للمصريين بالخارج ووقوعهم في براثن الجاسوسية لحساب دولة إسرائيل، نتيجة لإغراءات معينة»[2].

وإذا كان الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ قد تأثروا بالفقر ـ وهم أهل تقوى وإيثار كما شهد لهم القرآن الكريم ـ فكيف حال فقراء اليوم قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

---

(١) انظر ما نشر في صحيفة الأهرام بتاريخ ١٥/ ١/ ٢٠١١م، صـ ٢٠، تحت عنوان محاكمة شبكة الجاسوسية ... نصائح الموساد للعميل المصري ورد هذا العميل في التحقيقات على سؤال المستشار طارق الخولي ..... هل لديك أقوال أخرى قال العميل: أنا غلطت وأنا ندمان ولكن ظروف معيشتى التي كانت في الصين كانت صعبة جداً وهذا ما اضطرنى أبعث رسالة للمخابرات الإسرائيلية وأقول لهم أنا عايز أتعامل معاكم.

(٢) الديموجرافيا الأمنية صـ ٩٥، مرجع سابق.

ذكر المفسرون صورًا من تطلع بعض الصحابة الكرام للغنائم والأنفال واختلافهم بشأنها، ومطالبتهم الصريحة لرسول الله بتقسيمها عليهم[١]، وقد حدث هذا في غنائم حنين وبدا الاحتجاج من الأنصار واضحًا لا لبس فيه ولا غموض[٢] مما جعل رسول الله ﷺ يخاطب رؤساءهم بل ويجمعهم ويخطب فيهم ليرضيهم...

ولعل ما حدث في غزوة أُحد من ترك الرماة مواقعهم ـ مع أن رسول الله ﷺ أكد عليهم أن لا يتركوا أماكنهم ـ لعله دليل آخر يؤكد لنا خطورة الفقر على الكيان السياسي للدولة.

وسأذكر ـ باختصار شديد ـ بعضًا من المخاطر التي تهدد الدولة في العصر الحديث، بسبب الفقر، وسأراعي الضوابط العلمية والحدود المسموح بها في البحث العلمي[٣].

***

(١) انظر تفسير ابن كثير ج٢ صـ ٢٧٢ ، ٢٧٣ مرجع سابق.

(٢) انظر فقه السيرة النبوية للشيخ محمد الغزالي صـ ٢٩٨ : ٢٩٩ ، مرجع سابق، وكتاب الرحيق المختوم صـ ٤٠٥ ، مرجع سابق.

(٣) لأن معظم ما قرأته من كتب ومجلات وجدته يصرح بأسماء بعض المسؤلين الكبار، وينتقد بطريقة لا تتفق مع البحث العلمي، لذلك اقتصرت على الكتابات التي حافظت على القيم العلمية والأخلاقية.

المطلب الأول: سوء العلاقة بين عامة الشعب والسلطة الحاكمة:

الطبقة الوسطى هي رمانة الميزان، وعندما يحدث خلل، ولو بقدر جرام واحد في هذه الرمانة التي تعرف من خلالها مقادير الأوزان، لا شك أن الوزن يختل، ولا يأتي بنتائج صحيحة، وقد بينت أن الطبقة الوسطى تآكلت وضعفت على حساب الفقراء، فزادت من أعدادهم، وزاحمتهم في القليل الذي بين أيدهم مما جعل هذه الأعداد الغفيرة تتطلع إلى الخلاص الذي طال انتظاره.

«فمعظم السكان في مصر يعيشون في مستوى اقتصادي واجتماعي منخفض، ويفرض هذا المستوى المعيشي المنخفض ظروفًا حياتية صعبة تجعل الإنسان العادي لا يهتم كثيرًا بأمور السياسة، فمحور اهتمامه هو حياته وهمومه الفردية والأسرية وهنا يتحدد الوعي الاجتماعي عند مستوى هذه الهموم لا يتجاوزها إلى المستوى العام .... والنتيجة تكون إفراطًا في السلبية واللامبالاة تجاه ما هو عام، وإفراطًا في الاهتمام بما هو خاص»[١].

إن مسألة السلبية وسوء العلاقة بين عامة الشعب والسلطة الحاكمة باتت من الأمور الواضحة، وعلى سبيل المثال لا الحصر ما نشرته صحيفة الجمهورية تحت عنوان: (غياب الهوية السياسية أزمة مواطنة)، ١٪ فقط من الشباب يعرفون عدد الأحزاب وسعة ٧٪ أعضاء بها، وانشغال الناس بلقمة العيش هو السبب[٢].

«يترتب على الفقر ضعف المشاركة السياسية للأفراد والعزوف عن المشاركة في الانتخابات العامة، وعدم فاعلية الأحزاب السياسية وسيطرة الأغنياء على مقدرات الحكم مما يؤدي إلى الدكتاتورية....... كما يترتب على الفقر حدوث اضطرابات أمنية وحركات إرهابية تستهدف تقويض النظام الذي يتجاهل الفقراء ويؤدي إلى ثراء الأغنياء المسيطرين على الحكم»[٣].

يقول الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ : «الكرامة الاجتماعية تقوم على المساواة بين الطبقات، وإقامة الموازين القسط بينهما، وجعل التكافل المادي والأدبي هو الرباط الذي يجمع شتاتها، ويركز قواها،

---

(١) المجتمع المصري صـ ٤٤٥ ، مرجع سابق .

(٢) للمزيد انظر صحيفة الجمهورية العدد ٢٠٥٢٠ بتاريخ الأحد ١٤ فبراير سنة ٢٠١٠م صفحة ٣، تحقيق/ محمد عبد الحميد أحمد.

(٣) أ.د / حمدى عبد العظيم، كتاب أبحاث ندوة الفقر والفقراء في نظر الإسلام، صـ ١٦١، مرجع سابق.

فلا تكون النعمة احتكارًا لطائفة ويكون الحرمان نصيب الأخرى، إذ إن هذه التعاسة مصدر ضعف عارم ومثار سخط مكتوم، تجعل أبناء الوطن الواحد لا يتحمسون للدفاع عنه ما داموا ليسوا سواء في الانتفاع بخيره، وقديما قال الشاعر:

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

وهذه الحقيقة هي سر الفتور والبرود الذي يسود الجماهير في الأمم المستعمرة، والشبيهة بالمستعمرة، فلابد من محاربة الاستعمار الداخلي ... حتى تهب الشعوب على قلب رجل واحد بإذاء أي هجوم يوجه إليها من أعدائها»[1].

يقول الدكتور رشدي سعيد: «أن عامة الشعب المصري يعيش في مأساة تجعله في ارتباك دائمًا لا يفيق منه، ولا يقوي معه للبحث عن القضايا العامة بسبب المعاناة التي تعانيها الأسر الفقيرة (كتلة البشر الغاطسة) والتي يصل تعدادها ـ حسب ملخص الأهرام الاقتصادي بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٤م ـ إلى خمسين مليونًا تنتظم في حوالي٨.٥ مليون أسرة يتراوح دخلها الشهري بين ١٠٠ مائة جنيه إلى ٥٠٠ خمسمائة وأن أعداد هؤلاء الفقراء في ازدياد»[2].

أذكر وأنا مجند سنة ١٩٨٨م وكانت التعليمات تلقى علينا في طابور الصباح، وكلها أوجلها عن السمع والطاعة والدفاع عن الوطن ..... فسمعت من بجواري يقول بصوت خافت:ـ

سمعًا وطاعةً لأمر لست أفهمه إذ كيف أفهمه إذ لست أرضاه

لا بيت لي من الطين أسكنه أقصرـ فأمرك هذا نفسيـ تأباه

وعندما انتهى الطابور سألته: وقد سرد أبياتًا كثيرة عن حاله وحال أسرته، فقال: هل تعلم أني أعيش أنا وأبي وخمس بنات هن أخواتي يتراوح أعمارهن بين ثلاثة أعوام وسبعة عشر عامًا في غرفة واحدة لا تزيد مساحتها عن عشرة أمتار مربعة، ترى عن أي وطن نقاتل؟ أبي يعمل بوابًا في عمارة نسكن أسفلها في غرفة لا نملكها!!

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ١٠٨ ، مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب (الحقيقة والوهم في الواقع المصري) صـ١٥ وما بعدها ، مرجع سابق.

ولقد نشر فاروق جويدة قصيدة بعنوان (كانت لنا أوطان) ختمها بقوله:

يــا فــارس الشــعر قــل للشــعر معــذرة   لن يسمع الشعر من بالوحي قد كفـروا
واكتــب عــلى القــبر هــذه أمــة رحلــت   لم يبــق مــن أهلهــا ذكــر ولا أثــر[1]

ويقول الدكتور أحمد عكاشة: «كلنا نشعر الآن أن المواطن المصري قد أصبح جزيرة منعزلة مستقلة عن الوطن يشعر بوجوه غريبة وانكفاء على الذات دون أن يجد حلًّا أو مهربًا خاصًّا لمشاكله، الأقرباء والجيران والأصدقاء والمعارف لم يعودوا عزوة الوطن، بل باتوا غرباء عنه أو انقلبوا خصومًا له في بعض الأحيان وترتفع بين الحين والحين شعارات (إعادة بناء المواطن المصري) و(الانتماء كيف يتحقق) والذين يتحدثون عن انتماء المواطن المصري لا يهتمون بالبحث عن دور هذا المواطن في وطنه، ولا ينادون بتدارك وتلاقي الأسباب التي حدى بها المواطن إلى أن يصبح جزيرة منعزلة .... إلى الحد الذي يجعله غير عابئ بشيء في الوطن بدءًا بحقه الانتخابي، وانتهاءً بحرصه على عدم الإسراف في استهلاك المياه، هذه إذا توفرت في صنابير منزله أصلًا»[2].

ولم يقف الحال عند حد الفتور وضعف العلاقة بين عامة الشعب والسلطة الحاكمة، بل زاد الأمر إلى درجة السخرية والاستهزاء وكتمان العداء للسلطة والنظام ... وهذا ما سأذكره .. باختصار.

---

(١) أخبار المصريين في القرن العشرين من سنة ١٩٧٦ إلى ٢٠٠٠م ، تأليف/ سعيد هارون عاشور، مكتبة الآداب سنة ٢٠١٠م صـ٩٧، وانظر إلى كتاب الأعمال الكاملة للشاعر أحمد مطر، ط كنوز المعرفة الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠م، صـ ٤٠١ قصيدة يعنون لها بعنوان (يسقط الوطن) لأنه – كما يرى الشاعر – لا يوفر للمواطن أبسط الحقوق التي يحيا بها كريماً، ويرى أيضًا أن وطنًا كهذا لا يستحق الدفاع عنه، ولا الموت في سبيله، ويقول: (ملعون أبو هذا الوطن)، ويقول: (يا سيدى خذه بلا شيء فقط......خلصنى من هذا الوطن)، وانظر صـ ١٧٤ –٣٤٢– ٥٧٢– ٦١٦ كلها أشعار وعبارات تهكمية وساخرة للشاعر عن الأوطان التي لا تهتم بالمواطن .

(٢) ثقوب في الضمير صـ١٦ إلى ١٨ ، بتصرف ، مرجع سابق.

المطلب الثاني: السخرية والاستهزاء وكتمان العداء للسلطة:

من أخطر القضايا التي تشغل بال العقلاء من الحكام والمسئولين في أي قطر، هي رضا الشعب عن نظام الحكم، أو ما يسمونه ـ بالرأي العام ، أو بالجبهة الداخلية ـ إذ إن العدو من الداخل أخطر بكثير من العدو من الخارج، فالإنسان الذي يفترض أن يكون مؤمنًا بحب الوطن يدافع عنه، ويفديه بروحه ودمه، يتحول إلى عدو أو حاقد أو مستهزئ بسبب ما آلت إليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ... أمر خطير، وخطير إلى أبعد الحدود، وينتج عنه أعظم الخيانات فهو أشبه بالسرطان الذي يسري في جسد الأمة ... أو بمرض الإيدز الذي يفقد صاحبه المناعة والمقاومة لأي جسم غريب ... فيصبح الترابط بين أبناء الوطن الواحد حبرًا على ورق سرعان ما ينهار أو يسقط في أول اختبار؛ لأنه ترابط هش لا وزن له ولا قيمة.

والإنسان العادي ـ فضلًا عن المثقف ـ الذي يطلع كل يوم على الصحف والمجلات والإصدارات والكتب والتقارير المحلية والدولية ..... يعلم يقينًا الحالة التي وصل إليها المجتمع المصري .. وبالأخص العلاقة بين الفرد والدولة، لا أقول الكم الهائل من الرسوم الكاريكاتيرية[1]، والقنوات الفضائية وبعضها يصرح بالاسم واللقب ... ويعلن بالسب واللعن... لأن البحث العلمى لا يسمح بمثل ذلك، ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة أن تطلع يومًا واحدًا على أهم الصحف والقنوات التي تتكلم عن الحالة الاقتصادية في مصر، وعن كم النكات التي تتردد على الألسنة عند قراءة هذه الصحف وعند الوقوف في طابور العيش، أو الجمعية التعاونية، أو في المواصلات العامة مما يخجل القلم عن كتابته[2].

(١) والصحف الرسمية ـأيضًاـ لا تخلو يومًا من الرسوم الكاريكاتيرية، لاسيما ما يتعلق بالأحوال المعيشية للمواطن المصري ووعود المسئولين بتحسين الحال والعمل على حل المشاكلة.

(٢) ناهيك عن الكتابات الساخرة، عن وزارة القوى العاملة، وحال الشباب وزيادة حالات التسول .... انظر كتاب «احترس مصر ترجع إلى الخلف»، مرجع سابق ، صـ ١١٥ ـ تحت عنوان ـ مطلوب شحاذين الوسطاء يمتنعون .

هذا الجو الداكن، والعلاقات القائمة بين أفراد المجتمع والتى يسودها الظلم والفقر، لتوحي بفصول من المواجهة بين الشعب والنظام القائم، لا تختلف كثيراً عن مواجهة قوى الإحتلال، يقول الشيخ محمد الغزالي: «إن عشرات الحكومات ظهرت في الشرق الإسلامي لا تعمد في بقائها على أثارة من حب، أو رائحة من أعذار، إنها ما تعتمد إلا على السيف وحده لبقائها، وما تتوسل بالحكم إلا لضمان مصالحها الخاصة، وكم نظن عمق الفجوة بين هؤلاء الحكام وبين أممهم المقهورة؟! لذا قلنا إن أمثال هذه السلطات استعمار داخلي، وان ما يتولد في ظلها من ذل وقطيعة وبغضاء هو المهاد الطبيعي للاستعمار الخارجي»[1].

ولم يكتف الشيخ محمد الغزالي بهذا الوصف بل يوجب على الشعوب المقهورة أن تفيق لتسترد حقوقها وتتبوء مكانتها وكرامتها فيقول: «هذا يوجب على الجماهير أن تستيقظ، لتضع حدًّا لهذا الافتئات الحقير، وهذا الاستهتار الكبير»[2].

إن كثيرًا من الكُتّاب بدأ يحذر من خطورة الوضع الراهن، لدرجة تنذر بالانفجار وتدق أجراس الخطر، وهذا ما ساذكره بالتفصيل في الصفحات التالية.

***

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ ١١١ ، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

المطلب الثالث: قيام الاحتجاجات للمطالبة بتوفير ضروريات الحياة:

لا أظن أن أحدًا يعيش في مصر ينكر هذه الحقيقة التي باتت واضحة وضوح الشمس في وسط النهار، فمنذ بدأت القراءة لإعداد هذا البحث وأنا أجد كل يوم احتجاجات معلنة وخفية، سواء أعلنت عنها وسائل الإعلام المقروءة، أو المرئية، أم لا، والتي تطالب المسئولين بتوفر الخدمات اللازمة والضرورية لحياة الشعوب، وتنذر بشر مستطير إن استمرت الأوضاع الاقتصادية على ما هى عليه.

والعجيب أن هذه الاحتجاجات متنوعة ومتكررة ويقر بوجودها وخطورتها المسئولون والعلماء المتخصصون في الاقتصاد والأمن.

وسأذكر بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر:

١ـ «في كلمته أمام قمة الغذاء يقول رئيس الجمهورية : الطعام حق أساسي للإنسان .... ومخاطر الأمن الغذائي تهدد حياة البشر، وقد حان الوقت لتجاوز الحوار إلى إجراءات جادة وملموسة تتعامل مع القضية على أرض الواقع [١].

هذا هو العنوان الرئيس للخبر وفي التفاصيل ما يطول ذكره، وكذلك في صحيفة الأهرام[٢] يقول/ رئيس مجلس الشعب: «معارضون وحركات احتجاجية يعملون للهدم لا للبناء .. وحذر من التظاهر أمام المحاكم، ووعد بالرد على الاتهامات التي توجه ضد أعضاء الحكومة»[٣].

وفي جريدة الأخبار سيادة المفتي د/ علي جمعة «يطالب بقوانين اقتصادية لحياة الفقراء»[٤].

وفي صحيفة الجمهورية ـ أيضًا ـ «مئات الشكاوي لعدم توافر أسطوانات الغاز»[٥]، ومثل هذه الشكاوى والاحتجاجات والمطالبة بتوفير الغذاء والدواء والمساكن والتعليم ، والخدمات الأخرى كثير جدًا.

---

(١) سأكتفي بذكر بعض الاحتجاجات المنشورة في بعض الكتب، وبعض الصحف الرسمية رغبة في الاختصار.

(٢) صحيفة الجمهورية عدد ٢٠٤١٣ ، صـ٣ ، الثلاثاء ١٧/ ١١ / ٢٠٠٩م.

(٣) صحيفة الأهرام صـ١، الأحد ٢٥/ ٧/ ٢٠١٠م عدد ٤٥١٥٦.

(٤) صحيفة الأخبار يوم ٢/ ١/ ٢٠٠٩م صـ١٦.

(٥) صحيفة الجمهورية يوم ٨ / ٢/ ٢٠١٠م صـ٢٥ ، عدد ٢٠٤٩٦.

ويكفي أن أشير إلى إحدى جلسات مجلس الشعب التي تنشر تفاصيلها صحيفة الأخبار تحت عنوان:

«جلسة عاصفة بمجلس الشعب خلال مناقشات قرار العلاج بالإجماع تأييد طلب التحري عن قرارات العلاج على نفقة الدولة من الداخلية والرقابة الإدارية»(١).

إذا كان هذا موجودًا في الجرائد والصحف الرسمية وقد- بلغ حدًّا يصعب عليّ حصره فكيف بالصحف والأخرى التي تعمدت أن لا أذكر منها شيئًا (٢) ناهيك عن ما تنشره وسائل النشر الأخرى من قنوات تلفزيونية وكتب وهيئات ونقابات.

ولعل ما قامت به نقابة المعلمين والأطباء وغيرهما للحصول على الكادر الخاص خير دليل على الاحتجاجات والمطالبة بتحسين الأجور.

«إن أكبر الأسباب التي تجعل العاملين بالجهاز الإداري للدولة، غير راضين عن عملهم بالحكومة هو قلة الدخل»(٣).

ولم يقف الأمر عند حد المطالبة والاحتياجات بل تجاوز ذلك إلى الاضطرابات والاعتصامات والمساءلات والاستجوابات التي أربكت الاقتصاد المصري وضاعفت من حجم المشكلة بدلًا من حلها.

الأمر الذي دعا السلطات إلى الحلول السريعة: كالعلاوات، وبطاقة التموين، وزيادة المرتبات استجابة لمطالب النقابات، وصاحب ذلك زيادة في الأسعار وبقيت المشكلة كما هى ورجعنا إلى المربع الأول: «مما أدى إلى انتشار حركات الاحتجاج غير العقلانية حتى أصبح الاقتصاد معتمدًا في الأساس على بيع الأصول وعلى تقديم الخدمات وتصدير العمالة وتقبل الإعانات»(٤).

---

(١) صحيفة الأخبار يوم ٢٨/ ٢/ ٢٠١٠م صـ ٥، عدد (١٨٠٥٥)، وفي تفاصيل الخبر استجوابات واحتجاجات واتهامات بالأدلة والأرقام.

(٢) بين يدي العشرات من المنشورات في الصحف الرسيمية وغيرها.

(٣) للمزيد انظر كتاب (جذور الفساد الإداري في مصر) صـ١٢٧/ ١٩٤/ ١٩٥، وما بعدها، مرجع سابق.

(٤) الحقيقة والوهم في الواقع المصري صـ ٥٢ ، مرجع سابق.

إن ما وصلت إليه الشعوب من يأس وذل وهوان جعل بعض العلماء يصف الحالة الراهنة «بالزلزال الذي يصيب النفس البشرية من قلق على مصير يعصف بكل إيجابياتها وتلك مأساة زلزالية بكل المقاييس!!»[١].

«بيد أن القوانين الدولية عمومًا والمواثيق الدستورية المصرية خصوصًا تؤكد على إلزام الدولة بالقيام على مصالح رعاياها وتوفير حد الكفاية اللائقة بآدمية الإنسان وتوفير العدل والأمن بالمعنى الشامل والواسع، بما يحول دون الاستغلال ويؤدي إلى تقريب الفوارق بين الدخول، ويحمي الكسب المشروع، ويكفل عدالة توزيع الأعباء والتكاليف العامة، وعلى التضامن الاجتماعي»[٢].

كل هذا ساقه العلماء في سياق الاحتجاج والمطالبة بتغير الأوضاع إلى الأحسن حتى يعود الأمن ويسود الاستقرار.

***

---

(١) ماذا أعدت مصر لنفسها بعد أكثر من زلزال، د/ عبد الصبور شاهين صـ ٣١، طـ دار الاعتصام ١٩٩٦م.

(٢) جذور الفساد الإداري في مصر صـ ٣٤ وما بعدها، مرجع سابق، فلقد أفرد المؤلف مبحثًا خاصًا بالقوانين الدولية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وكذلك المواثيق الدستورية المصرية التي لا تختلف كثيرًا عن المواثيق الدولية .. وبعد سرد المؤلف لهذه القوانين يرى أنها باتت حبر على ورق فلقد جرى إهدارها ولم يحل وجودها من تردى أوضاع العاملين وغيرهم. انظر صـ ٤٠ للكتاب المذكور.

المطلب الرابع: ظهور التيارات المناوئة لنظام الحكم سياسة كانت أم اجتماعية:

كنت أظن أن الاحتجاجات لا تعدو ما ألفناه من الاعتصامات والاضطرابات يومًا أو أيامًا عن العمل، للحصول على علاوة ما أو كادر خاص ... ولكن فوجئت بأمور ما كنت أحسب أننا في مصر قد نصل إليها [١].

إن الاحتجاج والمطالبة بتوفير الخدمات وزيادة الجور عبر القنوات المشروعة، أمر مشروع، ومعتاد، ويحدث في كثير من البلاد التي يعاني أهلها من مشاكل اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية.

أما أن يتحول معظم الشعب إلى (خصم) مناوء، معلن عداءه للنظام القائم، أو على الأقل عدم رضاه عنه، وقوله لهذا النظام كفى [٢] فما عدت تصلح لقيادة الأمة .... إذا تحول المجتمع إلى هذه الحالة فهذا نذير خطر لابد من تدركه قبل فوات الأوان.

هذا ما يقوله العقلاء ويعملون له ألف حساب وحساب؛ لأن تماسك الجهة الداخلية أمر لا تخفى أهميته.

إن أصحاب هذا التوجه (مناوءة النظام) يرون أن السمكة تفسد من رأسها، وأنه قد مضى زمن الاحتجاجات وأنه لابد من تغير يبدأ من القمة، وأنه لابد من نظم بدلية وبناء أيد لوجبات سياسية واجتماعية وثقافية وذلك: «لعجز النظام القائم عن رؤية السلبيات وإصلاحها وتقديم أهل الثقة ... وفي ذلك خللا جوهريًّا سيؤدي بالوطن إلى كارثة»[٣].

يقول الدكتور جلال أمين: «لقد أشار بعض الكتاب إلى أن هناك، فضلًا عن ظاهرة الاستعمار، ظاهرة (القابلية للاستعمار) وقد تعدل هذا التعبير تعديلًا طفيفًا فنشير إلى (القابلية للتبعية) وتقصد بذلك موقفًا نفسيًّا لا يتعلق بالضرورة بمكاسب مادية من الارتباط بالقوى الخارجية، بل قد يتعلق فقط بضعف الشعور بالولاء للوطن والكرامة القومية، وضعف الحمية، والحماس لقضايا وطنية مجردة، والانصراف إلى الاهتمام بقضايا معيشية يومية، والانشغال بلوازم الصعود الاجتماعي للفرد وأسرته»[٤].

---

(١) انظر كتاب «لماذا لا يثور المصريون» علاء الأسواني، ط دار الشروق سنة ٢٠١٠م.

(٢) كحركة كفاية، وحركة الإخوان المسلمين، والوفد والناصري وغيرهم.

(٣) المرجع السابق صـ ٢٢٠، مرجع سابق.

(٤) ماذا حدث للمصريين صـ ٤٠، مرجع سابق.

إن هذا الذي يخشاه الدكتور جلال قد وقع بالفعل في أقطار عربية وإسلامية مجاورة، لا تقل في ادعائها الوطنية والعروبة والإسلام عن مصر، وتأمل ما يحدث الآن في العراق والسودان والصومال وغيرها من بلاد المسلمين، كم من أناس تعاونوا ولا يزالون يتعاونون مع المحتلين حتى صار أعداء الأمس أصدقاء اليوم؟

وكم من أناس هجروا أوطانهم سواء إلى الخارج أو الداخل بحثًا عن العمل الذي يكفيهم مؤنة الحياة[1] «إن افتقار المرء لخصوصيته وشعوره بأن المجتمع الذي يعيش فيه لا يعير هذه الخصوصية اهتمامًا .. يخلف لديه شعورًا بالغيظ والغضب وعدم الانتماء، ومن ثم الأنانية والتمحور حول الذات أو الرغبة في تحطيم المجتمع»[2].

* * *

(١) انظر ما كتب في ملحق الأهرام بتاريخ ٦/ ٣/ ٢٠١١م صفحة شباب التحرير رقم ١عن معاناة آلاف المصريين في ليبيا والتهديد باستخدامهم كدروع بشرية.

(٢) تشريح الشخصية المصرية صـ ٢١٢ ، مرجع سابق.

المطلب الخامس: ظهور الثورات المطالبة بالحرية والعدالة الاجتماعية:

يعجب أحد الصحفيين من صبر المصريين وقدرتهم على التحمل ومواصلة الحياة في الظروف المعيشة الصعبة، حتى إنه يعنون لكتابه بعنوان «لماذا لا يثور المصريون؟» وكان الرجل يذكر الأثر القائل: عجبت لمن بات جائعًا كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه.

يقول صاحب الكتاب المذكور: «الوضع في مصر متدهور في كل المجالات، وقد فشلت الحكومات المتعاقبة في تأمين أسبط حقوق المواطن المصري، في العمل والسكن والعلاج والحياة الكريمة المحترمة، ملايين المصريين يعانون من الفقر والبطالة والقمع والفساد، وهذا الفشل الكبير لا يعود إلى تقصير المسئوليين المصريين بقدر ما يعود أساسًا إلى الطريقة التي تحكم بها مصر، والطريقة التي يحصل بها أي مسئول على منصبه وبها تحدد تصرفاته في هذا المنصب»(١).

يستطرد الكاتب في ذكر ما آلت إليه الأمور ويذكر مواقف حدثت له، وتجارب مرت به وهو يرغب في علاج الوضع القائم وهو يسأل نفسه ويقول: «لماذا لا يثور المصريون والحق أن في مصر من الظلم والفساد والاستبداد ما يكفي لإشعال عشر ثورات في بلد آخر .... فلماذا لا يثور الناس في بلادنا؟ هل لأنهم جبناء؟ الإجابة بالنفي .... إن ما يمنع المصريين من ذلك خبرتهم الأليمة بالقمع وبيأسهم الكامل من الإصلاح، وقد تعود المصريون أن يبتعدوا قدر الإمكان ....

هم فقراء لا يملكون ترف الدخول في معارك رومانسية؛ لأنهم يخوضون كل صباح معركة مريرة ضارية ينتزعون آخرها الطعام لهم ولأولادهم»(٢).

ولقد جاءت ثورة الخامس والعشرين من يناير سنة ٢٠١١م، لتكون خير شاهد على آثار الفقر، ولتؤكد ما سبق ذكره، وتزيد عليه ما لم نكن نتوقعه.

هذه الثورة بأحداثها، وشعاراتها، وأهدافها، ونتائجها.....فاجأت الباحث.....ولم يكن في الحسبان أن يتوقع ما حدث في أيام الثورة.....كان التصور الحاضر منذ تسجيل هذا البحث وبدء الكتابة فيه (٣) لا يعدو ما هو مألوف ومعروف ومتكرر في مصر، والذى تم رصده والكتابة عنه في

---

(١) «لماذا لا يثور المصريون» صـ ٩٦ ، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق صـ ١٠ ، بتصرف.

(٣) سجل هذا البحث بتاريخ ١/ ١٠/ ٢٠٠٩م، أما بدء الكتابة لوضع الخطة كان قبل ذلك بثلاثة أشهر.

الصفحات السابقة، أما أن تقوم ثورة بهذا الحجم، وتتطور الأحداث بهذه السرعة، وتتواصل الجهود بعزم، وحزم بين جميع القوى السياسية رغم اختلاف مشاربها وانتمائها على هدف واحد (إسقاط النظام ومحاكمة رموزه) هذا ما لم يكن يتصوره الباحث، لا عند اختيار الموضوع (مشكلة الفقر في مصر وأثرها على القيم)، ولا عند كتابة هذا الفصل (أثر مشكلة الفقر على الكيان السياسي للدولة).

والحق أن ما ذكر في الصفحات السابقة ـ بقدر الله تعالى ـ ليبين أن الثورات الكبرى لا تقوم بين عشية وضحاها ولا لمجرد وجود بعض التجاوزات هنا أو هناك، وإنما هناك سنن إلاهية ومراحل منهجية لابد منها أولًا لقيام أى ثورة، ومن هذه السنن:ـ

١ – التدرج الطبيعى لقيام مثل هذه الثورة:

إذ تبدأ الثورات ـ غالبًا ـ بسوء العلاقة بين الحاكم وعامة الشعب ... ثم تتطور إلى السخرية والاستهزاء وكتمان العداء، بسبب الجور والفساد وعدم العدالة في الحقوق وتوزيع الثروات، وكبت الحريات ... ثم تقوم الاحتجاجات المطالبة بالاصلاح المالى والسياسي والإداري والاقتصادي...ثم ييئس الشعب من النظام بسبب عدم التجاوب معه والاستخفاف بمطالبه[1] الأمر الذي يؤدى إلى ظهور التيارات المناوءة للنظام السياسية منها والاجتماعية، من ثَمّ إلى الثورات الغاضبة، سواء أكانت حمراء أم بيضاء.

٢ – الكم الهائل من الفساد المالي والإداري ... الأمر الذي زاد من فقر الفقراء ... وظلم الظالمين، والذى ساعد على قيام هذه الثورة، بل وعلى استمرارها وصمودها ووصولها إلى بعض أهدافها.

ورغبة في الاختصار، أذكر هنا ـ فقط ـ ما يرتبط بموضوع البحث ليكون دليلًا آخر يضاف إلى ما سبق ذكره قبل قيام هذه الثورة.

أولاً:– أسباب الثورة:

لا ينكر أحد أن الثورة قامت بسبب الفقر والظلم، أو بعبارة أخرى بسبب انعدام العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل، وبسبب التضييق على الحريات والتعبير عن الرأ ي.

ولذا أقول: مشكلة الفقر في مصر.... ومن مظاهرها البطالة.... تستقل بنصف الأسباب التي قامت بسببها الثورة [2].

---

(١) هذا أقصى ما كان يتصوره الباحث عند وضع خطة البحث.

(٢) انظر ما كتبه/ عبد الحليم قنديل في كتابه ــ كارت أحمر للرئيس ــ بعنوان (يا مبارك نسألك الرحيل)، صـ ١٠٤ وما بعدها، مرجع سابق، وانظر أيضاً ما كتبته الصحف القومية الثلاث يوم الثلاثاء ٨ فبراير٢٠٠١م، وخصوصًا صحيفة الأخبار ـ الصفحة الأولى ـ تحت عنوان سيل من بلاغات الفساد.

وفى هذا دليل كاف وقاطع على أن الفقر يؤثر على الكيان القائم للدولة من جهة، وعلى القيم الأخلاقية المتبادلة بين الحاكم والمحكوم من جهة أخرى.

ويكفي أن ننظر إلى الشعارات التي رفعت أيام الثورة، وإلى الكلمات التي ترددت على ألسنة الثوار في ميدان التحرير، وفي الميادين الأخرى على مستوى الدولة [(١)] والتي نقلتها وسائل الإعلام على مدى أيام.

لقد بدأت الثورة بطلب التغيير والإصلاح، ثم تطورت وارتفع سقف مطالبها إلى تغيير النظام بالكامل، واستبداله بنظام عادل يقوم على الحرية والعدالة الاجتماعية.

والسبب في ذلك انضمام أعداد أخرى للمتظاهرين، معظمهم من الفئويين الذين يشكون من الظلم والتمييز في الرواتب والأجور والدرجات الوظيفية، وساعد على ذلك ما كشفه الإعلام – أيام الثورة– من الفساد المالي والإداري، ومدى الهوة السحيقة بين الفقراء والأغنياء والتي ساعدت الدولة ونظامها في إنشائه وبقائه وحمايته [(٢)].

ثانيًا: أحداث الثورة:

لا تقل أحداث الثورة في دلالتها عن أسبابها، فإذا كانت الثورة قد قامت بسبب الظلم في تقسيم الثروات وفرص العمل ... والتضييق على الحريات ... فإن أحداثها تدل دلالة قاطعة على خطورة البطالة والفقر على الكيان السياسي للدولة.

وبالنظر إلى ما نقلته وسائل الإعلام المحلية والعالمية، على أن الشريحة الكبرى من المتظاهرين كانت من الشباب العاطل، أو على الأقل الشباب الراغب في تحسين فرص العمل ومستوى الأجور.

وبالنظر أيضًا إلى إصرار هؤلاء الشباب، وتحديهم للنظام، ومواجهتهم للموت، ومعاناتهم في المبيت في العراء ... في فصل الشتاء ... والعدد الذي سقط من القتلى والمصابين ... وانضمام الكثيرين

---

(١) ومنها ارحل امش... أريد أن أعيش.... أريد أن أتزوج ..... أريد وظيفة، أو فرصة عمل .... انظر صحيفة الجمهورية يوم ٢٦ مارس ٢٠١١م، صـ ١- ٣-٥-٦.

(٢) انظر ما كتب في صحيفة الأخبار يوم الجمعة ٤فبراير٢٠١١م، عن الفساد ومحاكمة عدد كبير من رموز الدولة بسبب ضلوعهم في الفساد المالي والإداري، انظر صـ ١-٦، وانظر ما كتب في الصحيفة ذاتها يوم ٣١مارس ٢٠١١م، عن الحسابات السرية لرموز النظام في الداخل والخارج ... وللعلم أن جميع وسائل الإعلام تكلمت عن هذا الأمر.

من المثقفين والعمال، والمهنيين ... حتى من جاءوا على ظهور الجمال والحمير والخيول ... بدعوى أنهم تعطلت أعمالهم[(١)] ... كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن هموم المعيشة لدى الكثير من المصريين هى التي حركت الأحداث وألهبت المشاعر، خصوصًا وقد ظهرت أسرار تتعلق بأموال الدولة، وبأحوال المسئولين ... وما لديهم من ثروات تفوق الخيال وموضوع الخصخصة، والاستثمار الداخلى والخارجي وتهريب الأموال إلى الخارج...وسن القوانين الميسرة، بل والداعمة للظلم والفساد ... في حين وجود فقراء وعاطلين عن العمل بلغت أعدادهم أرقام مخيفة ... كل ذلك يؤكد أن الثورة في مصر لم تقم من فراغ، وإنما قامت لأسباب ومرت بأحداث، وتهدف إلى أهداف لها علاقة بالوضع المعيشي السيئ في مصر.

ثالثًا:- أهداف الثورة:

من خلال ما سبق ذكره ... يمكن لي أن أوجز ـ في أقصر عبارة ـ أهداف الثورة فأقول: العدل والحرية.

وكما ذكرت أن نصف الأسباب التي قامت الثورة بسببها، تتعلق بالأحوال المعيشية في مصر، أذكر هنا أيضًا أن نصف الأهداف التي تهدف الثورة إلى تحقيقها هى العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل، وهذا واضح ومعلوم، وطالما أكد عليه الثوار بجميع طوائفهم ومشاربهم، وكذلك وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة، وكل ما سبق من أدلة تؤكده[(٢)].

---

(١) وهذا يدل على أن الفقير الذي ليس له إلا مصدر وحيد ومحدود ، أو ليس له مصدر دخل أصلًا، يمكن بل ويسهل تجنيده لإحداث القلاقل والفتن نظير مبلغ من المال ... في الوقت الذي يعترف فيه الرئيس السابق بأنه لا ينكر أن لديه ثروة والجهات الرقابية تعلم ذلك .... انظر صحيفة الأخبار بتاريخ ٩ مارس٢٠١١م، صـ ١ وكتاب أباطرة الفساد صـ ٢٩، مرجع سابق.

(٢) انظر صحيفة الأهرام يوم الجمعة ١٨فبراير٢٠١١م، من الصفحة الأولى وحتى الصفحة الثامنة، العدد رقم (٤٥٣٦٤)، عن مطالب الثوار، وانظر كتاب مليارديرات حول الرئيس صـ ١٥٥ وصـ ١٧٣ وما بعدها مرجع سابق، وكتاب أباطرة الفساد وزراء ورجال أعمال نهبوا ثروات مصر تأليف/ السيد عبد الفتاح، صـ ٩ وصـ ٢٨٣ وما بعدها ، ط دار الحياة للنشر والتوزيع سنة ٢٠١١م.

هذه المراجع التي ذكرتها عن أسباب وأحداث وأهداف ثورة ٢٥ يناير هي جزء من المراجع فقط على سبيل المثال لا الحصر، لأن جميع وسائل الإعلام تكلمت أو كتبت عن هذه الثورة.

رابعًا: ثمرات الثورة ومكاسبها:

إذا كانت أهداف الثورة تتلخص في طلب الحرية والعدالة الاجتماعية ... وهما المطلبان اللذان رافقا الثورة منذ شرارتها الأولى، واستمرا معها لا ينفكان عنها ولا ينفصلان، وإلى الآن فإن مسألة الحرية والعدالةالاجتماعية من أهم المسائل التي تتصدر قائمة المطالب لدى شباب الثورة وأنصارها[١] والحق أن الثورة قد نجحت نجاحًا كبيرًا فيما يتعلق بإطلاق الحريات، والتعبير عن الرأي ... ففي ثمانية عشر يومًا أطاحت الثورة برأس النظام، وقد استطاعت - بفضل الله - كسر حاجز الخوف لدى الكثيرين الذين أصبحوا يطالبون - ليل نهار وبصوت مرتفع - بمحاكمة المجرمين ورموز الفساد ومواجهة المؤيدين لهم، والمدافعين عنهم، بل وصار كل من له حق أو (شبهة حق) يطالب به دون خوف أو تردد.

بيد أن العدالة الاجتماعية في توزيع الثروات وفرص العمل (المطلب الثاني للثورة) لايزال يراوح مكانه، ولم تحقق الثورة إلى هذه اللحظة شيئًا يذكر في هذه المسألة، اللهم إلا الوعود والآمال المستقبلية ... والانتظار إلى ما تسفر عنه الأيام المقبلة [٢] والحق أن تحقيق العدالة الاجتماعية ليس كإطلاق الحريات ... فالأول يحتاج إلى جهود مستمرة وصبر ومثابرة ووقت طويل وقوانين صارمة، وميزانيات مدروسة وممولة ... وفوق ذلك، وقبل ذلك يحتاج إلى صدق نية، وتعاون حقيقي بين جميع أبناء المجتمع، فإذا كانت الثورة قد أطلقت الحريات وغيرت الكثير من النظم، واكتسبت الاعتراف الواسع لدى دول العالم، والتأييد الشعبي الكبير، رغم اختلاف المذاهب والمشارب والإيرادات ... إلا إن الطريق طويل لتحقيق جميع الآمال، والأهداف، لاسيما ما يتعلق بمشكلة الفقر، أو العدالة الاجتماعية، فالأمر يحتاج إلى الكثير والكثير من الجهود والأيدلوجيات والتعاون والإخلاص، والإحساس بالمسئولية أمام الله ﷻ وأمام الناس، والله أسال أن يعين العباد ويصلح حال العباد[٣].

---

(١) للمزيد انظر مجلة منبر الإسلام صـ٥٥، عدد ٤ ربيع الآخر سنة ١٤٣٢هـ/ مارس ٢٠١١م، للدكتور أحمد عمر هاشم والدكتور القصبي زلط، وغيرهما عن اختلال موازين العدالة الاجتماعية، وعلاقة الثورة بهذه المسألة.

(٢) انظر ما نشرته صحيفة الأهرام المصرية يوم الثلاثاء ٣ مايو ٢٠١١م / ص١،٣، تحت عنوان رئيس الوزراء: لرؤساء الصحف: المستقبل باهر بشرط الخروج من عنق الزجاجة...

(٣) وهذا ما سأذكره بالتفصيل - إن شاء الله - في الفصل الأخير من هذه الدراسة والذي يتعلق بالحلول المطروحة لمواجهة المشكلة.

والخلاصة:

١ ـ أن مشكلة الفقر لها آثارها الخطيرة على الفرد والمجتمع والكيان السياسي للدولة.

٢ ـ الفقر يدفع إلى العداء بين السلطة الحاكمة وبين أفراد الشعب.

٣ ـ والفقر قد يضعف الشعور بالولاء للوطن ويقتل الحمية ويعلّم الأنانية.

٤ ـ والفقر يهيئ أصحاب النفوس المريضة للتبعية الخارجية، وقد توجد المبررات التي تسكت الضمير، وتقنع الفقير أن هذه التبعية هي البديل عن النظام القائم، وفي ذلك من المفاسد ما الله به عليم.

٥- الفقر يدفع إلى الثورة على النظام ومواجهته، والمطالبة برحيله والاصرارعلى تغييره، بل ومحاكمته على ما قصر واقترف، وهذا ما أكدت عليه ثورة ٢٥ يناير سنة ٢٠١١م.

ونسأل الله السلامة والرشاد آمين.

* * *